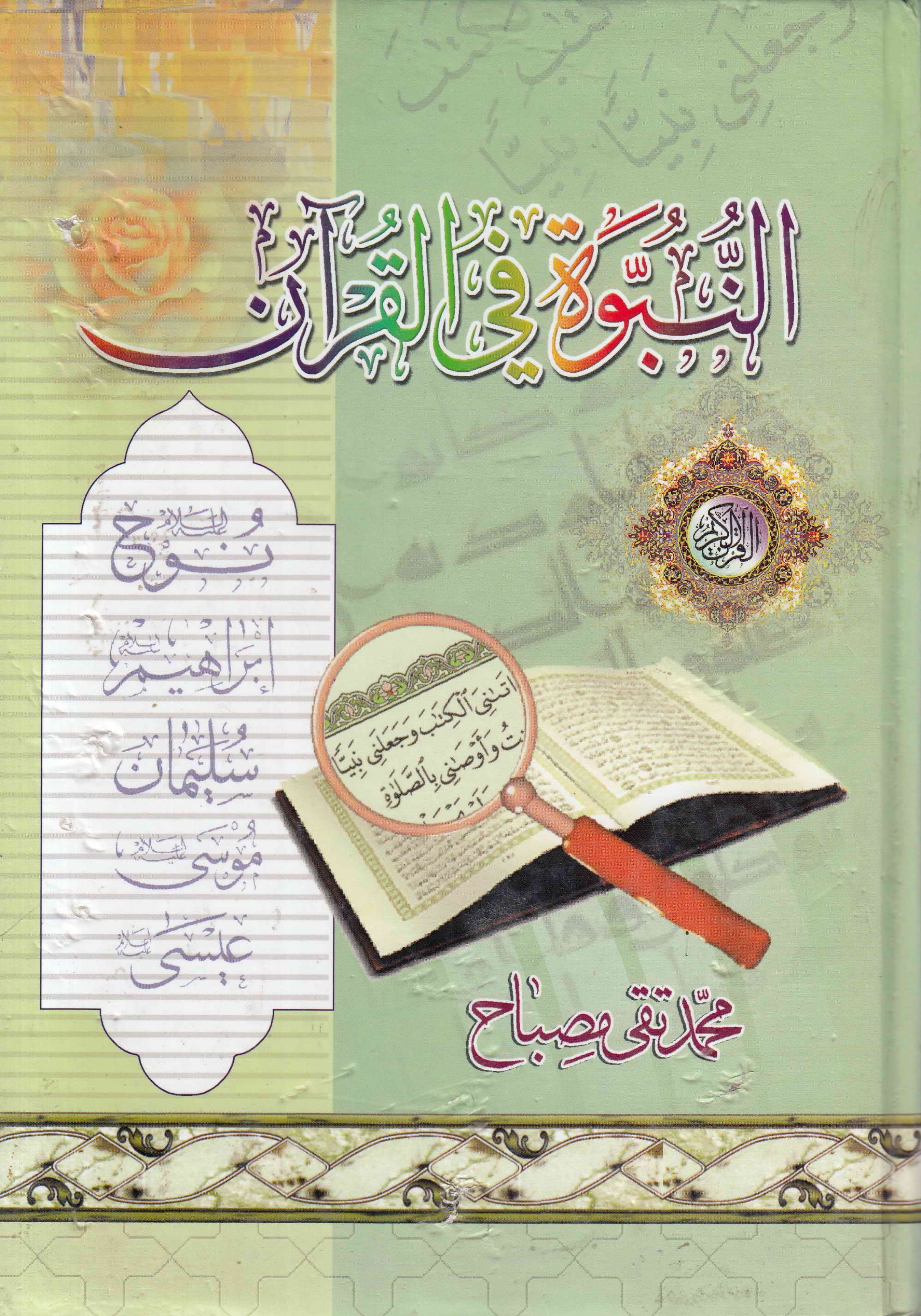

النبوة في القرآن
القرآن الكريم
أتاني الكتب وجعلني نبيا
وأوصني بالصلوة
نوح عليه السلام
إبراهيم عليه السلام
سليمان عليه السلام
موسى عليه السلام
عيسى عليه السلام
محمد تقي مصباح



تأليف

الأستاذ الشيخ محمد تقي المصباح



نقله الى العربية

محمد عبد المنعم الخاقاني



اسم الكتاب :	النبوة في القرآن ١/٢
المؤلف :	محمد تقى مصباح
الناشر :	فقاهة
الطبعة :	الأولى
تاريخ الطبع :	ربيع الاول ـ ١٤٢٦
الكمية :	١٥٠٠
المطبعة :	افق
شابك :	٢ـ ١٢ـ ٧٩١١ـ ٩٦٤

مركز التوزيع : قم ـ پاساژ قدس ـ الطابق الاوّل ـ رقم ٥٩ ـ تليفون: ٧٧٤٤٦٦٣ـ٢٥١ـ٩٨+

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ مؤسسة البعثة تشتمل على عدّة أقسام علميّة ومن أهمّها قسم الدّراسات الاسلامية الذّي يعني بتحقيق مصادر التراث الإسلامي وقد استطاع إلى الآن إخراج المزيد من الآثار إلى عالم الطبع والنشر، وكان من بينها تفسير البرهان للسيد هاشم البحراني في عشرة أجزاء وتفسير العياشي في ثلاثة أجزاء وتفسير آلاء الرحمٰن في مجلدين والافصاح للمفيد ودلائل الامامة للطبري ومجمع البحرين للطريحي في ثلاث مجلدات وغير ذلك من كتب التفسير ويليه في الأهميّة.

قسم ترجمة المتون الاسلامية وهو واحد من الأقسام التابعة إلى مؤسسة البعثة أيضاً، وقد بدأ العمل منذ انبثاق الثورة الاسلامية في ايران وقد وصل عدد اللغات التي عمل على ترجمتها إلى ثماني عشرة لغة مختلفة وكانت اللغة العربية تقف على رأس قائمة تلك اللغات ويتمتع القسم العربي بسعة اكثر، وله اصدارات ونتاجات متعددة، كان من جملتها تفسير الامثل الذي ترجم من الفارسية إلى العربية وطبع في بيروت في عشرين مجلداً من قبل مؤسسة البعثة.
وقد اعربت منشورات ذوي القربى بادارة السيد يعقوب الموسوي حفظه الله عن استعدادها لطبع ونشر آثار هذه المؤسسة وقد اجزنا له ذلك شريطة أن يكون كل اثر يطبعه، وفقاً لاتفاق خاص بين هذه المؤسسة ومنشورات ذوي القربى يلاحظ فيها (حفظ حقوق المؤسسة).

نسأل الله تعالى أن يتفضّل على جميع الاخوة الذين يبذلون الجهود على طريق توسيع وانتشار الثقافة الاسلامية بالأجر الجزيل والرحمة الواسعة، إنّه سميع الدعاء.

مؤسسة البعثة

ايران ـ قم

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة السبيل والدليل

من خلال البحوث السابقة انتهينا إلى هذه النتيجة وهي أن الله تعالى قد أبدع هذا العالم بمقتضى صفاته الذاتيّة وعلى أساس فيّاضيّته ورحمانيّته، وكما استفدنا من بعض الآيات فإنّ خلق العالم الماديّ كان مقدّمة لوجود الإنسان، ولهذا أصبح الإنسان أشرف المخلوقات ومورد التكريم الإلّهي، وخاصّة الإنسان التي يستطيع بفضلها أن ينال أرفع درجات المخلوقات هي الاختيار ومقدماته، أي لّما كان الإنسان مخلوقاً يستطيع بما زوّده الله من قدرة أن يختار ما يحبّ من بين السبل المختلفة المتوفّرة أمامه فإنّ التكليف الإلّهيّ يتعلّق به، فإذا عمل حسب ما يمليه عليه ذلك التكليف فإنه سيظفر بأرفع الكمالات وسينال أكثر ألوان السعادة واللذّة دواماً.

إذن أهمّ خصائص الإنسان هو كونه مختاراً وموجوداً منتخباً. وعلى أساس انتخابه الحرّ يقطع الطريق الذي يفضّله.

وانتهينا أيضاً إلى هذه النتيجة وهي أن الحياة الدنيا مقدّمة للحياة الأبديّة الأخروية.

أي ان خاصّة الإنسان في هذه المرحلة من الحياة هي اختياره وانتخابه لمسيرته بحيث يصوغ مصيره بيده، وتأتي بعدها مرحلة الحياة الأبديّة حيث يتمتّع بنتائج أعماله التي قام بها في هذا العالم.

ولكي يستطيع الإنسان أن ينتخب الطريق الصحيح في الحياة فإنّه يحتاج إلى

القدرة على الإرادة واتخاذ القرار وقد زوّده الله بها، ويحتاج إلى الرغبات المختلفة وقد غُرست في فطرته، ويحتاج إلى وسائل القيام بالفعل وقد وُفّرت له، وبالإضافة إلى ذلك فهـو محتاج إلى شرط مهمّ أساسيّ وهو معرفة الطريق الصحيح. وفي الواقع فإن الإنتخاب الحرّ لا يتمّ إلاّ إذا عرف الإنسان الطرق المختلفة واطّلع على نتائجها. فلو فرضنا وجود طريقين أمام الإنسان لكنّه لا يعلم إلى أين ينتهيان به ثمّ انتخب أحدهما صدفة فإنه انتخاب أعمى، وليس انتخاباً حرّاً واعياً.

وقد أشرنا في البحث السابق إلى أن الإنسان يستطيع أن يتمتّع بمعارف مختلفة، والشيء الذي يعمّ الناس جميعاً هو المعرفة الحسيّة والمعرفة العقليّة، فلننظر إلى هذين الأمرين اللذين زوّد الله الناس جميعاً بهما أهما كافيان ليضعا تحت تصرّف الإنسان المعارف الضرورية له في مجال انتخابه؟ أيّ أن الإنسان الذي يريد أن يتحرّك في طريق سعادته الأبديّة ويقترب من كماله النهائيّ لا بدّ له في كل شوط من معرفة أمور، فهل هذه المعارف الضروريّة لكل إنسان في كل مرحلة من مراحل حياته تتوفّر له عن طريق حسّه وعقله أم لا؟

نحن نستطيع أن نثبت بطريقين أن الحسّ والعقل لا يكفيان الإنسان لانتخاب مسيرة حياته الصحيحة، إلاّ أننا قبل شرح هذين الطريقين لا بدّ لنا من تقديم بعض التوضيح للإدراك الحسيّ والعقلّي ومدى كلّ واحد منهما.

الإدراك الحسيّ والعقلّي:

ـ فالإدراك الحسيّ يحصـل بوساطة الحواسّ الظاهريّة ومن خلال الإرتباط بالعالم الخارجيّ الماديّ. ويكون مدى هذا الإدراك محدوداً جدّاً، حيث لا يتعلّق الإدراك الحسيّ إلاّ بالأشياء التي ترتبط بنا وفي حدود ذلك الإرتباط وفي الزمان الذي يكون فيه هذا الإرتباط قائماً، كالمرئيات التي نشاهدها والمسموعات التي نسمعها وأمثالها. ولا شكّ أن الأشياء التي ندركها عن طريق الحس نافعة لحياتنا وضروريّة لها، ولكنّه إلى أيّ حد تكون هذه مؤثّرة في الوصول إلى الهدف النهائي؟ إنها تستطيع فقط أن

تنظّم ارتباطنا إلى حدّ ما بالحياة الماديّة، فتعلّمنا ماذا نأكل وماذا نلبس وماذا نقول ومع من نتكلم وكيف نتحدّث، وأشياء أُخرى من هذا القبيل، ونتيجةً لكون الإدراك الحسيّ ذا بُعد محدود فإنه لا ينبغي أن يُتوقع منه تزويدنا بمعرفة الطريق الصحيح في الحياة بجميع أبعاده.

ـ أمّا الإدراك العقلي، فإنّ ما يدركه العقل بمفرده وبقطع النظر عن التجربة الخارجيّة هو مجموعة من المفاهيم الكليّة الخاصّة أي البديهيّات الأوليّة (امّا أنه كيف تحصل هذه البديهيات وهل إدراكها مغروس في فطرة العقل أم يتمّ ذلك بصورة أُخرى؟ فنحن لسنا بصدد بحث ذلك هنا)، والشيء الذي نعلمه الآن هو أن العقل بأيّ صورة كان قد أدرك يتمتّع بإدراك مجموعة من المفاهيم الكليّة وكيفيّة العلاقات بينها وهذه بذاتها لا تنفع شيئاً كثيراً في مجال تعيين مسيرة الحياة.

فعندما علمنا أن اجتماع النقيضين مستحيل أو أنّ لكل معلول علّة أو أنّ الكل أكبر من جزئه، فإن مثل هذه البديهيات الأوليّة للعقل لا تنفع بذاتها في معرفة الطريق الصحيح للحياة. وغاية ما نستطيعه هو أن نثبت بفضل هذه البديهيات مجموعة من المسائل الفلسفيّة المحضة كوجود الله تعالى.

ـ ولدينا لون آخر من الإدراكات وهو الحاصل نتيجةً للتعاون بين الحس والعقل ونستطيع تسميتها بالإدراكات التجريبيّة. أيّ أن حسّنا يدرك شيئاً فيتناوله العقل بالتجريد والتعميم ويُجري عليه التحليلات ليظفر منه بإدراكات جديدة. وهذه أيضاً ضروريّة لحياتنا الدنيويّة وتنفعها كثيراً لكنّها مشروطة بالإدراكات الحسيّة. فمعرفة العلل الخاصّة لكل ظاهرة تتمّ عن طريق الحس وبمساعدة العقل. أيّ لا بدّ ان نستغلّ حسّنا ثمّ يستفيد العقل من المعطيات الحسّيّة ويُجري عليها بعض التحليلات لنصل بالتالي إلى نتائج علميّة. وبهذه الطريقة يتمّ الحصول على قوانين العلوم التجريبيّة.

كان هذا توضيحاً مختصراً حول الحسّ والعقل والنتائج المترتبة على التعاون بينهما.

والآن نتساءل:

هل هذه الإدراكات الحاصلة عن طريق الحسّ وحده أو عن طريق العقل وحده أو نتيجةً للتعاون بين الحس والعقل كافية لمعرفة الطريق الصحيح للحياة في جميع أبعاده وشؤونه وفي جميع الأزمنة والأمكنة أم لا؟

قلنا إنّ لدينا طريقين نستطيع أن نثبت بهما أن هذه الإدراكات غير كافية:

١ـ الطريق التجريبي: أيّ أننا نستطيع إثبات هذا الموضوع بالتجربة وعن طريق التعاون بين الحس والعقل بهذا البيان:

لقد خُلق الإنسان منذ آلاف السنين وعاش على وجه هذه الأرض، وليست لدينا معلومات دقيقة عن تلك الأزمنة الأولى البعيدة عنّا، إلّا أنه منذ ما يقرب من خمسة وعشرين قرناً توجد في أيدينا بعض الأفكار البشريّة المنظّمة والمدوّنة. فالعلماء بذلوا جهوداً واسعة واستغلّوا ما لديهم من حسّ وعقل ليتعرفوا على بعض المسائل ويبحثوها ويسجّلوها بصورة مسائل علميّة وقوانين حقوقيّة وأخلاقيّة وغيرها. ففي مجال معرفة الطبيعة أحرز الإنسان تقدّماً واسعاً يوماً بعد يوم، ونلاحظ في العصر الراهن أن كثيراً من مجهولات الطبيعة قد كشفته دراسات العلماء، ونستطيع أن نطّلع على ذلك بسهولة، وغالباً ما تكون هذه المسائل واضحة وقابلة للفهم والتجربة بحيث لا يختلف فيها الباحثون كثيراً.

أمّا في المسائل العمليّة، وفي أسلوب السلوك في الحياة، وفي موضوع القيم فإن الواقع خلاف ذلك. وكذا في الأمور الميتافيزيقية ومسائل ما وراء الطبيعة فلا تزال مغلّفة بألوان من الإبهام عند كثير من المجتمعات البشريّة، ولعلّه يمكن القول إن أغلب المحافل العلمّية اليوم لا تُعير أهميّة لهذه المسائل الميتافيزيقيّة، وهي عاجزة عن إيجاد حلول لها.

والشيء المهمّ في بحثنا هو تلك المعارف المعلّقة بسلوك الإنسان وقيمه: كيف يجب أن يتصرّف الإنسان في حياته؟ وبأيّ شكل لا بدّ ان ينظّم علاقاته بسائر الناس؟

وقد كانت هذه المسائل مطروحة أمام الناس دائمًا، وقد أُنفقت على حلّها جهود عقليّة هائلة، ولكنّه كما نعلم فإن أفكار العلماء والمفكرين لم تتّحد في حلّها خلال أيّ مرحلة تأريخية، وإنّما كانت الخلافات فيها تتّسع يوماً بعد يوم. والآن وبعد أن قطع الإنسان أشواطاً عديدة في مجال العلم والمعرفة فاننا نلاحظ العلماء يضعون الدساتير للحياة ثمّ يتأملون قليلاً فيظهر لهم نقصها ويحاولون إصلاحها أو تغييرها. فالقانون يوضع ثمّ لا يمرّ عليه وقت طويل حتى تضاف إليه الملحقات ثمّ يُنسخ بكامله بعد مرور فترة عليه.

ومن خلال هذه النـظرة التي القيناها على مسيرة الفكر الإنسانّي في مجال الأعمال والسلوك والقيم نصل إلى هذه النتيجة وهي أن الإنسان طيلة تاريخ علمه ومعرفته قد عجز عن حلّ هذه المسائل، وتعدّ هذه العلامة واضحة على قصور الحسّ والعقل عن إيجاد حلول لمثل هذ ه المواضيع.

وهذا هو الطريق التجريبي لإثبات نقص الحس والعقل. لكنّ هذا الأسلوب ليس متقناً ولا يبعث على الاطمئنان، ولأنه قد يحتمل شخص أن يتقدم الإنسان في هذه المجالات خلال القرون اللاحقة وبعد مرور آلاف السنين ليظفر بمعارف يقينيّة في هذا المضمار.

٢ـ وهذا الطريق هو أن نقوم بتقييم الحسّ والعقل وكيفيّة نشاطهما لنعرف هل يمكن أن نتوقّع حلّ مسائل الحياة بمساعدة الحس والعقل أم لا؟

كما أشـرنا من قبل فإن الحسّ لا يستطيع أن يبيّن لنا إلّا الظواهر الجزئيّة المحدودة بالظروف الزمانيّة والمكانيّة الخاصةّ وسائر المحدوديّات الأُخرى.

وبناءً على هذا فإن الحس ليس قادراً بمفرده على حلّ وتبيين المسائل القيميّة ولا سيّما علاقة سلوك الإنسان بنتائجه الأخرويّة.

والعقل وحده عاجز أيضاً عن تحقيق هذا الأمر، فالبديهيات الأوليّة للعقل محدودة جدّاً، ونحن نواجه في كل يوم بل في كل ساعة مئات العلاقات مع الناس ومع أنفسنا ومع الله، وبأفراد عائلتنا وبالبيئة المحيطة بنا، ولا بدّ أن يكون لنا حكم في كل

واحدة منها، بينما البديهيّات العقليّة محدودة جدّاً ولا تستطيع تقديم حلول لهذه المسائل والعلاقات.

وكـذا التعاون القائم بين الحسّ والعقل فهو وإن كان مؤدّياً إلى سعة نطاق معلومات الإنسان إلّا أنّه يمتدّ في حدود تجربة الإنسان، فنحن نستطيع أن نُخْضع الظواهر الماديّة للتجربة ونتعرّف على عللها الماديّة، وأمّا الأُمور اللا ماديّة فإن شِباك التجربة لا تصطادها حتى نستطيع أن نثبت بالتجربة علاقات المادة بغير المادة أيضاً.

وأخيراً ـ وهو الأهمّ واعتمادنا عليه ـ كيفيّة ارتباط هذا العالم بالعالم الأبديّ، فإنّه ليس لدينا أيّ سبيل لمعرفة ظواهر الآخرة، فلا حسّنا وحده ولا عقلنا بمفرده يستطيع أن يعرف الظواهر الأخرويّة، ولا التعاون بين الحس والعقل قادر على توضيح حقائق ذلك العالم. وما دمنا غير عالمين بنوعيّة تأثير حياتنا في الحياة الآخرة، وأيّ عمل يتمتّع بعلاقة إيجابيّة مع السعادة الأخروية وأيّ عمل يتميز بعلاقة سلبيّة معها فاننّا لا نستطيع أن نصوغ حياتنا في شكل صحيح ولا نستطيع أن نضع لها منهجاً ومخططاً سليماً. ولا يتمّ وضع هذه المناهج والقيم إلّا في ظلّ تعيين العلاقة بين الفعل ونتيجته، وما لم نعرف هذه العلاقة فاننّا لا نستطيع أن نقول: لا بدّ من فعل هذا الفعل، ولا ينبغيَ فعل ذلك الشيء. وقد أوضحنا في محلّه أنّ هذه الأوامر والنواهي تحصل من العلاقة بين الفعل ونتيجته، فما لم نعرف النتيجة ولم نجرّب تأثير هذا الفعل من ظهور تلك النتيجة فإننا لا نستطيع أن نصدر حكماً بالنسبة إليه. وبشكل عام لّما كان عالم الآخرة وعلاقاته بهذا العالم من جملة الأُمور الخارجة عن نطاق الحس والتجربة فإنّنا لا نستطيع أن نعرفها ونبيّنها بشكل كامل. وعلى أساس هذه الرؤية فنحن عاجزون عن تنظيم منهج صحيح لحياتنا في هذا العالم.

وبعد أن عرفنا أنّ الحسّ والعقل عاجزان عن تعيين منهج دقيق للحياة بحيث يؤمّنـان للإنسان سعادته وكماله الأخرويين الأبديين، نقوم بضمّ مقدّمة أُخرى لهذا الموضوع وهي:

إنّ الله ـ الذي خلق هذا الإنسان بهذه الإدراكات المحدودة وبهذه الخصائص

التي تعرّفنا عليها لحدّ الآن وقد خلقه من أجل أن ينال سعادته الأبديّة عن طريق أعماله الاختياريّة ـ لو لم يزوّده بالمعارف اللازمة لذلك فإنّ فعله تعالى يصبح لغواً وعبثاً.

وقد انتهينا في البحوث السابقة إلى هذه النتائج وهي ان الله تعالى خلق الإنسان في هذا العالم حتى يصوغ مصيره الأبديّ بسلوكه الاختياريّ. وتتمّ أعماله الاختياريّة في ظلّ المعرفة الصحيحة والدقيقة، ولا يمكن الحصول على مثل هذه المعرفة من خلال الإدراكات البشريّة العاديّة، فهو إذن قد خلق الإنسان ليختار وهو أيضاً لم يضع تحت تصرّف الناس بشكل عام مثل هذه المعارف، وهو عبث، تعالى الله عنه علّوا كبيراً.

ونذكر لهذا مثالاً بسيطاً وهو: إذا دعا إنسان شخصاً آخر إلى بيته وأصرّ عليه كثيراً حتى انتهى به الأمر إلى تهديده بالعقوبة إن لم يأته لكنّه لم يدلّه على طريق البيت ولم يزوده بعنوانه وانّما قال له لا بدّ أن تتعرّف عليه بنفسك. في أيّ مدينة يكون هذا البيت؟ لا يدري. بأيّ وسيلة لا بدّ من الذهاب إليه؟ ليس معيّناً. من الذي يسأله في هذا المجال؟ لا أحد يعرف. ومع ذلك لا بدّ أن يزور بيته. إنّ هذا حقّاً لتصرّف سفيه.

فإذا كان الإنسان قد خُلق من أجل هدف قطعاً ولا بدّ أن يصل إليه، ووصوله إليه يجب أن يكون عن معرفة وأن يقطع هذا الطريق باختياره فإنه يلزم تزويده بمعرفته. أيّها الإنسان لا بدّ أن تذهب إلى الجنّة فقد خلقتك لها لتظفر بألوان الرحمة اللا نهائيّة في الآخرة، وهذا هو الهدف من خلقك لكنني لا أدلّك على طريق ذلك. هل يتعرّف الإنسان عليه إذا استخدم تفكيره؟ كلا! هل يوجد أحد نسأله ليدلّنا عليه؟ كلا! ومع ذلك فهو لا بدّ له من الوصول إلى ذلك المقصد.

إنّ مثل هذا الفعل عبث حتماً.

فالحكمة الإلهية إذن تقتضي أن توضع تحت تصرّف الإنسان المعارف اللازمة لذلك. ولا بدّ أن يعيّن له طريقاً يستطيع الإنسان من خلاله أن يتعرّف على الهدف وعلى كيفيّة الوصول إليه، وليس هذا إلّا طريق الوحي والنبوّة.

وبهذا البيان تثبت ضرورة النبوّة وضرورة تعيين الطريق الخارج عن قدرة عامّة

الأفراد.

والآن هل يوضع هذا الطريق تحت تصرّف الجميع أم لا؟

لو كان موضوعاً تحت تصرّف الجميع لاطّلعنا عليه أنا وأنت، فكلّما احتجنا إلى شيء أرسلنا برقيّة إلى العالم الآخر نسأله عمّا يجب أن نفعل، لكنّنا نعلم إنّ مثل هذا الارتباط ليس متوفّراً لجميع الناس بسبب نقص استعدادهم، ولهذا فإن الحكمة الإلٓهيّة تقتضي أن يُخلق الناس بشكل بحيث يظهر من بينهم أشخاص يُفهِم الله الحقائقَ للناس عن طريقهم ويعيّن لهم منهج حياتهم.

ملاحظة:

إنّ هذين الطريقين اللذين استخدمناهما لإثبات قصور استعداد الإنسان يتفاوتان في النتيجة. فلو كان عندنا الطريق الأوّل فحسب لاستطعنا أن نستنتج منه فقط انّه لّما كان الله قد خلق جميع الناس للسعادة وقد مرت على الإنسان آلاف السنين اثبتت فيها التجربة أنه لا يستطيع معرفة الطريق الصحيح بملكاته العادية، فالحكمة الإلهيّة تقتضي أن يكون الله سبحانه قد جعل للإنسان طريقاً آخر يعرف به المقصود.

أمّا فيما بعد كيف يكون الأمر؟

لّما كان من المحتمل ان يتكامل العقل البشريّ فيتمكن تدريجياً من معرفة الطريق بنفسه فإننا لا نستطيع أن نثبت بهذا البرهان ضرورة النبوة للأزمنة اللاحقة بصورة يقينيّة. وأقصى ما يمكن إثباته عندئذ هو: أنّ العقل البشريّ لّما كان ناقصاً لحدّ الآن فمن المستحيل ان يترك الله كل تلك الملايين التي خلقها طيلة هذا التأريخ الممتدّ من دون دالّ على الطريق، لأنّ ذلك مخالف للحكمة الإلٓهية. امّا بعد هذا كيف تجري الأمور؟

إن هذا البرهان لا قدرة له على اثبات ذلك، لأننا لم نستطع على أساس

التجـربة السابقة ان نتنبأ بأنه في المستقبل أيضاً سوف لن تتكامل عقول الناس بحيث تستطيع أن تخطّط مستقلّة لحياتها، وكان من الممكن أن يحتمل شخص تكامل العقل البشري في المستقبل إلى الحدّ الذي يستطيع فيه التخطيط للحياة مستقلاً.

وهذا يشبه ما قاله البعض حول كون الإسلام ناسخاً للأديان السابقة وكون الرسول الأكرم (ص) خاتم الرسل، حيث زعموا ان الإنسان كان ناقص العقل إلى القرن السادس الميلادي وكان كالطفل بحاجة إلى من يمسك يده ويسير معه خطوة بعد خطوة، وكان الوحي والنبوة في الواقع كالمربّية لهذا الطفل تساعده إلى ان يصل إلى مرحلة الاستقلال في الحياة، ولكنّ العقل البشري قد تكامل في القرن السادس الميلاديّ فلا حاجـة له بعـدئذ إلى الوحي ولهذا فهو مطالب بالنهوض على قدميه وتشخيص طريق الحياة والسير فيه مستقلاً، ومن هنا فقد استغنى عن إرسال نبي جديد إليه، وذلك بسبب تكامل عقله.

أجـل لو أردنـا ان نستدّل بهذا الشكل لكان هناك احتمال لتكامل العقل البشريّ في المستقبل.

ومن الواضح ان هذا الاستنتاج ليس صحيحاً حتى على أساس هذه المقدّمة، لانّنـا نلاحظ مرور أربعة عشر قرناً بعد القرن السادس الميلادي ومع ذلك توجد نقائص كثيرة في العقل البشري وهناك أُمور عديدة لا تزال مهمة عند من لم تستنر حياته بنور الوحي والنبوّة، وهي ليست أقلّ مما كانت عليه في السابق، بل يمكن القـول أن هؤلاء المتـأخرين أصبحوا أضلّ وأشدّ انحرافاً من المتقدمين من حيث الاخلاق والقيم الرفيعة، وإذا لم يكونوا أكثر تأخّراً منهم فعلى الأقل لم يتقدّموا عليهم في هذا المجال، وعلى كل حال نستطيع القول: إن التاريخ يدل على أنه لحدّ الآن كان العقل البشري قاصراً باستمرار عن معرفة المنهج الدقيق الصحيح للحياة بشكل مستقل، فالحكمة الإلٓهية إذن تقتضي أن يتم إرشاده خلال جميع هذه المراحل بواسطة الـوحي والنبوّة، ولكنّه على أُسس هذا البرهان التجريبي لا يمكن القول بصورة قطعيّة أن العقل البشري سوف لن يتكامل في المستقبل، فلعلّ شخصاً يقول انني

احتمل أن يتكامل العقل البشري بعد مئة قرن بحيث يستطيع إدراك المسائل العمليّة بوضوح وأن يحلّ جميع الاختلافات. ونحن عاجزون عن التنبؤ بما سوف يحدث بعد مئة قرن من الآن. ومع هذا الاحتمال لا يمكن الحكم على المستقبل، وإن كنّا نحن لسنا بحاجة إلى هذا لأننا نعتقد بأنّ الوحي سوف لن ينزل في المستقبل وإنّ هذا الكتاب السماويّ الذي يمثّل آخر مراحل النبوّة يكفي البشريّة إلى يوم القيامة، إلّا أن هذا الاحتمال يشكّل ضرراً بالتالي لأنه يقول قد يأتي يوم يتكامل فيه العقل البشري ويتمكّن من معرفة الطريق الصحيح من دون استعانة بالتعبّد.

وأمّا بحسب الطريق الثاني الذي حلّلنا فيه مدى الإدراكات الإنسانيّة وقيّمناها فانّنا نستطيع القول بصورة يقينيّة أن الإنسان لم يستغن وسوف لن يستغني اطلاقاًعن الوحي، لأن معرفة المنهج الدقيق للحياة متوقّفة على معرفة علاقة أعمالنا الاختياريّة بنتائجها الأخروية، والحس والعقل عاجزان في أيّ وقت عن اكتشاف هذه العلاقات بشكل دقيق، لأنها خارجة عن نطاق التجربة الإنسانيّة. إذن على أساس هذا الطريق نستطيع أن نثبت بصورة يقينيّة للماضي والحاضر والمستقبل أنه لو لم يكن هناك وحي ولم توضع نتائجه تحت تصرف الإنسان لأصبح فعل الله عبثاً ولغواً.

إنّ هذا في الواقع هو أتقن البراهين التي يمكن اقامتها على ضرورة النبوّة وأمتنها، وقد ذكر الفلاسفة والمتكلمون المسلمون براهين أُخرى في كتبهم لكنّنا نرى أن ما ذكرناه أكثر اتقاناً منها، ولهذا نكتفي به، ولا نطيل البحث بذكر سائر البراهين.

وللقرآن الكريم بيانات حول إرسال الرسل وإنزال الكتب بحيث يمكن القول ان هذا البرهان مستنبط منها، ومن جملتها:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1].

أيّ أرسلنا للناس رسلاً يبشّرونهم بالنتائج الطيّبة لأعمالهم الصالحة وينذرونهم

(١) النّساء: ١٦٥.

بالنتائج الوخيمة لأعمالهم السيئة حتى لا تبقى للناس حجّة على الله بعد مجيء الرسل، أي لو لم يبعث الرسل لكان للناس أن يحتجّوا ويقولوا: لقد انتخبنا العمل السيّء لأننا لم نكن نعلم المقصود، وامّا بعد مجيء الرسل فقد تمّت الحجّة عليهم.

وما قلناه من أن ذلك البرهان يمكن استنباطه من هذه الآية الكريمة فهو بهذه الصورة:

لو كان الحسّ والعقل والتعاون بينهما كافياً لمعرفة الطريق الصحيح، فعندما يحتجّ الناس ويقولون نحن لم نعرف أن هذا الطريق رديء أو أن ذلك الفعل حسن فإن الله يستطيع أن يجيبهم قائلاً لقد زوّدتكم بالعقل ووسائل التشخيص. فإن قالوا لم يكن لدينا جميعاً فرصة للدراسة والتحقيق، أُجيبوا بأنّه كما في الأمور الطبيعيّة يتخصّص مجموعة من العلماء لدراستها والأخرون يستفيدون من نتائجها فكذا في هذا المجال كان عليكم أن تفعلوا مثله. بينما يقول الله تعالى ما لم نرسل الرسل فإن الحجّة غير تامّة على الناس. أن نفس هذا القول شاهد على أن القرآن الكريم لا يرى ملكات الإنسان العاديّة كافية لمعرفة الطريق الصحيح للحياة.

ومثل هذا المضمون يرد في آيات أُخرى أيضاً، من جملتها قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِأيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾[٢].

إنّه في الواقع احتجاج على الحكمة الإلهيّة: أنت الذي خلقتنا أكان هدفك من خلقنا هو أن نُبتلى بهذا الذل والخزي؟ إن هذا خلاف الحكمة فلا يمكن أن تريده لنا، وأنت تعلم أيضاً أن عقولنا ليست كافية لمعرفة الطريق الصحيح، إذن لماذا لم ترسل

(٢) طه: ١٣٣ و ١٣٤.

رسولاً حتى ينجينا من هذا المصير السيّء؟

والقرآن يعدّ هذا الاحتجاج صحيحاً ولهذا يؤكّد إننا أرسلنا الرسل حتى لا يقـولوا مثل هذا القول. أيّ لو لم نرسل لكان من حقّكم أن تعترضوا علينا بهذا الاعتراض. ومتى يكون لكم حقّ الاعتراض ؟ إذا كانت ملكات الإنسان العادية غير كافية لمعرفة الطريق الصحيح بدقّة.

إذن، فالقرآن الكريم يرى أن نقص العقل والحسّ في معرفة الطريق الصحيح للحياة يمكن رفعه بواسطة الوحي والنبوّة، فيتحقّق كل ما تقتضيه الحكمة الإلٓهية ويتمّ الغرض الإلٓهيّ من الخلق عندئذ.

النبوّة في القرآن

توجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدور حول النبوّة ومعلّقاتها، ولا نستطيع أن نتناولها جميعاً في هذه الدراسة، ولهذا فسوف نختار المباحث المهمّة المستنتجة من هذه الآيات ونوضّح بعض الآيات المتعلّقة بها.

فمسـألـة النبوّة في القرآن الكريم كانت مطروحة منذ بدء خلق الإنسان، والحياة الإنسانيّة في هذه الدنيا مبنيّة على أساس الهداية التشريعيّة، والتسليم بهذا الأمر واضح بالالتفات إلى الهدف من خلق الإنسان في هذا العالم. فإذا عرفنا ان السبب في إيجاد الإنسان في عالم المادّة هو أن تكون مسيرته اختياريّة حتى يصوغ مصيره بمحض إرادته فمن الطبيعيّ أن يتحتّم تبيين الطريق له من قبل الله، ولهذا الطريق جهتان إحداهما جهة الكمال والأُخرى جهة النقص، احداهما تنتهي إلى السعادة والأُخرى تنتهي إلى الشقاء، ثمّ هو يختار أيّاً منهما بإرادته الحرّة.

ولدينا آيات تؤكّد على أنّه لّما أُمر آدم (ع) بالهبوط إلى الأرض فقد اوحى إليه بوجوب التسليم للهداية عند ما تأتيه من قبل الله، فمن سلّم وعمل بها فسوف يصل إلى السعادة ومن رفضها فسوف يلقى الشقاء:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِأَيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

(١) البَقَرَة: ٣٨ و ٣٩.

فالخطاب موجّه لآدم وحوّاء (ع) وإبليس لعنه الله، وهذا يعني أنّه منذ بدء خلق آدم على وجه الأرض (أو نزوله فيها) كان هذا الموضوع واضحاً لديه وهو أنّ أمامه طريقين، ويتمّ التعيين من قِبل الله.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى:

﴿قَالَ ٱهبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾(٢).

والظاهر أنّ الخطاب موجّه لآدم وحوّاء (ع)، ولعلّه موجه لآدم (ع) وإبليس بقرينة قوله تعالى بعد ذلك﴿بَعضُكم لبعضٍ عَدوّ﴾.

ويقول سبحانه في آية أُخرى:

﴿يَا بَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ ٱتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِأَيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٣).

والخطاب هنا موجّه إلى جميع أفراد الإنسان، وقد ذكرنا هذه الآية حتّى لا يُتوهّم أنّ الخطاب خاص بآدم وحوّاء أو إبليس ولا علاقة له بسائر الناس. وفي الآيات السابقة يقول ﴿فمن تبع هداي﴾، وفي هذه الآية يبيّن مصداق اتباع الهداية فيقول ﴿فمن اتقى وأصلح﴾.

وبناءً على هذا يصبح موضوع الهداية التشريعيّة بواسطة الوحي والنبوّة جزءً من تقدير خلق الإنسان، ولا يمكن اسكانه في الأرض من دونها، لانّ ذلك خلاف الحكمة الإلهيّة.

وعلى هذا الأساس فقد أرسل الله رسولاً لكلّ أُمّة:

﴿وَإِن مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٤).

(٢) طه: ١٢٣.

(٣) الأعراف: ٣٥ و٣٦.

(٤) فاطر: ٢٤.

فهل معنى هذا أنّه لا بدّ من إرسال رسول إلى كل مدينة و إلى كل مجموعة من الناس تعيش في مكان معيّن أو إلى كل زمان بحيث تكون سلسلة الأنبياء متّصلة ببعضها من حيث الزمان أم يتمّ ذلك بصورة أخرى؟ ليس في القرآن تصريح في هذا المضمار، وإنّما فيه التعبير بـ «الأُمّة»، ولهذه الكلمة معنى واسع في القرآن الكريم. وقد تخيّل البعض أن «الأُمّة» تساوي المجتمع بمعناه العلمي، ولكنّ الحقيقة ليست بهذه الصورة، فالأُمّة في القرآن علاوة على اطلاقها على شخص معيّن فإنها تستعمل أحياناً بمعنى الزمان، وتستعمل في مجموعة من الناس، وهذا هو القدر المشترك بين موارد استعمالها. فالقرآن مثلاً يعدّ جميع الأنبياء أُمّة واحدة مع إنّهم ليس بينهم اشتراك في الزمان ولا في المكان ولا في العلاقات الاقتصاديّة والسياسيّة، فهو يشير إلى جميع الأنبياء (ع) بقوله:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[٥].

فالأُمّة في القرآن تعني فئة من الناس.

والآن ما هو المقصود من قوله نحن أرسلنا إلى كل أُمّة رسولاً؟

إنّنا لا نستطيع أن نبيّن معناه بدقّة، والشيء الذي نستطيع قوله هو أنّه إذا وجدت مجموعة من الناس منفصلة عن سائر أفراد الإنسان ولم تكن علاقاتها مع الناس الآخرين توفّر لها سبل انتقال المعلومات إليها فإن كلاًّ منها يحتاج إلى مرشد على حدة. وامّا إذا وجد ملايين الناس وهم يعيشون خلال مئات القرون لكن بينهم علاقات توفّر لهم سبل انتقال المعلومات فيما بينهم، وإذا نزل عليهم كتاب سماويّ فهو سيبقى عندهم فإن هؤلاء جميعاً يعتبرون أُمّة واحدة.

وصحيح أنّنا نجهل كثيراً من الأنبياء لكنّ هذا لا يلحق الضرر بأصل الموضوع.

(٥) الأنبياء: ٩٢.

وتقول بعض الروايات، إن عدد الأنبياء هو (١٢٤) ألف نبيّ (لا علاقة لنا هنا بصحّة سند هذه الروايات أو عدم صحّتها، فالأمر الذي لا شكّ فيه هو ان عدداً كبيراً من الأنبياء قد أُرسل إلى الناس)، ولم يذكر في القرآن إلّا أسماء نيّف وعشرين شخصاً منهم والبقيّة مجهولون بالنسبة إلينا حتى في أسمائهم، وكل ما نعلمه إجمالاً بفضل الآية الكريمة إن كل أُمّة أُرسل لها رسول.

ومن خلال البرهان الذي قدّمناه على ضرورة النبوّة ـ وهو مورد تأييد القرآن كما مرّ ـ يتبيّن لنا أيضاً الهدف من بعثة الأنبياء.

وقد ذكرنا أن الإنسان قد خُلق لكي يختار طريق السعادة أو الشقاء بكامل حرّيته فلا بدّ إذن من تزويده بمعرفة الطريقين، ولّما كان عقله وسائر مشاعره ليست كافية لتشخيص الصواب من الخطأ فهناك إذن طريق آخر لذلك أطلقنا عليه اسم الـوحي، وإلّا فإن الإنسـان لو لم يستطع تمييز الحقّ من الباطل فهو غير مسؤول بالتأكيد. والله قد خلق الإنسان مسؤولاً أي يختار لكي ينال نتائج أعماله، فلا بدّ إذن ان يكون الله سبحانه قد جعل له طريقاً للمعرفة.

فأول هدف للنبوّة ـ حسب هذا البرهان ـ هو أن يميّز الناس طريق الصواب من طريق الخطأ حتى يختار كل واحد منهم طريقه بوعي وعلم، وبعبارة أُخرى حتى تتمّ الحجّة عليهم.

وهناك آيات في القرآن تؤيّد هذا الموضوع بل تصرّح به، ومن جملتها:

﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيمًا﴾[٦].

ويشير ذيل الآية إلى أنّ إتمام الحجّة عليهم هو من لوازم الحكمة الإلٓهيّة وقد لاحظنا ذلك في البرهان المتقدّم.

(٦) النِّساء: ١٦٥.

ويشبه هذه الآية قوله عزّ وجلّ:

﴿أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ ٱلْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَابُ لَكُنَّآ أَهْدَى مِنْهُمْ...﴾(٧).

لقد أرسلنا إليكم رسولاً وأنزلنا عليه كتاباً حتىّ لا يبقى لكم عذر، فلو لم نرسل إليكم نبيّاً لقلتم أنَّ الله أرسل لليهود نبيّاً فعرفوا الحقّ وإن كان كثير منهم قد ضلّ السبيل، وكذا بالنسبة للنّصارى، وأمّا نحن فلو أرسل الله إلينا نبيّاً لاتبعّنا طريق الحق أكثر منهم، ولهذا يقول تعالى لقد أرسلنا إليكم رسولاً حتى نختبركم أيضاً.

والعجيب أنّه في مكان آخر من القرآن يبيّن وضعهم قبل بعثة نبيّ الإسلام (ص) فيقول:

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾(٨).

إذن يُعلم من هذا إنّ من أهداف بعثة الأنبياء هو إتمام الحجّة على الناس، ونلاحظ أنّ هذه الآيات التي نذكرها تارةً هي خطاب لقوم معيّنين وأُخرى تخاطب أهل الكتاب أو المشركين، إلاّ أنّ المضمون واحد.

وهذه الآية تخاطب أهل الكتاب:

﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَاجَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٩).

ومن الواضح أن أهل الكتاب يعتبرون أنفسهم تابعين لنبيّ لكنّهم كانوا يتوقّعون إرسال نبيّ آخر، ولعلّه اعتماداً على الوحي السابق للأنبياء حيث أنهم قد بُشّروا بإرسال خاتم الأنبياء (ص):

(٧) الأنعام: ١٥٦ و ١٥٧.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ... وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(١٠).

فقد جاءهم هذا البشير والنذير حتّى لا يكون لهم عذر ويقولوا نحن ضللنا لأن نبيّاً آخر لم يأتنا وكان الكتاب السماويّ السابق قد ناله التحريف ولم تكن في أيدينا تعاليم الأنبياء السابقين، أو نحن كنا بانتظار تنفيذ الوعد السابق بإرسال نبيّ جديد فلمّا لم يأتنا فقد اعترانا الريب، فلكي تقطع هذه الأعذار وتتمّ الحجّة عليهم أرسلنا لهم رسولاً.

ويقول سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾(١١).

فالله خلق الناس لكي ينتخبوا طريق الخير باختيارهم، وامّا إذا اختاروا طريق الشرّ بإرادتهم فلا بدّ أن ينالوا نتائج أعمالهم، أيّ لا مفرّ من معاقبة الذين يفضّلون طريق الانحراف. لكنّ الله لو أنزل هذا العذاب عليهم قبل أن يرسل لهم رسولاً لاستطاعوا الاحتجاج بإننا لم نكن نميّز طريق الخير من طريق الشرّ فلماذا لم ترسل إلينا نبيّاً يهدينا، أو كنّا غافلين فلماذا لم ترسله لكي ينقذنا من الغفلة؟

فإرسال الرسل إذن للحيلولة دون هذه الأعذار:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(١٢).

فهذه الآيات تدل على أنّ من أهداف النبوّة قطع الأعذار.

وهناك آيات تدلّ على أن النبيّ يُبعث لكي يتعلّم الناس منه ما لا يعلمون. أي بالنسبة للأشياء التي يعلم الناس أنها جيّدة لا بدّ أن يعملوا بها وإن لم يبعث رسول، ولهذا فإن المستضعفين الذين لم يوفّقوا لإدراك دعوة الأنبياء مسؤولون بمقدار ما

(١٠) الصّف: ٦.

(١١) طه: ١٣٤.

(١٢) الإسْرَاء: ١٥.

عندهم من عقل. فالهدف الأصيل للنبوّة هو أن يتعرّف الناس على ما لا يعرفون ولا يستطيعون بأنفسهم أن يتعرّفوا عليه:

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[١٣].

﴿عَلَّمَ ٱلإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١٤].

﴿وَأَنزَلَ ٱللهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[١٥]

ويستفاد من بعض الآيات ملاحظات أُخرى لعلّها ليست شاملة لجميع الأنبياء.

ومن المناسب أن نقدّم توضيحاً قبل الدخول في صلب الموضوع:

لو فرضنا أنّ الله سبحانه بعث نبيّاً فهدى الناس إلى طريق الحق ثمّ تطاول الـزمن على دعوة ذلك النبيّ فحُرّفت نتيجة لعوامل متعدّدة، فما كان سبيلاً لهداية الناس أصبح الآن وسيلة لتضليلهم. و نلاحظ لهذا نماذج كثيرة في زماننا، فالإنجيل المُنزل من قبل الله تعالى على عيسى(ع) ليس في أيدينا اليوم، وما هو موجود بهذا الاسم في المكتبات إنّما هو كتابة تلامذة عيسى(ع) ولهذا يُعرف بأسمائهم، ولعلّ نسبته إليهم أيضاً ليست يقينيّة، وطريقة كتابته تدلّ على أنه مثل كتاب تاريخ: جاء عيسى في اليوم الكذائي إلى أصحابه وقال كذا وسأله مريدوه وأجاب بكذا و... إنه تاريخ، ومن الواضح أنه ليس هو الكتاب الذي انزله الله على عيسى(ع). وفي هذا الكتاب الموجود نلاحظ أُموراً مخالفة للعقل ولجميع الشرائع السماويّة، فيه الشرك وفيه تحريف للأحكام المتّفق عليها بين الكتب السماويّة. فهذا الأمر واقع، وأدلّ دليل على إمكان الشيء وقوعه، إذن من الممكن أن يرسل الله رسولاً يهدي الناس إلى طريق الحقّ بكتاب مُنزل عليه ثمّ يمتدّ التحريف إلى كتابه فيما بعد. وفي مثل هذا الوضع يكون الناس ـ بحكم من لا نبيّ لهم ولا كتاب عندهم ـ بحاجة إلى إرسال نبيّ جديد حتى

(١٣) البَقَرة: ١٥١.

(١٤) العلق: ٥.

(١٥) النِّساء: ١١٣.

يصحّح على الأقل تلك الجهات المحرّفة، وأمّا أنّه هل لابدّ أن يأتي بشريعة جديدة أم لا؟ فتلك مسألة أُخرى. فإخراج الناس من الإنحراف وإيصال الحق إليهم هو عامل جديد. وتشير بعض الآيات إلى هذا الموضوع وتؤكّد أن علماء أهل الكتاب قد أخفوا عن الناس بعض الحقائق وأوجدوا اختلافات لتحقيق مصالحهم فبعث الله نبيّاً جديداً لكي يرفع الاختلافات ويبيّن الحقّ للناس:

﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُم تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَعْفُواْعَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾(١٦).

وهناك آيات تقول:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ ٱللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾(١٧).

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾(١٨).

ويؤكد القرآن أن الرسول جاءكم ليُظهر الحقائق التي أُخفيت:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَٱللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١٩).

وفي هذه الآية الكريمة مجال واسع للبحث وهناك جهات تبدو مبهمة لا بدّ من دراستها، ومن جملتها قوله: ﴿كان الناس أُمّة واحدة﴾، فهو تعالى يشير إلى مرحلة كان الناس فيها أُمّة واحدة، فما هو معنى هذه الأُمّة الواحدة؟ هل هي واحدة من جهة

(١٦) المائدة: ١٥.

(١٧) البَقَرَة: ٧٩.

العقيدة أم من ناحية المكان أم من جهة أن هؤلاء كانوا متشابهين في الحياة السهلة الساذجة؟ وإذا كانت الوحدة العقائديّة هي المقصودة فهل كانت وحدة على الحق أم على الباطل؟

إن المـرحوم العلّامة الطباطبائي رضوان الله عليه يستظهر من هذه الجملة (وبقرينة الجمل اللاحقة) أنّ المقصود منها هو أن الناس كانوا يعيشون بشكل بسيط ومتشابه وقد كان عدد الأفراد محدوداً جداً، فعندما أُسكن آدم الأرض كان له أولاد ويعيشـون حياة بسيطة ولم تكن عنـدهم مســائـل اجتماعية معقّدة حتى تؤدّي إلى الاختلافات، وإن كانت موجودة فهي اختلافات فرديّة.

هكـذا يستـظهر العلّامة من الآية، لكنّنا نحتمل أن يكون المقصود هو أن الناس كانوا على عقيدة واحدة وهي الحق، وكانوا موحّدين ومنفّذين لأوامر نبيّهم وهو آدم(ع)، وإذا كان بينهم عصاة فهؤلاء موجودون في كل أُمّة، ولكنّ هؤلاء لا يشكّلون مسلكاً وتياراً اجتماعياً، فالتيار العام هو التوحيد الذي جاء به آدم (ع) وهو الذي يطبـع المجتمع بطابعه، ثمّ ذهبت هذه المرحلة التأريخيّة لتحلّ محلّها مرحلة أُخرى وجـدت فيها المذاهب المتنوعة ومنها مذاهب الشرك، وعندما انتشرت الاختلافات الدينيّة وأصبح الحقّ مجهولاً في المجتمع مسّت الحاجة إلى إرسال أنبياء آخرين:

﴿فبعث الله النبيّين...﴾.

حتى يرفعوا تلك الاختلافات.

ولعلّه يمكننا أن نستفيد من قوله:

﴿وَأَنزل معهم ٱلكتاب بِالحق﴾.

إن آدم(ع) لم يكن مزوّداً بكتاب في الشريعة والقانون ثمّ جاءت مرحلة أُخرى دبّت فيها الخلافات بين الناس فأرسل الله الأنبياء وأنزل عليهم كتبه ليكون نصّ الوحي محفوظاً بين الناس (هناك فرق بين أن يُلهم آدم(ع) بما يريده الله فيبلّغ الناس بوجـوب الـذهاب إلى الحجّ مثلاً ـ لأنّ الحجّ قد كان منذ [illegible]

البلاغة[٢] ـ والناس يؤمنون بأنه نبيّ فينفّذون ما يريد منهم، وبين أن تشتدّ الخلافات فيحتاج الناس إلى نصّ مدوّن يُحفظ بين الناس ليكون وثيقة على ما يريده الله منهم فأنزل الله الكتاب). ولماذا انزل الله الكتاب؟

﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلاّ الذين أُوتوه بغياً بينهم﴾.

فالاختلافات امتدت إلى نفس الكتاب وهم متعمّدون في ذلك ظلمًا وعدواناً لتحقيق مصالحهم:

﴿فهدى الله الذين أمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم﴾.

وهدفنا من الاستشهاد بهذه الآية هو أنه عندما تظهر الاختلافات في دين الله فإن هذا يؤدّي إلى إرسال نبيّ آخر يرفع تلك الاختلافات التي حدثت نتيجة لمرور الزمان وعدم حضور النبيّ بينهم حتى لا يمتدّ الانحراف إلى الأجيال اللاحقة.

* * *

وتستفاد من القرآن الكريم مصالح وحكم أُخرى لإرسال الأنبياء، ويستطيع العقل أن يدرك مصالح أُخرى تؤيّدها بعض الروايات.

فممّا يستفاد من القرآن أن من مصالح وجود الأنبياء هو أنّهم علاوة على إيصالهم أصل الحكم إلى الناس فهم يطبّقونه على موارده ويحكمون بين الناس فيما يحدث بينهم من مشاجرات (هل جميع الأنبياء كانوا بهذا الشكل أم بعضهم؟ قد تكون هذه المصالح ليست عامّة وإنّما هي مختصّة ببعض الأنبياء)، فمن جملة الأنبياء الذين أرسلهم الله للقضاء بين الناس هو داوود (ع):

(٢٠) نهج البلاغة: ٢٩٢، ت. الدكتور صبحي الصالح.

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[٢١].

ويقول تعالى في مورد نبيّ الإسلام (ص):

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[٢٢].

فهذه الحكومة هي القضاء بين الناس في مجال مشاجراتهم.

ولبعض الأنبياء مقام أرفع من صرف القضاء، بمعنى أنهم كانوا الرؤساء الشرعيين لحكوماتهم ومجتمعاتهم ولا بدّ أن يطيعهم الناس:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللهِ﴾[٢٣].

وبناءً على هذا فكل ما يدّعي النبيّ أنّه من قِبل الله ولا بدّ من تنفيذه يجب على الناس أن يسلّموا به، فإذا قال إنّني مبعوث من قِبل الله للقضاء وجب على الناس التسليم له، وإذا قال إنّني مُرسل لأصبح حاكمًا في المجتمع وعليكم أن تطيعوني في شؤونكم السياسيّة والاجتماعيّة تحتّم عليهم أن يقبلوا، هذا إذا كانت نبوّته ثابتة عندهم.

وصحيح إن طاعة الناس للأنبياء بإذن الله لكنّها طاعة من دون قيد ولا شرط، ولو كان للناس حقّ التمييز بين بعض كلامه بأنّه من قبل الله والبعض الآخر بأنّه من عند نفسه، أو كانوا يحتملون صدور الكذب منه في بعض المواطن للزم من ذلك نقض الغرض فلا تتبقى في أنفسهم ثقة به، إذن عندما تثبت النبوّة فلا بدّ من طاعة صاحبها من دون قيد ولا شرط. إلّا إذا صرّح لهم بأن هذا هو من عند نفسي، وأما إذا ادّعى منصباً من قِبل الله فلا بدّ من التسليم له.

ونجد أحياناً أن بعض الأنبياء لم يكن لهم منصب الحكم وإنّما هم بأمر الله مؤيّدون بحكومة أُخرى، فقد جاء بنو إسرائيل لنبي لهم تسمّيه الروايات «صموئيل»

(٢١) ص: ٢٦.
(٢٢) النِّساء: ١٠٥.
(٢٣) النِّساء: ٦٤.

وطلبوا منه تعيين ملك لهم حتى يطيعوه ويقاتلوا تحت لوائه لينتزعوا حقوقهم من أعدائهم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢٤).

فمن الواضح إذن أن «صموئيل» لم يكن ملكاً، وإلّا لم يطلب منه تعيين ملك لهم، إذن لم يكن كل نبي متمتّعاً بمنصب الحكم من قِبل الله. لكنّ القدر المتيقن هو إنَّ نبيّ الإسلام(ص) كان له هذا المقام.ويشاركه في ذلك بعض الأنبياء السابقين مثل النبيّ سليمان فالقرآن يقول:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنَ بَعْدِي﴾(٢٥).

وهناك أدّلة وافرة على أن للنبي الأكرم (ص) مثل هذا المنصب:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَى بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾(٢٦).

وغيرها كثير، لكننا لسنا بصدد الاستدلال على هذا الموضوع.

فمن الأهداف الثانويّة للنبوّة هو أن تحقّق بعض النبوّات حكومة حقّة على وجه الأرض فينضوي الناس تحت لوائها لينالوا خير الدنيا وسعادة الآخرة.

ومن جملة الأنبياء الذين كانت لهم رسالة سياسيّة هو موسى(ع) حيث أُرسل إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَن لَا أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾(٢٧).

وخلال المفاوضات بينهما يطرح موسى موضوعاً سياسيّاً اجتماعيّاً وهو إخراج الناس من تحت سلطة حاكم ظالم ليعيشوا في مكان آخر بحرية واستقلال، وقد كان

(٢٤) البَقَرَة: ٢٤٦.

(٢٥) ص: ٣٥.

هذا من جملة أهداف رسالة موسى(ع)، وهو واضح من الآية الكريمة.

ويستفاد من القرآن الكريم إنّ من فوائد النبوّة بل من أهدافها أن الناس قد يستطيعون فهم أُمور بصورة مبهمة ونصف واعية لكنّ استكمال فهمها والارتفاع إلى مستوى الوعي التّام بها يحتاج إلى مذكِّر يخرجهم من حالة الغفلة التي كانوا عليها، والقرآن في كثير من الموارد يسمّي نفسه أو سائر الكتب السماويّة بأسماء من قبيل: الذِّكر، ذكرى، تذكرة، ومذكِّر، وهذه التسمية ناشئة من تلك الملاحظة. فعمليّة التذكّر تعني أنّ انساناً يعرف شيئاً ثمّ نسيه أو غفل عنه أي أصبحت معرفته له نصف واعية، ولا يؤثّر العلم في انتخاب الإنسان إلّا إذا التفت إليه. وقد تنحطّ بعض المجتمعات ـ نتيجة لعوامل مختلفة ـ لتعمّ الغفلة كل حياتها فيُصاغ الجوّ الاجتماعي بشكل لا تكون فيه هذه المسائل مطروحة للبحث، والطريق للناس إلى معرفتها، ها هنا يبرز دور الأنبياء في إخراج الناس من هذه الغفلة إلى حالة الوعي.

يقول الإمام أمير المؤمنين(ع):

(واصطفى سبحانه من ولده [اي ولد آدم(ع)] أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدّل أكثرُ خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقّه واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستادوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويُروهم آيات المقدرة...) [٢٨].

فكثير من الأشياء تدركها عقول الناس لكنّ العقول قد دفنت تحت أكوام من أحجار وأتربة أهواء النفوس، فمهمّة الأنبياء هي استثارة ما دفن في العقول.

وتستفاد من الآيات ملاحظة أُخرى وهي أن الإنسان أحياناً قد يكون عالماً بشيء وملتفتاً إليه أيضاً ومع ذلك لا يوجد في نفسه دافع للعمل بمقتضاه، ولا يتحرّك الإنسان من دون دافع، فيرسل الأنبياء بعنوان أنهم منذرون ومبشّرون حتى يحيوا

(٢٨) نهج البلاغة، الخطبة ١: ٤٣، ت. الدكتور صبحي الصالح.

الـدوافـع في أنفس الناس ويوقظوا الرغبات الدفينة فيها. فكل إنسان يخاف من العذاب وحتى احتمال وقوعه يؤثّر في سلوكه، لكنّا عملياً لا نجد العذاب الله مثل هذا التأثير في عامّة الناس، وامّا إذا جاء الأنبياء فإنهم يوضّحون ألوان العذاب الأخروي ويبيّنون ألوان النعم في الجنّة، وبالإنذار والتبشير يوصلون تلك الدوافع إلى الفعليّة كما أنهم نقلوا علومهم من حالة نصف الوعي إلى حالة الوعي الكامل. وقد ذكرنا سابقاً أنّ للروح الإنساني جهازين ينشطان فيه: أحدهما جهاز الإدراك والآخر جهاز الرغبة، فالأنبياء يحرّكون رغبات الإنسان بالإنذار والتبشير، ببيان ألوان العذاب الإلهيّ وألوان النعم الإلهيّة. وإذا دقّقنا في القرآن الكريم وجدنا عدداً كبيراً من آياته ـ سواء أكـانـت حاكية عن موقف نبيّ الإسـلام (ص) أم عن مواقف الأنبياء السابقين (ع) ـ مخصصّة للإنذار والتبشير، ويعتبر هذا الموضوع مهمّاً جدّاً من وجهة نظر القرآن بحيث يسمي النبي بالنذير:

﴿وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٢٩].

فهذه الصفة من أهمّ ميزات النبيّ وضرورتها محسوسة جدّاً، فلا بدّ من شخص ينبّه الناس على مخاطر المستقبل، وقد لاحظنا في الآيات تكرر وصف المبشّر والمنذر للأنبياء عامّة وللنبيّ الأكرم (ص) بصورة خاصّة.

ومن جملة الأهداف التي يذكرها القرآن للنبوّة هو أن الأنبياء يقومون بنضال عمليّ لا هوادة فيه ضدّ الظلم والفساد الرائج في زمانهم بالإضافة إلى دورهم في تبيين الحقائق للناس. فالقرآن يشير إلى أنّ كل قوم أرسل إليهم نبيّ كان ينتشر بينهم لون أو أكثر من ألوان الفساد، ففي قصّة شعيب:

﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[٣٠].

﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾[٣١].

(٢٩) فَاطِر: ٢٤.

(٣٠) الأعْرَاف: ٨٥.

(٣١) هود: ٨٤.

ومن الواضح أنّ هناك هدفاً عامّاً لجميع الأنبياء وهو يحتلّ الصدارة في قائمة دعوتهم وهو دعوة الناس إلى عبادة الله الواحد القهّار:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٣٢].

وإلى جانب هذا الهدف العام الذي يمثّل الانقياد التّام لأوامر الله ونواهيه توجد أهداف خاصّة حيث يحارب النبيّ تلك المفاسد الرائجة في زمانه أيضاً، فالنبيّ لوط مثلًا يحارب لوناً معيّناً من الفساد الشائع في مجتمعه وزمانه.

* * *

ونعود مرّة أُخرى لنلقي بعض الضوء على الموضوع الذي سبق ذكره وهو أن عقل الإنسان أحياناً قد يكون كافياً لإدراك بعض الأُمور لكنه يصاب بالغفلة نتيجة لعوامل معيّنة، فالعقل الإنسانّي مثلًا كافٍ لإثبات وجود الله وتوحيده، إلّا أنّ الظروف الاجتماعيّة تكون أحياناً بشكل يفقد فيها العقل توهّجه. أيّ يوجد جوّ اجتماعيّ خاص يؤدي بالإنسان إلى الغفلة عن هذه الحقيقة وإلى عدم استخدام عقله في: هل ان التوحيد حقّ أم لا؟

وهذا واقع لا يمكن إنكاره، فالبيئة الاجتماعيّة تُوجد أحياناً جوّاً منحرفاً يؤدّي بالإنسان إلى الغفلة عن كثير من الحقائق. فلو فرضنا أنّ طفلًا وُلِدَ في عائلة، ومنذ الأيام الأُولى التي تفتّحت فيها عيناه وجد أبويه يعبدان الأصنام، وعندما كبر ودخل البيئة المدرسيّة تلقّى تعليماً مشوباً بالشرك، ومن الواضح أنّ أيّ مدرسة فكرية فهي تقدّم بعض الشبهات بعنوان أنّها دليل على صدق ما تقول، فمن الطبيعيّ أن ينشأ هذا الطفل مشركاً، وحتّى أنه لا يخطر في ذهنه هذا السؤال: هل أن هذا الطريق حقّ أم باطل؟

(٣٢) النّحل: ٣٦.

وهكذا بالنسبة إلى المعاد، فقد ذكرنا أن عقل الإنسان كافٍ في الجملة لإثبات المعاد، ولكنّ الإنسان إذا عاش في بيئة لم يطرق سمعه فيها اسم الحياة الآخرة ولم يلفته أحد إلى هذا الأمر، وكل ما سمعه وقرأه فهو يتعلّق بالحياة الدنيا وملذّاتها أو يدور حول الأساليب العقلائية لتنظيم أُمور المعاش والقضايا الاجتماعيّة، فمن الطبيعيّ أن لا يخطر العالم الآخر في فكر هذا الفرد، وإذا خطر على ذهنه فهناك من يُمطره بوابل من الشبهات بحيث لا يصدّق بواقعيّته. إذن حتى في الموارد التي يستطيع فيها عقل الإنسان أن يقيم البرهان ويظفر بالحقيقة فإن الظروف الاجتماعيّة تسلب من عقله هذا النشاط. ونحن نعلم إن هاتين المسألتين: التوحيد والمعاد (الإيمان بالله واليوم الآخر) هما من أهمّ المسائل الدينيّة، وإذا لم يقم الإنسان بحلّهما فإنه لن يجد طريقه إلى السعادة الأخرويّة، ومع ذلك نلاحظ أن البيئة الاجتماعيّة تؤدّي بالإنسان إلى الغفلة عنهما أحياناً.

والله قد خلق الإنسان لينال السعادة الأخرويّة، تلك السعادة المترتّبة على إيمانه بالله واليوم الآخر، وهو تعالى يعلم أن الناس قد يتعرّضون لمثل هذه الظروف فيغفلون تماماً عن هذه المسائل، إذن حكمته تقتضي أن يرسل المصلحين والمعلّمين في مثل هذه الظروف ليذكّروا الناس بما تتعلّق به فطرتهم وتشهد به عقولهم وهم عنه الآن غافلون

ولعلّ قول أمير المؤمنين (ع): «ويذكّروهم منسيّ نعمته... ويثيروا لهم دفائن العقول» يشير إلى مثل هذا الأمر وهو أن عقول الناس أحياناً تدفن تحت حجاب الهوى والشبهات والجوّ الاجتماعيّ فلا يعود لها ذلك النشاط الطبيعيّ، ومع أنّ لهم عقولاً لكنّها لا تضيء.

ويستلزم هذا أن يقوم الله ـ على أساس حكمته المتعالية ـ بإرسال الرسل حتى يخرج الناس من حالة الغفلة هذه، فيطرحون لهم مسألة التوحيد ويعيدونهم إلى عقولهم ويحثّونهم على التفكير، ويدفعون عنهم الشبهات.

فمن هذا الطريق أيضاً استطعنا أن نقيم برهاناً على ضرورة النبوّة، وفرقه عن

البرهان الأول إن ذلك البرهان يعتمد على المواضيع التي لا بدّ أن يعرفها الإنسا ن وهو عاجز عن معرفتها، بينما هذا البرهان يعتمد على المواضيع التي يجب أن يلتفت إليها الإنسان وهو غافل عنها.

وإذا تأمّلنا في القرآن الكريم عندما يتناول الهدف من بعثة الأنبياء وجدناه يؤكّد على هذين الموضوعين، فنحن أرسلنا الرسل لكي يدعوا الناس إلى التوحيد، مع أنّ التوحيد يتمّ إثباته عن طريق العقل، والقرآن الكريم أيضاً يقيم البرهان العقلّي على التوحيد، ومع ذلك يقول إن الهدف من بعثة الأنبياء هو دعوة الناس إلى التوحيد، وفي آيات أُخرى يؤكّد القرآن على أن الهدف من بعثة الأنبياء هو إلفات الناس إلى المعاد، ونكتفي هنا بذكر بعضها:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّاغُوتَ﴾(٣٣).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَٱعْبُدُونِ﴾(٣٤).

ويتّضح من هذه الآيات إنّ هذا الموضوع من أهمّ المسائل التي يبلّغها الأنبياء، فالتوحيد يحتلّ صدر قائمة دعوتهم، ومع كون التوحيد فطرياً ويدلّ عليه العقل أيضاً، إلاّ أنّ النـاس تغفل عنه نتيجة لظروف اجتماعيّة خاصّة، وهذا يؤكّد ضرورة بعث الأنبياء حتّى يذكّروا الناس بما غفلوا عنه.

وفي مورد المعاد يقول عزَّ وجلّ:

﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلاقِ﴾(٣٥).

فإلفات الناس إلى ما ينتظرهم في العالم الأبديّ هو من أهمّ أهداف الأنبياء.

والشيء الآخـر هو أن هذا الـبرهان يدل على ضرورة وجود سبيل ـ غير العقل ـ تبيّن للناس طريق السعادة وطريق الشقاء فحسب، ولا يبيّن هذا البرهان

(٣٣) النّحل: ٣٦.
(٣٤) الأنبياء: ٢٥.
(٣٥) المؤمن: ١٥.

خصائص هذه السبيل، أيّ لا يتكفّل بتوضيح كيفيّة الوحي والنبوّة: هل أن كل فرد من الناس يُوحى إليه؟ وهل يجب ان يكون النبيّ فرداً من أفراد الإنسان؟ وهل لا بدّ من إرسال نبيّ إلى كل مجتمع؟ أم يتحتّم أن يكون نبيّ في كل مدينة؟

إن هذه الجزئيات لا يتكفّل ذلك البرهان ببيانها، وإن كان من الممكن الجواب على هذه الأسئِلة بالاستعانة بقرائن خارجيّة، إلاّ أنّها لا تُسْتَنْتَج من البرهان ذاته.

وقد تناول القرآن الكريم هذه المسائل فأكّد على ضرورة كون النبيّ بشر ويعلم ضمناً ان كل إنسان لا يستطيع أن يتّصل بالله مباشرة وأن يأخذ منه طريق الخير وطريق الشر. فمن جهة لا يستطيع أن يصبح كل إنسان نبيّاً ومن جهة أُخرى لا بدّ أن يبعث نبيّ من بين الناس، ويُذكر هذا الموضوع غالباً في مقام الاجابة على تعلّلات الناس، أيّ أن القرآن الكريم يقول عندما يُبعث الأنبياء يتعلّل الناس لعدم قبول دعوتهم فيقولون مثلًا: لو أراد الله هدايتنا لبعثَ إلينا ملكاً، أو يقولون: نحن لا نؤمن حتى نرى الله جهرة، أو لا بدّ أن يكلّمنا مباشرة، أو لو شاء الله هدايتنا لأرسل مع هذا النبيّ ملكاً بحيث نستطيع رؤيته، أو أشياء من من هذا القبيل، وبشكل عام فإنهم يقولون لأنبيائهم: إنكم بشر مثلنا ونحن لا نخضع لبشر مثلنا، فهنا يؤكّد القرآن على أن النبيّ لا بدّ أن يكون بشراً وقد جرت سنّة الله على ذلك، والملك لا يمكن أن يظهر لعامّة الناس، نعم يستطيع الناس جميعاً أن يروا الملك في وقت مّا، ولكنه في ذلك الوقت يكون قد انتهى كل شيء، وهو عندما تظهر علامات الموت ويكون الشخص في حالة انتقال للعالم الآخر. ويُفهم من خلال الآيات إن النبيّ يتمّ اختياره من بين الناس، ولا يستطيع جميع الناس أن يتّصلوا بالملك لأن ظروفهم الروحيّة لا تسمح لهم بذلك. ولو لم يكن بين الناس من هو مؤهّل للاتصال بالله لبطلت حكمة الله ولزم العبث في فعله ولما تحقق الهدف من الخلق، إذن لا بدّ أن يهيّء الله ظروف الخلق بحيث يكون بين الناس من يليق لتلقّي الوحي من الملك وإيصاله إلى الآخرين.

يقول تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا أنزلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ ٱلأَمْرُ ثُمَّ لَا

يُنظَرُونَ﴾[٣٦].

ومقصودهم من نزول الملك هو نزوله بحيث يرونه. ويقول القرآن في جوابهم لو انـزلنا ملكاً لانتهى الأمر، أي هناك علاقة تكوينيّة بين ملابسات حياة الناس ورؤية الملك، فالناس العاديّون إذا أرادوا رؤية الملك فإنهم لا يستطيعون ذلك في هذه الظروف العاديّة وإنّما هم يستطيعون رؤيته حال الموت، فلو أنزلنا ملكاً بحيث يراه هؤلاء فإنهم سيتجرّعون الموت وعندئذ يكون قد انقضى كل شيء، ويبطل الهدف من البعثة والهداية، لأن الهدف هو أن يعرف هؤلاء كيف يعملون باختيارهم.

ثمّ يقول إنّ هؤلاء يستطيعون أن يروا الملك في حالة واحدة وهي أن يُجسّم بصورة إنسانية وعندئذ يصبح مثل الناس فيعترضون عليه. وبعبارة أخرى: إن لهذا صورتـين: إحداهما إنّهم يريدون رؤية الملك في صورته الحقيقيّة، وهذا الأمر ليسوا مستعدّين له فعلاً. الثانية إنهم يريدون رؤيته بصورة إنسانيّة، وهذا لا يحقق لهم غرضهم.

ويقول سبحانه في الآية اللاحقة:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٣٧].

لو أردنا تجسيم ملك في هذا العالم من أجل أن يروه فلا بدّ أن يكون رجلاً يلبس من الثياب ما يلبسون، وهذا لا يحقّق غرضهم[٣٨].

(٣٦) الأنعام: ٨.

(٣٧) الأنعام: ٩.

(٣٨) يرى العلّامة المرحوم الطباطبائي رضوان الله عليه ان اللبس في هذه الآية بمعنى خلطه عليه حتّى لا يعرف حقيقته وليس هو بمعنى ارتداء الثياب، أيّ بها أنّهم يلبسون الحقّ بالباطل على أنفسهم وعلى غيرهم فنحن نلبس هذا الأمر عليهم. وليس هذا من قبيل الإضلال الأبتدائي المستحيل على الله، وإنّما هو من قبيل الإضلال الجزائي الوارد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ﴾، الصَّف: ٥. [تفسير الميزان ٧: ٢٠ و ٢٤].

ويؤيّد هذا أمور:

١ـ ورد في المعجم الوسيط لَبَس يلبِس لَبْسا: خلطهُ عليه حتى لا يعرف حقيقته.

لَبِس يلبَس لُبْسا: استتر به.

٢ـ ان اللبس بمعنى ارتداء الثياب يتعدّى بنفسه ولا يحتاج إلى حرف جرّ فلا بدّ أن يقول مثلاً «ولألبسناهم ما يلبسون».

وفي آية أُخرى يقول سبحانه:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ... قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا...﴾(٣٩).

فهؤلاء يجيبون الأنبياء بأنكم بشر مثلنا ونحن لا نخضع لأمثالنا.

ويقول عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالُواْ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذاً مُنظَرِينَ﴾(٤٠).

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَى إِلَّا أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللهُ بَشَراً رَّسُولاً * قُل لَوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾(٤١).

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾(٤٢).

ثمّ يجيب سبحانه:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾(٤٣).

إنّه ليس بدعاً أن يكون نبيّكم إنساناً فجميع الأنبياء الذين بعثهم الله قبله كانوا من الناس، وسنّة الله جارية على أن يبعث للناس رسولاً من أنفسهم، ثم يقول

٣ـ لو كان بمعنى ارتداء الثياب لقال: «ولألبسناه ما يلبسون» لأن الضمير حينئذ يعود على الملك أو الرجل. «المترجم»

(٣٩) إبراهيم: ١٠.

(٤٠) الحجر: ٦ ـ ٨.

(٤١) الإسْراء: ٩٤ و ٩٥.

(٤٢) الفُرْقان: ٧.

(٤٣) الفُرْقان: ٢٠.

إن هذا الأمر وسيلة للإمتحان والاختبار، فالإنسان قد خُلق في هذا العالم لكي يُمتحن، فإذا ثبت له أنّ شيئاً من الأشياء حق فإنه يُمتحن هل يستسلم لهذا الحقّ أم يرفضه بسبب أهواء نفسه، وقد أرسلنا الأنبياء وأتممنا الحجّة على الناس وقد ثبت لهم صدق ادّعائهم وعندئذ يتعرّضون للامتحان أيخضعون لبشر مثلهم أم تمنعهم من ذلك روح الاستكبار في أنفسهم، فكل واحد منّا إنسان لكن بعضنا وسيلة لامتحان الآخر، وحتّى الأنبياء أيضاً يُمتحنون عندما لا يخضع الناس لهم هل يكفّون عن دعوتهم أم يواصلون طريقهم ويصبرون على ما يواجههم فيه؟

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْئَلُواْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(٤٤).

لقد كنّا دائماً نرسل الأنبياء من بين الناس فإن كنتم لا تعلمون فاسألوا اليهود والنّصارى ومن له علم في هذا المضمار فسوف يخبرونكم بهذه الحقيقة.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ﴾(٤٥).

هكذا كان الأنبياء السابقون، وهذا النبيّ مثلهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً * يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾(٤٦).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَقَالُواْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللهُ وَٱللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(٤٧).

فالقرآن ينقل هذا الموقف في مواجهة الأنبياء عن جميع الأمم حيث اعرضوا عن الحق، والله غني عنهم، وحكمة الله تقتضي أن يرسل إليهم أنبياء ليتمّ الحجّة

(٤٤) الأنبياء: ٧.

(٤٥) الأنبياء: ٨.

(٤٦) الفُرْقان: ٢١ و٢٢.

(٤٧) التّغابُن: ٦.

عليهم، ولم تتعلّق إرادة الله بأن يكون الناس تابعين للأنبياء بأيّ ثمن كان وإنّما تقتضي حكمته أن يمهّد الطريق أمامهم حتى يختاروا بإرادتهم طريق الحق أو طريق الباطل.

كانت هذه الآيات التي ذكرناها تتحدّث بشكل عام، وهناك آيات تتحدّث عن كل نبيّ على حدة، فبالنسبة لنوح(ع):

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا ٱلْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾(٤٨).

ثمّ يتحدّث الله تعالى بعد ذلك عن نبيّ لا يذكر اسمه:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾(٤٩).

وفي مورد صالح(ع) يقول سبحانه:

﴿قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا...﴾(٥٠).

وواجه شعيب (ع) مثل هذا:

﴿قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾(٥١).

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُواْ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُواْ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا

(٤٨) المؤمنون: ٢٤ و ٢٥.

(٤٩) المؤمنون: ٣٣ و ٣٤.

(٥٠) الشُعَراء: ١٥٣ و ١٥٤.

(٥١) الشُعَراء: ١٨٥ و ١٨٦.

وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾[٥٢].

وجاء في الروايات انّ هؤلاء كانوا في زمان عيسى(ع) وتابعين لشريعته وفي مدينة تسمى «انطاكية» كانت جزءً من الشام واليوم تابعة لتركية.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا ٱللهَ قَالُواْ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[٥٣].

وفي آية أُخرى لا ينقل الله سبحانه عن أحد وإنّما هو يقول لماذا لا يؤمنون:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ ٱلأَمْرُ وَإِلى ٱللهِ تُرْجَعُ ٱلامُورُ﴾[٥٤].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلْ ٱنْتَظَرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾[٥٥].

ومن الواضح إن آيات الله على قسمين: التكوينيّة والتشريعيّة وقد جاءتهم الآيات التشريعيّة والتكوينيّة (المعجزات) بكثرة لكنهم رفضوها وطلبوا تغييراً للعالم، فأجابهم الله بانّه عندما تأتيكم آياتنا وينزل عليكم العذاب مثلاً فلا فائدة في إيمانكم، وهو مثل إيمان فرعون عندما اشرف على الغرق:

﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا ٱلَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُواْ إِسْرَاءِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَالأَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٥٦].

فعندما تأتي آيات الله التي هي من سنخ العذاب يسلب الاختيار من الناس ولا ينفعهم الإيمان ولا العمل.

(٥٢) يس: ١٣ ـ ١٥.

(٥٣) فُصِّلَت: ١٤.

(٥٤) البَقَرَة: ٢١٠.

(٥٥) الأنعام: ١٥٨.

(٥٦) يونس: ٩٠ و ٩١.

﴿هَـلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[٥٧].

ما هو المقصود من تأويل القرآن هنا؟ ومتى يأتي؟

لقد ذكرنا في بحث تأويل القرآن إن المقصود منه في هذه الآية وأمثالها هو تحقق المصاديق الحقيقيّة لما ذكر في القرآن، فتأويل القرآن إذن هو ظهور حقيقة القرآن، فإذا أخبر القرآن عن وجود المعاد والعالم الآخر والملائكة فهؤلاء لا يكتفون بتنزيله وإنما يريدون الوصول إلى واقعه للإيمان به لكنه يوم يأتي تأويله وتظهر حقيقة القرآن وتتحقّق مصاديق هذه الأمور فإنه لا مجال لإيمان إنسان لأنّها لحظة الموت حيث يرون الحقائق التي كانت غائبة عن أعينهم، وعندئذ يقول الذين نسوا اليوم الآخر ولم يؤمنوا به: **﴿قد جاءت رسل ربّنا بالحقّ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُردّ فنعمل غير الذي كنّا نعمل﴾**، ومن الواضح من هذا إنّها لحظات مفارقة الحياة الدنيا، لكنّ هذا الندم لا ينفع **﴿قد خسروا أنفسهم﴾**، حيث خسروا حياتهم وتضرّروا كثيراً لأن الفرصة الوحيدة قد ضاعت من أيديهم **﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾**، فقد جعلوا لله شركاء وراحوا يفترون بأن هؤلاء يشفعون لنا عند الله وينقذوننا من عذابه، ولكنهم عندما يواجهون الحقائق هناك لا يجدون أحداً منهم ويواجهون الله وملائكته فحسب فليس هناك صنم ولا غيره ولا مفرّ من العذاب.

﴿هَـلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٥٨].

فالعقل لا يكفي لهداية الإنسان وتقتضي حكمة الله أن يهديه عن طريق

(٥٧) الأعراف: ٥٣.
(٥٨) النحل: ٣٣.

الوحي فيختار الله من بين الناس أشخاصاً يهدي بهم الآخرين، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

المعجزة

بعد أن أثبتنا ان الحكمة الإلهيّة تقتضي تزويد الإنسان بطريق آخر للهداية غير الحسّ والعقل وهو طريق الوحي والنبوّة. وبعد ان اثبتنا ان أفراد الناس ليسوا جميعاً مؤهّلين لاستقبال الوحي فلا بدّ إذن من الوحي لبعضهم ورجوع الآخرين إلى هذا البعض الممتاز.

ونواجه عندئذ هذا السؤال:

كيف نعرف ان هذا الإنسان قد أُوحي إليه؟

وذلك لأنّ الوحي ليس أمراً محسوساً للآخرين حتى يروه ويعرفوا إن هذا الشخص الذي قد أُوحي إليه أصبح نبيّاً، فلا بدّ إذن من طريق نعرف به امتياز ذلك الشخص ولياقته لتلقّي الوحي وإن الله قد أوحى إليه.

والجواب هو انه لا بدّ أن تكون لديه علامة على ذلك من قِبل الله، أيّ لا بدّ أن يكون فيه أثر يدل على ارتباطه بالله سبحانه، وعندئذ نستخدم هذه القاعدة «حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد» فنقول كما أن لهذه العلاقة بالله فانه يمكن أن تكون له علاقة مثلها به تعالى. وهذا يعني ضرورة تمتّع النبي بالمعجزة وهي أنه يستطيع فعل شيء يعجز الآخرون عن القيام به، وهذه هي منحة الله له، فيفهم الآخرون أن له ارتباطاً بالله فيتقبلون كلامه.

وهنا لابدّ من معرفة أُمور:

١ـ ما هي المعجزة؟

٢ـ هل من الممكن عقلاً تحقّق المعجزة؟

٣ـ هل الإيمان بالمعجزة ينسجم مع الاعتراف بقانون العليّة؟

٤ـ أيكون تزويد النبيّ بالمعجزة ضرورياً أم هو فضل من الله؟

٥ـ هل كل الأنبياء كانت لهم معاجز أم إنها مختصّة ببعضهم؟

٦ـ ثمّ الأنبياء الذين كانت لهم معاجز هل كانوا يقدّمونها ابتداءً أم بعد مطالبة الناس إيّاهم؟

٧ـ أتكون المعجزة دليلاً قاطعاً على النبوة أم هي دليل اقناعي لعامّة الناس ؟

٨ـ هل أن كل اقتراح للإعجاز كان يطرحه الناس على الأنبياء تتمّ الموافقة عليه أم أن الأنبياء كانوا يردّون بعض تلك الاقتراحات؟ ولماذا؟

٩ـ أمن الممكن أن تكون لغير الأنبياء معاجز أيضاً؟

١٠ـ ما هي الآيات القرآنية التي تتحدّث عن معاجز الأنبياء وغير الأنبياء (فيما إذاكانت لغيرهم معاجز)؟

حقيقة المعجزة:

لا ريب إنّ المعجزة أمر على خلاف المجاري العاديّة للطبيعة سواء أكانت فعلاً خارجيّاً أم إخباراً، فقد يخبر أحد بشيء، والاخبار فعل، فإذا كان الاخبار على خلاف المجرى العاديّ للطبيعة فهو معجزة.

ولكنّ هذا غير كافٍ لتعريف المعجزة تعريفاً حقيقياً لأنّ هناك أشخاصاً غير الأنبياء كانوا ولا زالوا يقومون بأفعال على خلاف مجاري الطبيعة كالسحرة والمرتاضين مع أنها ليست معاجز. إذن لا بدّ من إضافة قيد إلى التعريف فنقول إن هذا الفعل الذي هو على خلاف مجرى الطبيعة لا بدّ أن يكون من قِبل الله.

وكيف نميّز الفعل الذي هو من قبل الله من غيره؟

هناك علامات للفعل غير العاديّ الذي هو من قِبل الله من جملتها:

١ـ لا يتغلّب عليه عامل أقوى منه: ففي الطبيعة علل ومعلولات كثيرة، وتؤثّر العلّة في وجود ظاهرة ماديّة، لكنّ هناك علّة أقوى منها تستطيع أن تتغلّب عليها وتحول دون تأثيرها، فمثلاً توجد نار تستطيع أن تحرق ورقة لكنّنا نسكب عليها ماء فنطفئها، فهنا علّة ماديّة تغلّبت على علة مادية أُخرى، وتمتلىء الطبيعة بآلاف الأسباب والمسبّبات التي تتغلّب عليها أسباب أُخرى. وأمّا المعجزة فهي لا تُغلب من قِبل أيّ عامل آخر، فلا العامل الطبيعي يبطلها ويزيل أثرها ولا العامل غير الماديّ يحول دون تأثيرهـــا،فلو فرضنا أنّ مرتاضاً يتمتّع بقدرة نفسيّة عظيمة نتيجة لترويضه نفسه وهو يستــطيع القيام بأفعال على خلاف مجرى الطبيعة فيضع يده أمام القطار المتحرّك ويوقفه، إلاّ أنّ مثل هذه القدرة لا يمكنها أن تصمد أمام المعجزة، فلا القوى الماديّة ولا القوى غير الماديّة قادرة على إبطال تأثير المعجزة. وهذا علامة على أن هذا الفعل هو من قِبل الله. بينما هذا المرتاض الذي أوقف القطار بإشارة من يده يمكن أن يظهر له مرتاض آخر أقوى منه نفساً وإرادة يبطل فعله بأن يشير إلى القطار فيتحرّك من جديد، أو يحول بينه وبين إيقافه من البداية، فالنفس الأقوى هي الغالبة والنفس الأضعف منها تصبح مغلوبة. لكنّ هذا لا يجري في الاعجاز فأيّة نفس مهما كانت قوية لا يمكنها أن تحول دون تأثير المعجزة، وذلك لان النفوس الإنسانيّة من غير الأنبياء لا يمكنها مقاومة القدر ة والإرادة الإلٓهيّة، وإذا فرضنا نبيّاً آخر يريد الوقوف أمام هذه المعجزة فإن ذلك يصبح نقضاً للغرض الإلٓهي لأن الله أراد أن يجري المعجزة على يد نبيّ من أجل حكمة ولو لم تكن وراءها حكمة لم يفعل، فإذا جاء نبيّ آخر وأراد الحيلولة دون وقوعها فإن ذلك يصبح نقضاً للغرض الإلٓهيّ، والحاصل أن المعجزة لا تُغلب من قبل أيّ عامل آخر.

٢ـ المعجـزة ليست قابلة للتعليم والتعلّم: فليس هناك درس فيها يحضره الإنسان ويتعلّم منه، وليست هي رياضـة يروّض الإنسانُ نفسه عليها فيصبح صاحب معجزة، وإنّما هي موهبة آلهيّة يمنحها الله من يشاء، وامّا سائر التصرّفات غير العاديّة والتي تصدر من بعض النفوس فإنها قابلة للتعليم والتعلّم، فالآخرون إذا سلكوا نفس

الطريق فإنهم سيصلون إلى ذات النتيجة. وهذه علامه على أنّ هذا الفعل ليس إلهيًّا.

وأمّا إذا كان الفعل غير قابل للتعليم والتعلّم ولا تغلبه العوامل الأُخرى فهذه علامة كونه فعلًا إلهيّاً.

وبناءً على هذا إذا ظهر إنسان معروف يعلم الناسُ تفاصيلَ حياته ويعرفون أنه لم يحضر درساً ولم ير أُستاذاً ومع ذلك قام بمعجزة فإنهم يقطعون بان هذا الفعل معتمد على القدرة الإلٰهيّة.

وامّا إذا لم يعرفه الناس ولنفرض أنه بُعث بين أُناس غرباء عليه (عادة يُبعث الأنبياء من بين أممهم بحيث يعرفه الناس ويعرفون تفاصيل حياته ولكنه إذا فرضنا أن الناس لا يعرفونه) ولا يدرون أنه نال قسطاً من التعليم أم لا، فإنهم يستطيعون مقارنته بمعارضيه، بمعنى أنهم ينظرون إلى العوامل الأُخرى هل تتغلّب عليه أم لا؟ مثل معجزة موسى(ع) حيث عارضه سحرة فرعون ووجدوا أنفسهم قد غُلبوا. فهذه علامة أنه ليس فعـلًا بشرياً وهو خارج عن طاقة الإنسان.

إذن فالمعجـزة فعل على خلاف المجرى العاديّ للطبيعة يتمّ بالاعتماد على القدرة الإلٰهيّة، وطريق معرفتها أمران:

١ـ إنها لا تحصل عن طريق التعليم والتعلّم.

٢ـ لا يتغلّب عليها أيّ عامل آخر.

السؤال (١):ـ هل من اللازم في المعجزة أن تكون مقرونة بادّعاء النبوّة أم لا؟ وبعبارة أُخرى أتكون المعجزة مختصّة بالأنبياء أم هي تشمل غير الأنبياء أيضاً؟

الجواب:ـ إنّنا سندرس هذا الموضوع بالتفصيل فيما بعد إن شاء الله، ونقول هنا على الإجمال إن للمعجزة اصطلاحين، أحدهما يختصّ بالأنبياء كالوحي، فللوحي أيضاً اصطلاحات احدها وحي النبوّة، وله اصطلاح آخر أعمّ من هذا:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ...﴾[1].

(١) القَصَصْ: ٧.

حتّى نصل إلى معناه العام الذي يطلقه القرآن على النحل أيضاً:
﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً﴾[٢].

وكذا المعجزة فإن لها اصطلاحين، ومن الواضح أن كلمة المعجزة ليست من الاصطلاحات القرآنية وإنّما هي شائعة بين المتكلمين وعلماء أُصول العقائد، وللمعجزة اصطلاحان عندهم:

١ـ اصطلاح خاص بالأنبياء وهي التي تقترن بها دعوى النبوّة.

٢ـ اصطلاح عام وهو الذي يشمل معاجز الأئمة المعصومين (ع) فهم لم يكونوا أنبياء ومع ذلك كانت لهم معاجز، فنسبة المعجزة إلى شخص لا تعني أنه يدّعي النبوّة. إذن عندما نطرح المعجزة بعنوان كونها دليلاً على النبوة فمن الواضح اننا نقصد منها اصطلاحها الخاص وهو ما يقدّمه النبيّ بعنوان أنّه دليل على نبوّته، وامّا عندما ننسبها إلى غير الأنبياء فنحن نقصد منها معناها العام وهو كل فعل خارق للعادة يتمّ بالاعتماد على القدرة الإلٓهية سواء أُجري على يد النبيّ أم على يد غيره.

السؤال (٢):ـ هل من الممكن عقلاً تحقّق المعجزة أم لا؟

لقد تخيّل البعض إنّ فعل المعجزة ليس ممكناً عقلاً لأنه نقض قانون العليّة. فالأمر دائر بين قبول قانون العليّة ورفض المعجزة أو قبول المعجزة ورفض قانون العليّة. ويزعم هؤلاء أن قبول قانون العليّة يعني أن كل معلول يصدر من علّته الخاصّة، فالحرارة تصدر من النار ولا معنى لأن نقول أنها تصدر من الثلج. وكذا نموّ النبات، ظهور الحياة، إحياء الإنسان، إماتته، مرضه، شفاؤه.. كلّها معلولات ولها علل خاصّة بها. فلو سلّمنا بشيء يتمّ خلاف مسير هذه العليّة والمعلوليّة فمعنى ذلك أنّنا قد رفضنا قانون العليّة.

وقد قُدّمت أجوبة ساذجة في هذا المجال لا تستحق الوقوف عليها طويلاً، فقال البعض مثلاً إن هذه الأمور استثناءات، فنحن نسلّم بقانون العليّة لكنّ بعض الأمور تستثنى منه.

(٢) النّحل: ٦٨.

وهـذا جواب أمّي، لأن قانون العليّة من القوانين العقليّة والقانون العقلّي يرفض أيّ استثناء.

من المستحسن أن نمرّ مرور الكرام على مثل هذه الأجوبة.

ويمكن صياغة الإشكال بهذه الصـورة: إن المعجزة كما عرفتموها تسـتلزم نقض قانون العليّة، ونقضه يساوي عدم صحّته أساساً، فلو ظفرنا بمورد استثناء واحد فهو يثبت أن ضرورة العليّة والمعلوليّة غير متحقّقة، ومن المعلوم انّ لقانون العليّة فروعاً ومن جملتها الضرورة، ومعناها هو أنّ من المستحيل تحقّـق المعلول من دون علّته التامّة. بينما أنتم تقولون لقد تحوّلت النار في أحد الموارد إلى برد وسلام من دون ماء ولا زرع، وهذا يعني نقضاً واضحاً لقانون العليّة، لأن من الممكن عندئذ أن تنمو وردة في وسط النار. واستثناء هذا المورد من قانون العليّة يعني إلغاء الضرورة، أي أنّ الوردة توجد من دون وجود علّتها التامّة. ومن جهة أُخرى فإن العلّة التامّة للاحتراق موجودة لكنّ الاحتراق لم يتمّ، وهذا يعني انفكاك المعلول عن علّته التامّة، إذن كل ذلك يعني إنكار قانون العليّة.

ولعلّ هذا الأمر هو الذي قاد الأشاعرة إلى إنكار قانون العليّة زاعمين أن ما نتصوّره علّة ليس هو إلّا عادة الله. فنحن نلاحظ أن المصباح يُضاء فتستضيء الغرفة بعد ذلك، ولا علاقة في الواقع بين هذين، وإنّما هي عادة الله قد جرت على أن يوجد الضوء في الغرفة بعد إضاءة المصباح. ولا يواجه هؤلاء أيّ مشكلة في مورد المعجزات وخوارق العادة فهم ينكرون العليّة، غاية الأمر أنّه قد تحقّق شيء خلاف عادة الله، وخلاف العادة ليس أمراً مستحيلاً، فالله قد تعوّد على أن يتصرّف بهذا الشكل، لكنه يتصرّف في بعض الموارد بخلاف هذه العادة. فالأشاعرة في الواقع قد اختاروا أحد الشقّين في مقابل هذا الإشكال وهو أنّهم قد أنكروا العليّة الحقيقيّة.

ووقف ضدّ هؤلاء قوم سلّموا بصّحة قانون العليّة وانكروا المعجزات في الواقع وإن كانـوا في الظاهر قد أوّلوها، وقد أشرنا إلى نماذج من تأويلاتهم للمعجزات في القرآن، فمثلاً بالنسبة لعبور بني إسرائيل من البحر قد أوّلوه باستخدامهم ظاهرة المدّ

والجزر، وأشياء أخرى من هذا القبيل. وهذه الفئة قد اختارت الشقّ الآخر وهو عدم تحقّق المعجـزة، وإن النصـوص التي تتضمّن معـاجـز ليست إلّا تعبـيرات مجازيّة واستعارات، وليست المعاجز في الواقع إلّا خرافات لا حقيقة لها.

فما هو الجواب الصحيح إذن:

إنه التسليم بصحّة قانون العليّة في محلّه ونفي الاستثناء عنه، والتسليم أيضاً بتحقّق المعجزة أيضاً في مجالها، وإنها لا تتنافى أطلاقاً مع قانون العليّة.

وقد أوضحنا هذا الموضوع في بحث التوحيد وقلنا ان القرآن الكريم يعترف بقانون العليّة من دون إنكار لفاعليّة الله التي هي في طول فاعليّة الأشياء، ومن دون أن يلزم من ذلك إنكار للمعجزات وخوارق العادة. ونشير هنا إجمالاً فنقول أنّ لقانون العليّة معنيين:

١ـ إن أيّ معلوم لا يمكن أن يتحقّق من دون علّة، فكل معلول يستلزم وجود علّة، وعلى أقل تقدير فهو يحتاج إلى علّة فاعليّة، وامّا إذا كان المعلول ماديّاً فهو يحتاج أيضاً إلى علّة ماديّة وعلّة صوريّة. وإذا كان الفاعل مختاراً فهو يستلزم علّة غائيّة أيضاً. واعتمدنا هنا على العلّة الفاعليّة، فكل معلول يحتاج إلى علّة فاعليّة. ولا يمكن نقض هذا القانون بأي شكل من الأشكال، وهو أمر بديهي لأن الشيء إذا لم يكن وجوده من ذاته فلا بدّ أن يكون قد اكتسبه من غيره، فذلك الغير هو الذي يفيض الوجود عليه. ولكنّ هذا لا يعني صدور المعلولات دائمًا من عللها العاديّة المعروفة، بل مقتضى هذا القانون هو الاعتراف بوجود علّة لكلّ معلول، وعن هذا الطريق نحن ننتقل من وجود العالم إلى إثبات وجود الله. لماذا كان الله علّة؟ لأنّ العالم معلول ووجوده فقير ولا يمكن أن يتحقّق من دون علّة.

٢ـ المعنى الثـاني هو إنّنـا نعرف لكلّ معلول علةّ خاصّة ثمّ نقول إن هذا المعلول لا بدّ أن يصدر من هذه العلّة دون غيرها.

ومن المسلّم إن هناك سنخيّة بشكل عام بين العلّة والمعلول، إلّا أن العقل وحده ـ من دون الاستعانة بالتجربة ـ لا يستطيع أبداً اكتشاف العلّة المنحصرة لظاهرة من

الظواهر، ومعرفة العلل الخاصّة للأشياء تتمّ عادة بوساطة التجربة (ونقول عادة، لأن من الممكن أن يتعرّف عليها البعض عن طريق الغيب)، والتجربة لا يمكنها اطلاقاً أن تثبت العلّة المنحصرة لظاهرة ما في جميع الأمكنة والأزمنة، لأن التجربة البشريّة محدودة، وحتى إذا قمنا بتجربة مئات الموارد وآلافها فإن العقل يجيز مع ذلك ان يصدر هذا المعلول من طريق آخر غير الذي نعرفه. فلعلّ الإنسان كان يعتقد لآلاف السنين ان الحرارة لا تصدر إلّا من النار، ولعلّه كان يعتقد قبل ذلك انها لا مصدر لها سوى الشمس حتى إذا اكتشف النار عرف أن لها مصدراً آخر، وقد اكتشف اليوم طرقاً أُخرى لإنتاج الحرارة، فكثير من التفاعلات الكيمياويّة تؤدي إلى إنتاج الحرارة، وهي تحدث أيضاً نيتجة لاحتكاك جسمين، ولعلّ هناك طرقاً أُخرى لإنتاجها ونحن لا نعرفها. فالتجربة إذن لا يمكنها أن تثبت العلّة المنحصرة في جميع الأزمنة والأمكنة. الآن إذا كان هناك أُناس يتخيّلون إنّ هذا الشيء الخاص علّة منحصرة لظاهرة معيّنة فإذا ظهرت علّة جديدة لها فهل معنى ذلك إن قانون العليّة قد نُقض ؟ إن قانون العليّة البديهيّ لا يبيّن علّة خاصّة وإنّما كان يقول إن المعلول لا يمكن أن يصدر من دون علّة، أمّا ما هي تلك العلّة؟ فالقانون لا يعيّنها.

إذن عندما تتحقّق علّة جديدة نعرف أن العلّة السابقة لم تكن علّة منحصرة لتلك الظاهرة وإنّما لها بديل، فيمكن اللجوء إلى تلك العلّة الأُخرى أيضاً للحصول على ذلك المعلول.

فإذا سلّمنا بأنّ تماثل المريض للشفاء لا يحصل دائمًا عن طريق تناول الدواء فليس ذلك نقضاً لقانون العليّة.

وكذا تحوّل جسم ميّت إلى حيّ فإنّ له طريقاً طبيعيّاً وهو أن يهضم الغذاء في بدن موجود حيّ فيتحوّل إلى نطفة أو إلى بيضة فيصبح موجوداً حيّاً، وامّا إذا وجدنا سبيلاً أُخرى يتحوّل فيها الموجود الميّت إلى موجود حيّ فإن ذلك لا يُعدّ نقضاً لقانون العليّة، وإنّما هي علّة جديدة قد اكتشفت، وهنا تكون العلّة الجديدة بأحد شكلين: فتارة تكون العلّة ماديّة خالصة كما نلاحظ ذلك يوميّاً في المكتشفات العلميّة من علل

لانتقال الصور والألوان والأمواج توضع تحت تصرّف الجميع، فهذه علل ماديّة وطبيعيّة لم تكن معروفة من قبل ثمّ عُرفت الآن، وتارة أُخرى تكون العلّة مما يمكن الظفر بها إلّا أنّها ليست ماديّة، مثل القوى النفسيّة التي يستطيع المرتاضون تحصيلها، فهذه أيضاً علل لوجود ظواهر في العالم الماديّ إلّا أنّ نفس العلّة ليست شيئاً ماديّاً بل هي أمر روحيّ ونفسانّي، وهي أيضاً يمكن أن يتعرّف عليها الإنسان وعلى طريق الظفر بها فيحصل على العلّة ويستخدمها، ولا يعّد هذا أيضاً نقضاً لقانون العليّة، وإنّما هو اكتشاف لعلّة جديدة غاية الأمر إنّها علّة غير ماديّة لظاهرة ماديّة. والأرفع من الجميع تلك العلّة المعنويّة التي لا يمكن تحصيلها وهي ليست قابلة للتعليم والتعلّم وإنما هي موهبة إلّهيّة كما لو قلنا أن نبيّاً قد أحيا ميتاً، أيّ أن الله منحه قدرة يستخدمها بإذنه فتصبح هذه القدرة علّة لإحياء ذلك الميت أو مؤثّرة في شفاء المريض، فهذه القوّة النفسانيّة منحة الله ولا يمكن تعليمها للآخرين لكنّها علّة.

فالجواب هو: إن قبول المعجزة لا يعني نقض قانون العليّة، وإنما هو تسليم بوجود علّة للظواهر العاديّة لكنّها علّة ليست من سنخ العلل العاديّة بل هي علّة معنويّة تتحقّق في نفس النبيّ بإذن الله تعالى وهي غير قابلة للتعليم والتعلّم.

* * *

بعد أن عرّفنا المعجزة أوضحنا عدم منافاتها مع قانون العليّة، فتحقّق الإعجاز ليس متسحيلاً ذاتيّاً ولا من قبيل المستحيلات الوقوعيّة، وفهي ليست مستحيلاً ذاتياً لان فرضها لا يسلتزم التناقض، وهي ليست مستحيلاً وقوعيّاً لان من الممكن تحقّق علتها. ففرض المعجزة لا يعني فرض المعلول من دون علّة فهو إذن ليس مستحيلاً، وإنّما هو يعني فرض معلول يتحقق عن طريق علّة غير معروفة، وهو أمر ليس مستحيلاً من الناحية العقليّة.

السؤال (٣):ـ أيكون تزويد النبيّ بالمعجزة ضروريّاً أم هو فضل من الله؟ فلو

أنّ الله أرسل جميع الأنبياء من دون معجزة لما لزم أيّ إشكال، ولم يلزم من ذلك نقض للغرض الإلّهيّ ولا خلاف للحكمة الإلّهيّة.

تصوّر البعض ان الأنبياء لّما كانت دعوتهم إلى الحقّ وكل ما يأتون به موافق للعقل والفطرة السليمة فمجرد ارسالهم إلى الناس وبيانهم للحقائق يكفي لانصياعهم لهم، ولا حاجة لأن يعرف الناس أنّ هؤلاء قد تلقّوا ما عندهم من طريق الغيب، فلو فرضنا أن شخصاً لم يعتقد بنبوّة نبيّ لكنه يسلّم بصحّة محتوى دعوته فإذا أمر النبيّ بالتزام الصدق فإنه يذعن بأنه فعل حسن ويلتزم به، وإذا نهى عن قتل الأولاد فانه يستحسن هذا النهي ويخضع له، وإذا دعا إلى عبادة الله فإنه يصدّقه لأن الله تعالى قد خلقنا ومن حقّه أن نشكره، وإذا أمر بالصيام التزم به لأنه أمر نافع حافظ للصحّة، وإجمالاً فإن أوامر الأنبياء موافقة للعقل والفطرة والناس يقبلونها، وهذا كافٍ ولا داعي لأن يجري على يده أمر خارق للعادة. وحتّى إذا كانت المعجزة أمراً ممكناً فإنها لا ضرورة لها، ولا يتوقّف عليها إتمام الحجّة على الناس، وإذا زوّد الله بها نبيّاً فهو من قبيل التفضّل فحسب.

فهل هذا التصوّر صحيح؟

الجواب: كلّا، لانّنا نسلّم بأن محتوى دعوة الأنبياء موافق للعقل والفطرة السليمة، لكّن هذا لا يعني أنّ جميع الناس يدركون هذه الموافقة في جميع الموارد. ولو كان كل الناس يدركون هذه الموافقة في جميع الموارد لانتفت الحاجة إلى وجود النبيّ أساساً ولأصبح العقل كافياً للناس. وإنّما العقل يدرك الأمور العامّة المسمّاة بالمستقلّات العقليّة وبعض الأمور المقاربة لها والتي يستطيع العقل فهمها بأدلة بسيطة:

﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾[٣].

(٣) الشُعَرَاء: ١٨١ و ١٨٢.

فهذا أمر يفهم الجميع حسنه، ولكنّ هذا ليس هو كلّ مضمون دعوة الأنبياء، وقد عرفنا ان ضرورة بعثة الأنبياء ناشئة من وجود أمور لا يفهمها العقل ويأتي الأنبياء ليفهموهم إيّاها، وليس معنى كونها فطريّة إن جميع الناس يدركون هذه الموافقة بأنفسهم، فهل تفهم عقول الناس ـ من دون حاجة إلى التعبّد ـ لماذا كانت صلاة الصبح ركعتين؟ وإذا أضفنا إليها ركعة أصبحت باطلة ولماذا كانت صلاة المغرب على العكس منها؟ كلّا.

إذن ليس كل محتوى دعوة الأنبياء قابلاً للتفسير العقلانّي، بل لا بدّ أن يقبل الناس جانباً منه بالتعبّد، فكيف نقول عندئذ إن الناس يكفيهم ان يعملوا بعقولهم؟!

أجل قد نقول إنّ قبول دعوة الأنبياء موافق للاحتياط، فالعقل يرى أن العمل بأوامر الأنبياء لا يخسر به شيئاً، وذلك لأنهم يعدون بثواب وعقاب، ومن المحتمل تحقّقهما.

إلّا أن موضوع الاحتياط شيء، وموضوع فهم العقل لوجوبها شيء آخر بحيث تتمّ عليه الحجّة وإذا لم يفعل فهو معاقب يقيناً، إن هذا أمر لا يفهمه العقل.

وبناءً على هذا يصبح إتمام الحجّة على جميع الناس بواسطة الأنبياء محتاجاً إلى علامة إلّهيّة وإذا لم تكن لم تتمّ الحجّة عليهم جميعاً، فهناك موارد لا يستطيع العقل البشري أن يدرك صحّتها فلا تتمّ الحجّة عليه، فلكي تتمّ الحجّة لا بدّ أن يعرف الناس إن هذا نبيّ، وتتوقف هذه المعرفة على علامة يفهم بها هؤلاء إنها من قبل الله ولا توجد بالطرق العاديّة، فإذا رأوها عنده فهموا أن الوحي قد نزل عليه ولو أنهم لا يفهمون حقيقة الوحي، ويشبه هذا الأمر ما يجري عليه العقلاء في حياتهم، فلو جاءك شخص وادّعى إنه مرسل من قبل فلان ويطالبك بأمانة له مودعة عندك، فإنك تطالبه بالعلامة والدليل على كونه مرسلاً منه، من قبيل كتابة يده أو أمارة أخرى، أو يخبرك بشيء لا يعلمه غيره فتفهم أنه قد عرفه منه»أو يطلعك على شيء من مختصّاته فحينئذ تقبل رسالته. وإمّا إذا لم تكن عنده علامة فانك لست ملزماً بقبول ما يدّعيه ولو سلّمت الأمانة إليه لعرّضت نفسك للعقوبة. وكذا عندما يرسل الله نبيّاً للناس فإنه يطالبهم

بأموالهم وأرواحهم وأفكارهم وعقائدهم ويريد منهم أن يصبحوا عبيداً لله، فوجودهم من الله وكل ما لديهم هو ملك لله وأمانة في أيديهم، وقد جاء شخص يطالب بهذه الأمانة، يطلب من هذا نفسه ومن ذاك ماله، وكل واحد من هذه أمانة لله في أيدينا، وما لم نعرف أنه مرسل من قبل الله فإنه لا يحقّ لنا اعطاؤها فلا بدّ له من إظهار علامة، وهو أمر فطريّ لا نقاش فيه. ولهذا ينقل القرآن الكريم عن كثير من الأمم أنها عندما كان يرسل إليها الأنبياء فانهم يطالبونهم بالعلامات.

﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِأَيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾[٤].

والحاصل إن وجود المعجزة ضروريّ للأنبياء، وبدونها لا تتمّ الحجّة على الناس.

السؤال (٤):ـ هل كل الأنبياء كانت لهم معاجز أم أنّها مختصّة ببعضهم؟ وإذا كانت مختصّة ببعضهم فكيف كانت تقبل دعوة الآخرين وتتمّ الحجّة بها على الناس ؟

تارة نبحث هذا الموضوع من ناحية عقليّة، وأُخرى ندرسه حسب آيات القرآن الكريم، وقد كنّا لحدّ الآن نبحث الموضوع بحثاً عقليّاً، ونقول إجمالاً نحن لم نصادف آية صريحة تؤكّد على أن كل نبيّ مزوّد بالمعجزة، وعندئذ نواجه هذا السؤال: لو كان بعض الأنبياء غير مزوّد بالمعجزة، فكيف تتمّ الحجّة على قومه؟

من الواضح إن عدم الظفر بآية من هذا القبيل لا يدل على ان بعض الأنبياء قد بُعث من دون معجزة لأن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، والقرآن الكريم لم يبيّن كثيراً من الموارد، فهناك ما يقرب من ١٢٤ ألف نبيّ لكنّ القرآن لم يذكر إلّا أسماء ٢٤ أو ٢٥ شخصاً منهم، وليس من اللازم أن يستعرض كل تفاصيل حياة وخصائص هؤلاء الذين ذكرهم بالاسم، فهو قد أكّد على أن بعض هؤلاء قد كانت لهم معاجز، وأمّا البقيّة فقد سكت عنهم، وعدم بيان القرآن ذلك لا يصلح دليلاً على أنهم لم تكن لهم معاجز.

فهل نستطيع من الناحية العقليّة أن نثبت ضرورة المعجزة لكل نبيّ أم من الممكن أن لا يُزوّد بها بعض الأنبياء ولا مانع عقليّاً من ذلك؟

(٤) الشُعَرَاء: ١٥٤.

نعود إلى البرهان الذي أقمناه على ضرورة النبوّة وهو إذا لم تكن معجزة فإن الحجّة لا تتمّ على الناس، فهل هذا يعمّ جميع الموارد أم لا؟

لو فرضنا انّ نبيّاً أُرسل مزوّداً بالمعجزة فأثبت نبوّته ثمّ أخبر عن نبيّ يرسل من بعده، فهل هذا النبيّ يحتاج إلى معجزة؟ يبدو أنه ليس بحاجة إليها، فكما أن نبوّة الأوّل قد ثبتت فإنـه تثبت معها صحّة كل ما يدّعيه من قبل الله، فالنبوّة ملازمة لضرورة قبول كل ما يدعي أنه قد أُوحي إليه به، والمعجزة علامة على كون دعواه ـ بانه مرسل من قبل الله ـ حقّاً (وأمّا إذا ذكر أشياء وقال إنها من عند نفسه فهل هي باطلة أم لا؟ هذه مسألة أُخرى)، والقدر المتيقّن هو أنّ ما يدّعي يكونه من قِبل الله يجب قبوله لأن الحجّة تامّة، وإلّا فإن من غير الممكن تقديم معجزة لكل كلمة يقولها، وإنّما تقدّم المعجزة لاثبات أنه مرسل من قِبل الله فيعرفون ارتباطه بالله، وعندئذ إذا أخبر بحكم نازل من عند الله فإنه يجب على الناس قبوله. ومن جملة أقواله أنّ فلانـاً يرسل نبيّاً من بعدي فلا بدّ من تصديقه في ذلك. أيوجد برهان عقلّي يثبت ضرورة تمتّع النبيّ اللاحق بالمعجزة؟ الظاهر أنه لا وجود له. ولو كانت عندنا آية أو رواية صحيحة تصرّح بأن لكلّ نبيّ معجزة لوضعناها على الرأس والعين لكنّنا لم نجدها.

إذن قد تتمّ الحجّة في بعض الموارد على الناس من دون إعجاز، إلّا انّ هذه الحجّة معتمدة ـ في الواقع ـ على الإعجاز السابق لأن نبوّة الأوّل قد ثبتت بالمعجزة. وقـد كان بعض الأنبياء متعاصرين فإذا كانت لأحدهم معجزة واعترف للآخرين بالنبوّة فإن ذلك يكفي في اثبات نبوّتهم. مثلاً كان لوط وإبراهيم نبيّين متعاصرين فعندما تثبت نبوّة إبراهيم ويخبر بنبوّة لوط فإن الحجّة تتمّ على الناس ولا داعي لمعجزة على حدة يُزوّد بها لوط. أو هذه الآية التي تقول:

﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزّزنا بثالث﴾[٥]

حيث ورد في بعض الـروايات أن هؤلاء مبعوثون من قِبل عيسى، فمعجزة عيسى (ع) تكفيهم جميعاً، ولا نريد أن نقول انّ هذا دليل على عدم وجود معجزة

(٥) يس: ١٤.

عندهم، فلعلّهم كانوا مزوّدين بها، وإنما نقصد هذا المعنى وهو أن نبوّة عيسى إذا كانت ثابتة ثمّ اخبر بنبوّة أحد فإن نبوّته تثبت وتتمّ الحجّة على أولئك الناس من دون أن يحتاج إلى التأييد بمعجزة مختصّة به.

وحتّى بالنسبة للمستقبل فإذا أخبر النبيّ السابق بنبيّ يأتي من بعده بمئة عام مثلاً وذكر خصائصه بحيث لا تبقى أيّة شبهة في تعيينه فإن اللاحق لا يحتاج إلى معجزة فيما إذا كانت نبوّة السابق ثابتة لهم، وامّا إذا كانت نبوّة السابق لم تثبت لهم أو لم يصلهم الإخبار باللاحق بصورة صحيحة فإنه يحتاج إلى الاعجاز.

كما في نبوّة الرسول الأكرم (ص) فقد بشّر ببعثته موسى وعيسى (ع)، ويقول القرآن إنهما قد ذكرا خصائص النبي (ص) بحيث أصبح اليهود والنصارى:

﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[٦].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾[٧].

فلم يكن من حقّ هؤلاء أن يزعموا ان الحجّة ليست تامّة عليهم.

نعم بالنسبة للذين لم تكن نبوّة موسى وعيسى (ع) ثابتة لديهم فإن نبوّة الرسول الأكرم (ص) لا تكون ثابتة عندهم بهذا الاخبار، وكذا حال من لم يصله الإخبار بطريق صحيح فلا بدّ لهؤلاء من معجزة يتمّ بها المطلوب.

إذن من الممكن أن تثبت نبوّة شخص لأمّة من الناس من دون معجزة وذلك بإخبار من الأنبياء السابقين، ومن هنا يتّضح لنا انه لا يوجد دليل عقلّي يثبت ضرورة تمتّع كل نبيّ بالإعجاز، ولا يثبت الدليل العقلي إلّا هذا المقدار وهو لا بدّ من المعجزة في كل مجال يتوقّف عليها إتمام الحجّة على الناس، ولكنّ هذا الأمر لا يعمّ جميع الأنبياء كما لاحظنا.

(٦) البَقَرَة: ١٤٦. الأنعام: ٢٠.
(٧) البَقَرَة: ٨٩.

المعجزة في القرآن

قلنا إن البرهان العقلّي يثبت ضرورة الاعجاز للأنبياء فيما إذا توقّف عليها إتمام الحجّة على الناس، فالأنبياء في الجملة لا بدّ أن يكونوا مؤيّدين بالاعجاز. وأمّا الآن فنحن نحاول أن نتبيّن موقف القرآن الكريم في هذا المضمار.

لم يرد في القـرآن لفظ المعجزة بهذا المعنى المقصود في هذا الباب، وقد ذكر القرآن بعض مشتقّاته من قبيل «يعجز» لكنّه ليس بهذا المعنى المقصود ها هنا. وبدل المعجزة استعمل القرآن كلمة «الآية»، ففي كثير من الموارد التي استعمل القرآن فيها هذا اللفظ فهو يقصد المعجزة. ونقوم بتوضيح كلمة «الآية» في القرآن لكي نتعرّف على موارد استعمالها ونميّز الموارد الخاصّة التي قُصدت بها المعجزة.

الآية:

فالآية في اللغة بمعنى العلامة سواء أكانت علامة حسّيّة كما لو كان هناك شيء يجذب الانتباه وهو علامة على شيء أم علامة عقليّة. فالقرآن يعدّ جميع ظواهر العالم آيات إلهيّة، أي أن التأمّل فيها يلفت الإنسان إلى الله تعالى وصفاته من علم وقدرة وحكمة وعظمة و... وبنظرة أعمق نستطيع القول إنّ وجود كل شيء هو آية لأنّه وجود ربطيّ وإذا عُرف بدقّة شوهد وراءه ذلك الوجود المستقلّ الإلهيّ. وبعبارة أُخرى لّما كانت جميع المخلوقات تجلّيات لوجود الله سبحانه فالذين يتمتّعون ببصيرة باطنيّة كافية يشاهدون وراء هذه التجلّيات نفس الذات المتجلّية. إلّا أنّ مثل هذه البصيرة ليست متوفّرة للجميع وإنّما هي لأمثال أميرالمؤمنين علي (ع) القائل:

(ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله....).

وبغضّ النظر عن هذا المعنى العرفانّي العميق فإن المعنى الظاهر للآية هو أن الإنسان عندما يتأمل في الآية فهو يدرك إن هناك وجوداً آخر تكون هذه الآية علامة عليه، وفي آية أُخرى يقول سبحانه:

﴿وَكَأَيِّن مِّن ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(١).

أيّ كلّما تأمل الإنسان في هذه الظواهر فإنه يهديه إلى وجود الله وصفاته ولكنّهم لا يلتفتون بل يعرضون:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾(٢).

بمعنى أنهم لايتأمّلون في الظواهر الجويّة حتى يشاهدوا ويعرفوا وراءها الخالق والحافظ والمدبّر لها.

ونلاحظ في كثير من الآيات التي تبيّن الظواهر الكونيّة إن الله سبحانه يذيّلها بقوله: **﴿ان في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾** أو **﴿يعقلون﴾**، أو **﴿يؤمنون﴾**.

فالآية إذن تطلق في القرآن على جميع مخلوقات الله.

وأحياناً يهتمّ القرآن ببعض الظواهر خاصّة ويدعو الناس إلى التفكير بشأنها واستخلاص النتائج المفيدة منها:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾(٣).

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾(٤).

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾(٥).

(١) يُوسُف: ١٠٥.

(٢) الأنبياء: ٣٢.

(٣) يس: ٣٣.

(٤) يس: ٣٧.

ونلاحظ في سورة الروم أنه يؤكّد على ظواهر معينة:

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ...﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً...﴾.

﴿وَمِن ءَايَاتِهِ...﴾(٦).

فالمقصود من الآية في هذه الموارد أن في هذه الموجودات التكوينيّة علامات من الله تعالى أو إنها هي بنفسها علامة على الله.

وللآية اطلاق آخر حيث تطلق على الآيات التشريعيّة، ولا يختلف هذان الإطلاقان مفهوماً فكلاهما بمعنى العلامة، غاية الأمر أن الكلام المُوحى من قِبل الله للأنبياء يُسمّى آية أيضاً. فالكلام علامة المتكلم وخصائص الكلام علامة على خصائص المتكلم، ومن هنا يطلق على وحيه للأنبياء أسم آياته:

﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾(٧).

ومن الواضح أن المقصود بالآيات هنا آيات القرآن الكريم وليس الظواهر الكونيّة.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ ٱللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾(٨).

وهناك موارد كثيرة أُطلقت فيها الآية على بعض جمل القرآن:

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾(٩).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾(١٠).

وبالالتفات إلى هذين اللونين من اطلاق «الآية» في القرآن نستطيع القول أن الآيات الإلهيّة تنقسم إلى فئتين: الآيات التكوينيّة والآيات التشريعيّة. فالآيات

(٦) الرُّوم: ٢٠ ـ ٢٦.

(٧) آل عِمْرَان: ٧.

(٨) آل عِمْرَان: ١٠٨. البَقَرَة: ٢٥٢.

(٩) يُوسُف: ١. الشُّعَرَاء: ٢. القَصَص: ٢.

(١٠) الحجّ: ١٦.

التكوينيّة هي مخلوقات الله، والآيات التشريعيّة هي كلام الله.

وقد استعملت «الآية» أحياناً في معنى أخصّ مما تقدّم وهو أنها يقصد بها تلك الظواهر الكونيّة التي لم تتحقّق عن طريق الأسباب العاديّة، وسُمّيت هذه بالآيات لأن دلالتها على الموجِد أوضح. وامّا الظواهر الكونيّة التي تتحقّق عن طريق الأسباب العاديّة فإن الذهن يغفل عن دلالتها على الموجد بسبب أُنسه بها. بينما إذا تحقّقت ظاهرة خلاف المجاري العاديّة فهي تجذب الانتباه وتُخرج الذهن عن حالة الغفلة وتهزّ الإنسان.

إذن تستعمل الآية أحياناً في معنى الظواهر التكوينيّة الخارقة للعادة، ونذكر هنا بعض النماذج من ذلك:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنَ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَى وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١١].

فعلامة كون طالوت ملكاً عليهم من قبل الله هي حركة التابوت الذي تحمله الملائكة معهم، وهو أمر غير عاديّ وعلامة على الارتباط بالله.

وكذا في قصّة النبي الذي يشير إليه القرآن بقوله:

﴿أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ ٱللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّه وَٱنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ ..﴾[١٢].

(١١) البَقَرَة: ٢٤٧ و ٢٤٨.

(١٢) البَقَرَة: ٢٥٩.

فكل شيء هو آية إلهيّة لكنّ هذه الظواهر غير العاديّة تجلب الانتباه وتكون دلالتها أوضح ولهذا تختصّ باسم الآية.

وكذا قصة المائدة التي طلبها بنو إسرائيل من عيسى (ع):

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ * قَالَ ٱللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾[١٣].

وقد استعملت الآية في مورد المعجزات التي قدّمها الأنبياء بعنوان أنها علامة على صدق ادعائهم النبوّة، كما في قصة صالح:

﴿هَذِهِ نَاقَةُ ٱللهِ لَكُمْ ءَايَةً...﴾[١٤].

أو في ولادة عيسى (ع) وهي حادثة غير طبيعيّة أيضاً:

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً﴾[١٥].

فمن الواضح أن استعمال الآية هنا يختلف عن استعمالها في كل ظاهرة، فلهذا المورد ميزة وهي أنه يجري على خلاف السنن الطبيعيّة فهو إعجاز وآية.

وقد استعملت الآية في سائر معاجز الأنبياء ومن جملتها معاجز موسى (ع):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾[١٦].

ولموسى (ع) معاجز وكرامات أُخرى قام بها طيلة حياته مع بني إسرائيل ولكن هذه الآيات التسع كانت معاجز وعلامات نبوّته، منها العصا واليد البيضاء وسبع آيات أُخرى.

(١٣) المائدة: ١١٤ و ١١٥.

(١٤) الأعْرَاف: ٧٣.

(١٥) المؤمنون: ٥٠.

(١٦) الإِسْرَاء: ١٠١.

وورد هذا التعبير بالنسبة إلى نبي الإسلام (ص):

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾(١٧).

والآية هنا ليست بمعنى المعجزة وانما بمعنى العلامة التي تتمّ بها الحجّة على الناس، فاخبار الأنبياء السابقين ومعرفة علماء بني إسرائيل علامة على صحّة نبوّته (ص).

وقد وقعت أحداث كثيرة في زمان النبي الأكرم (ص) وهي خارقة للعادة وقد استعملت فيها كلمة الآية، من جملتها:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾(١٨).

فرؤيتهم بضعف عددهم الحقيقي أمر خارق للعادة وآية من الله تعالى.

وتُستعمل الآيةُ تارةً في مورد العذاب النازل من الله على بعض الأمم السابقة. وهذا الاستعمال على نحوين، فتارةً يبقى من المعذّبين أثر فيقول القرآن إن هذا الأثر آية، وتارةً أُخرى يصف نفس الواقعة بأنها آية.

ومن جملة ذلك قصّة فرعون:

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾(١٩).

وقصّة قوم نوح (ع) حيث أهلكهم الله بعذاب منه وترك منهم آثاراً آية للآخرين.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٢٠).

فذلك آية على أن الله يهلك أعداءه وينجي المؤمنين به.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٢١).

(١٧) الشُعَرَاء: ١٩٧.

(١٨) آل عِمْرَان: ١٣.

(١٩) يونس: ٩٢.

(٢٠) العنكبوت: ١٥.

(٢١) القَمَر: ١٥.

وفي قصّة قوم لوط:

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[٢٢].

ويستعرض الله سبحانه في سورة الشعراء ثمانية موارد من العذاب النازل على الأمم السابقة، وفي خاتمة كل قصّة منها يقول تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢٣].

وكل هذه الموارد تتعلّق بالعذاب الاستئصالي.

إذن من جملة موارد استعمال كلمة «الآية» في القرآن هو استعمالها في الحوادث الخارقة للعادة والمعاجز. فلا وجود للفظ «المعجزة» في القرآن وإنّما يوجد فيه مكانها كلمة «الآية»، وحتّى إذا كانت كلمة «الآية» مشتركاً معنوياً فان المعجزة من موارد استعمالها بالخصوص . فليس كل مجال استعمل فيه القرآن لفظ الآية فهو يعني المعجزة، وانّما هو قد استعمل الآية في موارد خاصّة بمعنى الإعجاز.

بالنسبة للأنبياء الذين كانت لهم معاجز هل كانوا يقدمونها ابتداءً أم بعد مطالبة الناس إيّاهم؟

ظاهر بعض الآيات يدل على أن نفس الأنبياء عندما يُبعثون ويدعون قومهم إلى الله فإنهم يظهرون معاجزهم في بداية الأمر، ويستفاد من البعض الآخر أنهم كانوا يظهرون معاجزهم عند مطالبة الناس إيّاهم.

فمن القسم الأوّل ما جاء في حقّ عيسى بن مريم (ع):

﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِأَيَةٍ مِن رَّبِكُمْ أَنِيّ أَخْلُقُ لَكُم مِّن ٱلطِّينِ﴾[٢٤].

فهذه الآية تدل بظاهرها بل يمكن القول بأنها صريحة في أنه قد فعل ذلك ابتداءً.

(٢٢) الذّاريات: ٣٧.

(٢٣) الشُعَرَاء: ٨، ٦٧، ١٠٣.

(٢٤) آل عمْرَان: ٤٩.

وتدل بعض الآيات الأُخرىٰ على أن الأنبياء عندما كانوا يُبعثون ويدعون الناس إلى الإيمان فإن الناس يطالبونهم بالمعجزة وعندئذ كانوا يقدّمونها، ومن جملتها ما ورد في موسى (ع) عندما دعا فرعون وقومه إلى الإيمان برسالته فواجهه فرعون بهذا:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾(٢٥).

فظاهر هذه انه إلى ذلك الوقت لم يكن قد أظهر معجزتيه بعدُ.

وكذا في قصّة صالح عندما دعا قومه ثمود فكذّبوه:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾(٢٦).

وعندما طالبوه بالمعجزة:

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾(٢٧).

والحـاصل أن الأنبياء أحياناً كانوا يقدّمون المعاجز ابتداءً، وأحياناً أُخرى يقدّمونها بناءً على اقتراح الناس.

ومن هنا نفهم أن القرآن يعطي الحقّ للناس في المطالبة بالمعجزة.

هل أن كل اقتراح للإعجاز كان يطرحه الناس على الأنبياء تتمّ الموافقة عليه أم أن الأنبياء كانوا يردّون بعض الاقتراحات؟ ولماذا؟

وهل كانت المعجزات بصورة تُرغِم الناس على قبولها أم كانت لإتمام الحجّة على الناس فحسب؟

توجد آيات كثيرة في هذا المجال تؤكّد أن الناس كانوا أحياناً يقترحون بعض المعاجز المعيّنة ولكنّ الأنبياء لا يستجيبون لما يطلبون، وهذا شاهد على أن المقصود

(٢٥) الأعْرَاف: ١٠٦ ـ ١٠٨.
(٢٦) الشُعَرَاء: ١٥٤.
(٢٧) الشُعَرَاء: ١٥٥.

من الاتيان بالمعجزة ليس هو إجبار الناس على قبول الدين الحقّ وإنّما الهدف هو إتمام الحجّة عليهم وتقديم دليل على صحّة ادعائهم النبوّة. وقد يتفضّل الله أحياناً على أحد الأنبياء بمعاجز تقلّ أو تكثر وقد يُجري على يديه كرامات بعد النبوّة، فهذا من باب التفضّل الإلهيّ وهو تابع للمصالح التي يعلمها الله فإن رأى الله مصلحة فهو يمنحه معجزة أُخرى وإذا لم تكن هناك مصلحة اكتفى بإتمام الحجّة عليهم.

وقد لاحظنا أن الله قد اعطى موسى (ع) تسع معاجز، وقد كانت لعيسى (ع) عدّة معاجز، منها خلق الطير، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالمغيبات:

﴿وأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[٢٨].

ولسنا نعلم متى تقتضي المصلحة أكثر من معجزة ومتى تقتضي الإكتفاء بواحدة، ونعلم إجمالاً إن القرآن ينسب لبعض الأنبياء أكثر من معجزة ولكنّه ليس كلّ ما يطلب الناس من معاجز يُجابون، والقرآن يصرّح بأن الناس قد اقترحوا على الأنبياء بعض المعاجز في موارد معيّنة لكنّهم ووُجهوا بالرّد، وسوف نتناول الآن هذا الموضوع بالبحث:

ونبدأ بالإشارة إلى أن القرآن يؤكّد على أن كل نبيّ يريد القيام بمعجزة فهو يفعل ذلك بإذن الله وليس هو مستقلاً في إنجاز هذا الفعل:

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِأَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ﴾[٢٩].

وهناك موارد خاصّة يخبر فيها القرآن عن بعض الناس إنهم قد اقترحوا على الأنبياء بعض المعاجز وهم رفضوها، وحتى أن بعض الآيات قد توهم ـ لو لم تكن تلك الآيات الأُخرى ـ إنّ الأنبياء لا يقدّمون أيّة معجزة. وقد تمسّك بهذه الطائفة من الآيات منكرو المعاجز، إلّا أن عندنا في مقابلها آيات صريحة تثبت المعاجز للأنبياء،

(٢٨) آل عِمْرَان: ٤٩.

(٢٩) المؤمن: ٧٨.

وبهذه الآيات الصريحة يتّضح معنى تلك الآيات التي يوهم ظاهرها امتناع الأنبياء عن تقديم أيّة معجزة. أيّ أنّهم بعد إتمام الحجّة يرفضون تلك الاقتراحات لأنّها ليس فيها مصلحة كما لو كان اقتراحهم يؤدّي إلى سدّ باب الاختيار على الناس، فهذا خلاف الحكمة الإلهيّة وهو نقض للغرض، فالمعجزة كانت لكي يعلم الناس إن هذا نبيّ من قِبل الله وحينئذ يطيعونه باختيارهم، فإذا كانت المعجزة بصورة تسلب من الناس هذا الاختيار فذلك نقض للهدف من الخلق، ولهذا كان الأنبياء يرفضونها. وكذا الاقتراحات العابثة، فليس من المقرّر أن يجلس النبيّ صباح مساء لكي ينفّذ كل اقتراح يطرح عليه فهذا خلاف الحكمة، وإنّما لا بدّ له من إثبات نبوّته للناس مرّة واحدة بصورة تتمّ فيها الحجّة عليهم. وأمّا أن هذا الشخص يطلب منه تحويل الجبل من مكانه وذاك يريد منه أن يجفّف البحر، والثالث يرغب في أن يرى الله سبحانه فهذا عبث لا يليق بالأنبياء أن يستجيبوا له. أو يذكرون أعذاراً لأنفسهم، من قبيل إننا لا نؤمن بك حتى تكون لك البساتين والأنهار والقصور والذهب أو حتى تنقلنا إلى السماء لنرى هذا أو ذلك، فهذه أمور لا تكمن فيها المصلحة ولهذا كان الأنبياء يواجهونها بالرّد.

ويبدو من بعض الآيات إن الأنبياء أحياناً كانوا يتعرّضون لضغوط من قِبل أُناس بحيث يطالبونهم بتحقيق أشياء معيّنة إن كانوا صادقين ولكنّ الله سبحانه يعلم أن ذلك ليس فيه مصلحة وقد تمت الحجّة على الناس، ولهذا فإن الأنبياء يرفضون تلك الطلبات، ويصرّ الناس، ولولا التأييد الإلهيّ للأنبياء لرغبوا في تنفيذ طلباتهم إلاّ أن الأنبياء معصومون والله سبحانه يحفظهم من أن تحدث في أنفسهم رغبة خلاف الحقّ، وبالتالي فإنهم يجيبون: إن هذه هي رسالتنا وقد كلّفنا بإبلاغها إليكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ومن جملة أولئك الأنبياء نبيّ الإسلام الكريم (ص):

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣٠].

(٣٠) الأنعام: ٣٧.

ومن الآيات الدالّة على شدّة الضغوط التي كان يتعرّض لها النبي (ص):

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(٣١).

إن ﴿لعلّ﴾ للترجّي، وتختلف موارد استعمالها في القرآن، فتارة يكون الترجي عند المتكلم، وأُخرى عند السامع، وثالثة يكون المقصود منها أن الأسباب تقتضي مثل هذا الترجي. والآية الكريمة من هذا القسم الثالث ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك...﴾، من المعلوم أن النبي معصوم ولا يخطر على باله أن يترك رسالته، وإنّما المقصود أن ظروفك صعبة تدعو الإنسان من جهة كونه إنساناً إلى المَلَل والانسحاب من المهمّة الملقاة على عاتقه لأن الناس يطالبونه بما لا ينبغي مطالبته به، ولهذا فإن الله سبحانه يطمئنه بأنه نذير وإنه ليس مسؤولاً أن يؤمن الناس أو يكفروا وإنما تنتهي مهمّته بالإنذار وإتمام الحجّة على الناس والباقي على الله.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾(٣٢).

وهذا شاهد آخر على صعوبة ما كان يواجهه النبي (ص)، فمع أن دعوته الحقّة كانت لانقاذ البشرية فإن الناس كانوا يعرضون عنه، والله يؤكّد أنه لا يفعل هذه الأُمور المذكورة في الآية لأن فعله تعالى ليس بحسب أهواء الناس ورغباتهم، ولو تعلّقت إرادة الله بإرغام الناس على الهدى لكانوا جميعاً مهتدين، لكنّ الحكمة الإلّهية تقتضي أن يختاروا بإرادتهم طريق الحقّ أو طريق الباطل. والله تعالى ليس مثل السياسيين الذين يتوسلون كل يوم بوسيلة ليقودوا الناس إلى الحقّ، وإنّما لله سنّة في هداية الناس وهي ان يعرفوا طريق الحقّ وحينئذ:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٣٣).

(٣١) هُود: ١٢.

(٣٢) الأنعام: ٣٥.

(٣٣) الكهف: ٢٩.

فهو لو أراد إرغامهم على الإيمان لاستطاع لكنه لا يريد فلا تحزن على إعراضهم.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾(٣٤).

أتريد أن تهلك نفسك من الحزن على عدم إيمانهم؟ لو أردنا إيمانهم بأيّة صورة لانزلنا عليهم آية بحيث يخضعون لها ولا يستطيعون الفرار منها لكنّنا لم نشأ ذلك.

وتوجد في القرآن الكريم تعبيرات مشابهة لهذه إلّا أن لها معنى آخر حسب الظاهر، فهو تعالى ينقل عن الناس سؤالهم لماذا لا تنزل آية، ولعلّه يخطر في الذهن ابتداءً أنه سؤال عن المعجزة، ولكن قليلاً من التأمّل يظهر للباحث أن المقصود منها آية من القرآن، فقد كان يحدث أحياناً أن يتأخّر الوحي فترة من الزمن فترتفع أصوات المنافقين والكافرين: أين جبرئيل؟ ولماذا لا تنزل الآيات؟ وأحياناً كانوا يسخرون من النبيّ قائلين له: رتّب لنفسك آيات:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِأَيَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾(٣٥).

والاجتباء يعني الاختلاق والافتعال.

ويحتمل أن تكون هذه الآية أيضاً من هذا القبيل:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لله فَٱنتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾(٣٦).

ويحتمل أيضاً أن يكون المقصود بها الإعجاز، فآيات القرآن والمعاجز كلها من سنخ الغيب.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ انَّ ٱلله عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ

(٣٤) الشُعَرَاء: ٣ و ٤.

(٣٥) الأعْرَاف: ٢٠٣.

(٣٦) يونس: ٢٠.

حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَاتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ أَن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣٧].

فالقرآن الكريم يفضح كذبهم وأنّ هذه أعذار والحقيقة إنهم لا يريدون أن يؤمنوا، والقرآن لا يعترف بان الله قد عهد إليهم بمثل هذا الأمر ولكنه يقول طلبتم هذا فحقّقه لكم الأنبياء السابقون مع تزويدهم بأدلّة واضحة فلم تكتفوا برفضها وإنما قتلتموهم!

والحاصل أن الله سبحانه لا يتّبع أهواء الناس فيحقّق كل ما يشتهون، وإنّما فعل الله على أساس حِكَم هو يعلمها، فالمقدار الضروريّ هو إتمام الحجّة، وأكثر من ذلك تابع لمصالح خاصّة تختلف من مورد إلى آخر.

وفي آية أُخرى يبيّن عزّ وجلّ لماذا لا ينزل على الأنبياء معاجز أُخرى:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرسِلَ بِٱلأَيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلأَوَّلُونَ وَءَاتَينَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرسِلُ بِٱلأَيَاتِ إِلا تَخْوِيفاً﴾[٣٨].

إن ظاهر هذه الآية مبهم، فلماذا يمتنع الله عن إرسال المعاجز للّاحقين بسبب تكذيب السابقين بها؟

ذكر المفسرون وجوهاً مختلفة للجواب على ذلك، منها: لّما كان إرسال الآيات السابقة لم يثمر شيئاً فإرسالها بعد ذلك يصبح عبثاً، والله يجلّ عن العبث واللغو.

ولكن هذا البيان وحده ليس كافياً، لأنه لو كان علمه تعالى بأن هذا لا يثمر هو السبب في أنه لا يفعله لكونه عبثاً، ألم يكن الله عالماً بأن إرسال الآيات السابقة ليس فيه ثمرة؟ بمعنى أنه إذا كان يعلم بأن إرسال الآيات السابقة ليس فيه فائدة فهو لا يرسلها. فيبقى في هذا الوجه إيهام أن الله لا يعلم من قبل هل في إرسالها فائدة أم لا، ولهذا فقد امتحن الأمم السابقة وأرسل إليها الآيات فوجد إنها لا تنفع فقال إنّني لا أرسل بعد ذلك.

(٣٧) آل عمران: ١٨٣.

(٣٨) الإسراء: ٥٩.

لا ريب ان هذا المعنى غير صحيح، ولا يقصد صاحب هذا الرأي حتماً.

ونستطيع أن نكمل هذا الوجه بقولنا إن الآية التي أرسلها من قبل كانت لإتمام الحجّة مع علم الله بأن هؤلاء لا يؤمنون، فلم يكن هذا الفعل لغواً، ولكنّه بعد إتمام الحجّة لو أرسل آيات لهم فسيكون عبثاً ولغواً.

وذهب بعض المفسّرين إلى وجه آخر وهو أن المقصود من الآيات هنا هو إنزال العذاب على الأمم السابقة وهو عذاب يستأصلهم ويفنيهم، وقد تكرر هذا في التاريخ، فالله يرسل آية للناس فيكذّبون بها فينزل عليهم العذاب ولو أن الله أنزل مثل هذه الآيات على هذه الأمّـة لاستحقّت العذاب الاستئصالي ولكنّ الله عزّوجلّ لا يرى مصلحة في فناء هذه الأمة حاليّاً فلا بدّ أن تبقى إلى يوم القيامة، ولهذا فإنه لا ينزل عليها مثل هذا العذاب. ويختار هذا الوجه المرحوم العلّامة الطباطبائي رضوان الله عليه.

وعلى أيّة حال فمن مجموع هذه الآيات نستنتج أنه ليس كل اقتراح يقدّم للأنبياء بالإعجاز يحظى بالموافقة منهم، وإنّما بعض الاقتراحات كان يُرفض منهم لأنه لم يكن فيه مصلحة، والحجّة تامّة عليهم، وإرسال المعجزة من أجل إتمام الحجّة، وأكثر من ذلك يتبع المصالح الخاصّة التي تختلف من زمان إلى زمان آخر.

ما هو نطاق الإعجاز؟

هل المعجزة مختصّة بالنبيّ عندما يريد اثبات صحّة ادعائه النبوّة أم أن نطاقها أعمّ من اثبات النبوّة؟

وبعبـارة أُخـرى: هل خوارق العادة والمعاجز التي تذكر في القرآن الكريم منحصرة في مورد واحد وهو عندما يحاول نبيّ اثبات نبوّته أم هي ليست منحصرة في هذا المورد؟

من خلال دراسـة المعـاجـز في القرآن يتّضح تماماً ان نطاق الإعجاز ليس منحصراً في هذا المورد، فقد جاء الأنبياء بمعاجز في غير مجال اثبات نبوّتهم، وقد قام

غير الأنبياء أيضاً بأفعال خارقة للعادة بإذن الله، ووقعت حوادث في العالم ولو أنّها بيد غير إنسانيّة إلّا أنها على خلاف المجرى العاديّ للطبيعة، وكان تحقّقها بإذن الله وعلى أساس تأثير ما وراء الطبيعة. ومن جملتها وجود الإنسان نفسه، فهو حادث غير طبيعيّ كما يبيّنه القرآن الكريم، فلم تتحوّل المادّة بذاتها وفي ظروف خاصّة إلى إنسان وإنما كان خلق آدم (ع) أمراً غير عاديّ، وكذا خلق عيسى (ع)، فهذان الأمران من قبيل الإعجاز لكنهما لم يكونا لاثبات نبوّة أحد، وسوف نشير فيما بعد إلى حوادث أخرى.

إذن أصل وجود الإنسان على الكرة الأرضيّة كان حدثاً غير عاديّ وخارقاً للعادة، وكذا وجود بعض أفراد الإنسان الآخرين، فمع أن الإنسان السابق قد وجد وتوفّرت الظروف الطبيعيّة لوجود الأجيال اللاحقة إلّا أنه يحدث أحياناً خرق للعادة بولادة عيسى (ع) مثلًا خارج مجرى الأسباب والمسبّبات الماديّة.

وكذا أصل النبوّة، فلا شكّ إن الوحي لإنسان وتزويده بمثل هذا العلم حدث غير عاديّ، بمعنى أن الأسباب الطبيعيّة لا تقتضي أن يكون للإنسان ارتباط بما وراء الطبيعة بصورة النبوّة.

وهكذا ألوان العذاب النازل على الأمم السابقة فإنه لم يكن لاثبات النبوّة. فمثلًا عندما دعا نوح (ع) قومه إلى الله ألف عام ولم يستجيبوا له طلب من الله إنزال العذاب عليهم فدّمرهم به، لم يكن هذا لاثبات النبوّة، مع أن هذا العذاب قد تمّ ـ كما يبدو ـ بصورة غير طبيعيّة ومثله تعذيب قوم عاد وثمود ولوط وغيرهم، فقد كان بهدف استئصال الطغاة والكافرين.

ومثله العذاب الذي ينزل للتنبيه على فئة خاصّة أو أُمّة معيّنة بحيث لا يشمل جميع الأفراد فقد يكون بصورة غير طبيعيّة كمسخ بني إسرائيل حيث:

﴿جَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ...﴾[٣٩].

(٣٩) المائدة: ٦٠.

فهو من خوارق العادة ولم يكن لإثبات النبوّة.

وبالإضافة إلى هذه توجد في القرآن موارد خاصّة أُخرى يكون فيها الحادث غير عاديّ وهو ليس لإثبات النبوّة، من جملتها منح كل من إبراهيم (ع) وزكريّا (ع) ولداً. وتحقّق مثل هذه الأُمور لتقوية إيمان بعض المؤمنين أحياناً، وتارة لمصالح أُخرى، فالله يمنح بعض عباده كرامات وفضائل ويستجيب دعاءهم.

ولا ينحصر الإعجاز في هذا النطاق وإنّما هو يشمل غير الأنبياء أيضاً، فهناك موارد من خرق العادة في القرآن الكريم منسوبة إلى غير الأنبياء، ولا سيّما في مجال العلوم التي كانت تُعطى لبعض الأشخاص، والإلهام الذي كان يضيء حياة البعض، فإنها أُمور غير عاديّة.

فالجواب إذن على ذلك السؤال هو أن نطاق الإعجاز ليس منحصراً بخرق العادة لاثبات النبوّة.

والآن نذكر بعض النماذج:

لو حاولنا دراسة نماذج العذاب النازل على الأمم لضاق بنا المجال وهو أنسب بموضوع تاريخ الأُمم والأنبياء الذي سوف يأتينا فيما بعد، ولهذا فسوف نكتفي هنا بذكر بعض النماذج لوقائع خاصّة حدثت لبعض الأشخاص أو معجزات للأنبياء في غير مقام اثبات النبوة تعرّض لها القرآن الكريم.

من جملة ذلك موسى(ع)، حيث ذكرنا انه قد زوّد بتسع آيات لاثبات نبوته ولكنّه بعد أن خرج بنو إسرائيل من مصر وتحرّروا من ظلم الفراعنة فقد ظهرت على يد موسى(ع) طيلة حياته معهم معاجز كثيرة أكّد عليها القرآن الكريم، أولها العبور من البحر:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَاءِيلَ ٱلْبَحْرَ...﴾[٤٠].

فعندما خرج بنو إسرائيل من مصر واجهوا بحراً فانسدّ الطريق في وجوههم

(٤٠) الأعْراف: ١٣٨.

ولكنّ الله جفّف البحر ليعبر هؤلاء، ولم يكن هذا لاثبات النبوّة، لأن نبوّة موسى(ع) كانت ثابتة عند بني إسرائيل، وأما الفراعنة فقد كانوا رافضين لها، ومع ذلك جفّ البحر وتحقّق الإعجاز.

ومن المعاجز الأخرى إن بني إسرائيل أصابهم الظمأ في الطريق الطويل بين مصر وفلسطين ولم يجدوا ماءً فطلب موسى من ربّه الماء فأُمر بأن يضرب الحجر بعصاه فتفجّر منه الماء وكانت عيون الماء بعدد أسباط بني إسرائيل:

﴿.. وَأَوحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذْ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ...﴾[٤١].

ومن معاجز موسى(ع) ان بني إسرائيل كانوا يقطعون الصحراء وهم منزعجون من شدّة حرارتها فأرسل الله الغيوم عليهم لتظلّل لهم من حرارة الشمس:

﴿... وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ...﴾[٤٢].

ومن معاجزه (ع) أيضاً (وقد تمّت هذه المعجزة باقتراح من بني إسرائيل ويصوّرهم القرآن بصورة أُناس يتّسمون بالعناد والتعلل بالأعذار فلم يكونوامطيعين لموسى(ع) ولا يستسلمون لأحكام الدين كما ينبغي) إن بني إسرائيل طالبوه بقلع جبل من مكانه إذا كان في الواقع مرسلاً من قبل الله فاستجيب لهم:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾[٤٣].

فاقتلع الجبل من مكانه وجعله على رؤوسهم كأنّه يظلّهم بحيث خافوا أن يقع عليهم، ومن المعلوم أن هؤلاء كانوا حينئذ معترفين بنبوّته (ع) لكنها تعلّلات ولجاجة.

ويحتمل أن يكون نزول المنّ والسلوى عليهم قد تمّ بصورة غير عاديّة، فقد كانوا فترة من الزمن يسكنون الصحراء،وإسكانهم تلك الصحراء بسبب عدم طاعتهم لأمر الله فقد أمرهم الله بدخول مدينة وقتال أهلها الكافرين لكنهم عصوا:

(٤١) و(٤٢) الأعراف: ١٦٠.

(٤٣) الأعراف: ١٧١.

﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاْذهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هِنَا قَاعِدُونَ﴾(٤٤).

ونتيجة لهذا العصيان:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾(٤٥)، (وخلال هذه السنين انتقل موسى(ع) إلى جوار ربه)، فاحتاجوا إلى الغذاء وعندئذ أنزل الله عليهم المنّ والسلوى. ما هي حقيقة هذين؟ ورد في التفاسير وجوه مختلفة أشهرها إن «المنّ» شراب حلو الطعم، و«السلوى» نوع من اللحم وفي بعض الروايات إنه لحم طيور يذبحونها. وعلى كل حال فظاهر القرآن أن نزولها كان بشكل غير عاديّ، ويستطيع منكرو المعجزة أن يؤوّلوا هذه الآيات بسهولة فيقولون إن المنّ سائل كان يُستخلص من بعض النباتات، والسلوى طيور كانت تعيش في هذه المنطقة المزروعة. ونحن لا نصرّ كثيراً على أن نزولها كان بصورة إعجاز وإنما نقول إن ظاهر الآية هو ذلك.

وكذا قصّة مائدة عيسى(ع) المذكورة في أواخر سورة المائدة، فإنها لم تكن لاثبات النبوّة، لأن الحواريّين كانوا عندئذ مؤمنين بعيسى وكانوا تلامذته فخطر على أذهانهم يوماً أن يطلبوا من عيسى(ع) نزول مائدة عليهم ليطعموا منها فأبدوا له اقتراحهم ووافق عيسى(ع) ودعا ربّه فأنزل عليهم ما أرادوا واستمتعوا بتناول ما فيها. وواضح جداً أنه حدث غير طبيعيّ ولم يكن أيضاً لاثبات النبوّة.

ومن الأحداث غير العاديّة للأنبياء قصّة إبراهيم(ع) حيث وصل إلى الشيخوخة ولم يرزق ولداً وكانت زوجه «سارة» عقيماً. وعندما جاء الملائكة لينزلوا العذاب على قوم لوط افتتحوا مهمّتهم بزيارة إبراهيم(ع) لأن لوطاً(ع) كان تابعاً له (بعض الأنبياء له شريعة والبعض الآخر ـ سواء أكان في نفس ذلك الزمان أم في زمان

(٤٤) المائدة: ٢٤.

(٤٥) المائدة: ٢٦.

لاحق ـ ليس له شريعة مستقلّة وإنما هو تابع للنبي صاحب الشريعة)، وظهر الملائكة لإبـراهيم(ع) بصورة أُناس فظنّهم إبراهيم ضيوفاً وأمر بذبح كبش لهم ولّما حضر الطعام لم يمدّ هؤلاء أيديهم إليه، وكان هذا الأمر مستقبحاً عند الناس لأنه علامة على العداء فاضطرب إبراهيم للموقف فطمأنه الضيوف بأننا رسل الله جئنا لإنزال العذاب على قوم لوط، وفي هذه الأثناء بشّروه بأنّ الله سيرزقك ولداً (في بعض الآيات يُذكر ولد واحد وفي البعض الآخر اثنان، فغالباً تذكر الآيات إسحاق(ع)، وكانت زوج إبراهيم على مقربة منهم:

﴿فَأَقْبَلَتَ ٱمْرَأَتَهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[٤٦].

﴿وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ* قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ* قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ رَحْمَتُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[٤٧].

﴿قَالُوا لَا تَوْجَل إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عليم* قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ* قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْقَانِطِينَ﴾[٤٨].

ويحتمل أن لا تكون قصّة إنقاذ إبراهيم من نار نمرود لإثبات النبوّة، لأنّهم لا بدّ أن يكونوا حينئذ قد أكملوا نقاشهم، ولو كان الأمر في بدء إثبات النبوّة فمن المستبعد أنّ ينتهي إلى الإلقاء في النار، فهي إذن كرامة من الله لإبراهيم (ع)، ولو أنه من المحتمل أنّ يكون الله قد أراد إفهامهم نبوّته بهذه الطريقة، وقد تكرّر ذكر هذه القصّة في القرآن، ومن جملتها:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٤٩]

(٤٦) الذّاريات: ٢٩.

(٤٧) هُود: ٧١ ـ ٧٣.

(٤٨) الحِجْر: ٥٣ ـ ٥٥.

(٤٩) الأنبياء: ٦٩.

ومن كرامات الأنبياء قصّة زكريّا (ع) المذكورة في مكانين من القرآن:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * ...قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلعَظْمُ مِنِّيَ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً ...وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * ...يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَى...﴾[٥٠].

وذكرت أيضاً في سورة آل عِمْرَان بمقدّمات رائعة حيث يستعرض سبحانه في البداية قصّة مريم(ع) وإنّها كانت لها غرفة في بيت المقدس تقطع فيها الوقت في العبادة (وكان هذا سائداً بين بني إسرائيل فيقفون أبناءهم أحياناً على العبادة في بيت المقدس، وقد نذرت أم مريم إن رزقها الله ولداً أن تجعله في خدمة هذا البيت الشريف وكان في ذهنها إن الله سوف يمنحها ذكراً:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلأُنثَى﴾[٥١]، وحسب النذر أرسلت مريم إلى بيت المقدس) وكانت مشغولة بالعبادة في إحدى غرفه، وكان زكريا المشرف على بيت القدس حينذاك وهو نبيّ من أنبياء الله:

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً (وهذا أيضاً من جملة الكرامات الحاصلة لغير الأنبياء) قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٥٢].

ولّما شاهد زكريا هذا اللطف الإلّهيّ لعباده الصالحين وقع في نفسه أن يطلب من الله ولداً:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً...﴾[٥٣].

وتوجد في هذا المضمار أيضاً قصّة منح مريم(ع) ولداً، وهي مقرونة بمعاجز وكرامات عديدة:

(٥٠) مريم: ١ ـ ٩.
(٥١) آل عِمْرَان: ٣٦.
(٥٢) آل عِمْرَان: ٣٧.
(٥٣) آل عِمْرَان: ٣٨.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ* وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ* قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ ٱللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٥٤].

فهل رأت مريم الملائكة عندما كلّموها أم لا؟ لا يظهر شيء من الآية في هذا الصدد. وهذه الآية شاهد على ان الإنسان وإن لم يكن نبيّاً فهو يستطيع ان يقع مورد الخطاب الإلهي، أي يُلهم أو يوحى إليه بالمعنى العام لهذه الكلمة. وفجأة وجدت في غرفتها شاباً جميل الطلعة:

﴿قَالَتْ إِنِّيَ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾[٥٥].

لم تعرف أنه ملك وإنما تخيّلته إنساناً يقصد بها سوءاً:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾[٥٦].

وظهور الملك للإنسان أيضاً حدث غير طبيعيّ، ثمّ ولادتها من دون ان تتحقّق الأسباب الطبيعيّة كذلك. إنها من خوارق العادة وقد تحقّقت لغير الأنبياء.

ومن الوقائع الخارقة للعادة قصّة التابوت لطالوت، فطالوت لم يكن نبيّاً ولكن الله أظهر له المعجزة حتى يقبل بنو إسرائيل حكومته. وقد يقال إنها معجزة لنبي تسمّيه الروايات «صموئيل»، إلّا أن الآية تشير إلى أنها آية لملك طالوت:

﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٥٧].

وعلى كل حال فإن فيها احتمالين: ان تكون معجزة لصموئيل وهي ليست لاثبات النبوّة، أو تكون معجزة لطالوت وهو ليس بنبيّ.

(٥٤) آل عِمْرَان: ٤٥ ـ ٤٧.

(٥٥) مريم: ١٨.

(٥٦) مريم: ١٩.

(٥٧) البَقَرَة: ٢٤٨.

ومن جملة الكرامات قصّة إحياء الطيور على يد إبراهيم:

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَى...﴾[٥٨].

وهي لم تكن لإثبات النبوّة، ولعلّه لم يكن معه أحد حينذاك.

ومنها قصة عزير (أو أرميا) الذي مات ثمّ تمّ احياؤه بعد مئة عام، فهو أمر خارق للعادة تحقّق لنبي لكنه ليس لإثبات النبوّة.

وكذا قصّة إنقاذ يونس من بطن الحوت، فبعد أن يئس من إصلاح قومه تركهم وركب السفينة وهاج البحر وكان من المرسوم عندهم إنه إذا هاجم السفينة حيوان بحري فإنهم لإبعاده عنها وإنقاذ ركابها منه يقترعون بينهم فإذا وقعت القرعة على أحدهم ألقوا به إليه، فاقترعوا ووقعت القرعة باسم يونس ثلاث مرات فألقوه في البحر والتقمه الحوت، ومن الواضح ان هذا لاخلاص منه لكنّ الله سبحانه أراد إنقاذه منه:

﴿فَنَادَى فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥٩].

وقد تكرر ذكر هذه القصّة في القرآن بتفاصيل مختلفة، وهو أمر خارق للعادة تحقّق لنبيّ لكنّه ليس لإثبات نبوّته لأنه كان قد فرغ من اثباتها لهم ويئس من إمكانيّة إصلاحهم.

ومثلها الكرامات الممنوحة لداوود وسليمان (ع)، فالقرآن يذكر ان الله قد تلطّف كثيراً على هذا الولد وذاك الأب، من جملتها إنه تعالى علّم داوود صناعة الدروع وليّن الحديد في يده. وليس هذا التعبير بشكل لا يقبل أيّ تأويل، ولهذا أوّله المنكرون للإعجاز بصورة ساذجة فقالوا صحيح إن القرآن يصرّح:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾[٦٠].

(٥٨) البَقَرَة: ٢٦٠.

(٥٩) الأنبياء: ٨٧ و ٨٨.

(٦٠) الأنبياء: ٨٠.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾(٦١).

إلّا أن الله سبحانه ينسب لنفسه كل شيء لأنه يريد أن يؤكّد التوحيد، ولا يعني هذا أنه قد تمّ من دون واسطة، وإنما ينسجم مثلاً مع كونه قد علّمه أن يصنع فرناً لإذابة الحديد، أو أنّه هو قد تعلّم بالتجربة كيف يُليّن الحديد لتُصنع منه الدروع. وليس بعيداً أن يكون ما توحي به الآية الكريمة غير ذلك وأنها كرامة لداوود يمنّ بها الله على الناس، فهو حدث غير عاديّ.

وعندما كان داوود يتلو الزبور فإن الجبال والطيور تنسجم معه:

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾(٦٢).

وأوّلها منكرو الإعجاز بأن داوود كان يتلو زبوره إلى جانب الجبل فينعكس صدى صوته الجميل لتجتمع الطيور عليه. إلّا أن روح الآية لا ينسجم مع هذا الفهم:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾(٦٣).

وليس في هذه الموارد ما يؤكّد أن هذه المعاجز كانت لإثبات النبوّة.

وأمّا بالنسبة لسليمان:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾(٦٤).

ولعلّه يستفاد من قوله «عُلِّمنا» إن داوود (ع) يشاركه في هذا الأمر.ويظهر من بعض الآيات إن معرفته لم تقتصر على منطق الطير وإنّما تشمل بعض الاحياء الأُخرى غير الطيور لأنه عندما:

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ لَايَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ

(٦١) سَبَأ: ١٠.

(٦٢) الأنبياء: ٧٩.

(٦٣) سَبَأ: ١١.

(٦٤) النّمل: ١٦.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٦٥].

سمعها سليمان وفهم ما قالت:

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِن قَوْلِهَا...﴾[٦٦].

﴿وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[٦٧].

فالله عزَّ وجلَّ سخَّر الريح لتحمل بساطه إلى أيّ مكان يريده. ويقول المنكرون للمعاجز أنّ هؤلاء قد صنعوا لأنفسهم شيئاً يشبه الطائرة، وهذا التأويل كما تلاحظون!

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾[٦٨].

فقد أظهر الله له عين النحاس ولعلّهم قاموا بتصنيعه.

﴿وَمِنَ ٱلجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٦٩].

وماذا يعمل هؤلاء:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾[٧٠].

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَٱلشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾[٧١].

ويعاقب من يعصيه منهم بالسجن:

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾[٧٢].

(٦٥) النّمل: ١٨.

(٦٦) النّمل: ١٩.

(٦٧) و(٦٨) و (٦٩) سبأ: ١٢.

(٧٠) سَبَأ: ١٣.

(٧١) ص: ٣٦ ـ ٣٧.

(٧٢) ص: ٣٨.

ومن الكرامات التي تحَقّقت لغير الأنبياء ما جرى لأصحاب الكهف، ولم يكن بينهم نبيّ، ومع ذلك أغرقهم الله في نوم دام ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً، ثم استيقظوا، و....

ومن هنا نفهم ان الأحداث غير العاديّة قد لا تكون في بعض الأحيان تابعة للإرادة الإنسانيّة، فلا ضرورة لأن يتمّ الفعل الخارق للعادة دائمًا عن طريق الإرادة الإنسانيّة وإنّما قد يكون بإرادة الملائكة، ولا ينفي هذا أن تنضمّ إليها إرادة الإنسان، فاصحاب الكهف لم يقصدوا النوم طيلة هذه الفترة وإنما قصدوا الاستراحة قليلاً ليواصلوا مسيرتهم ولكنّ الله أراد أن يستغرقوا في هذا النوم الطويل من دون أن يريدوه.

وتحسن الإشارة هنا إلى مشكلة عقليّة وهي أن الأحداث غير العاديّة إذا كانت مستندة إلى نفس إنسانيّة فنحن نستطيع القول إن النفس هنا واسطة في التأثير وعلّة خاصّة لهذه الظاهرة، ولّما كانت متعلّقة بالبدن فإنّ لها شروطاً ماديّة. وأمّا إذا كانت مستندة إلى علّة قريبة غير مادّية فنحن نواجه هذا السؤال: إن نسبة المجرّد التّام إلى جميع الأشياء وجميع الأمكنة على السواء فكيف يوجد هذا المجرّد التّام حادثة ماديّة خاصّة في مكان معيّن؟

إنه إشكال يواجه الفلاسفة والذين يحاولون تحليل المعجزات عقلياً.

ونذكر في الجواب ما يقوله الفلاسفة أنفسهم بالنسبة للأمور العادّية، فهم يصرّحون بأن كل مادّة تستعدّ لصورة فهي تُفاض عليها من قِبل العقل الفعّال. والتعيّن بهذا الزمان وهذا المكان يعود إلى استعداد القابل، ولا حاجة للتعيّن في الفاعل. فهذا الاستعداد قد ظهر في أصحاب الكهف. ما هي حقيقته؟ نحن لا نعرفها، وإنما نعلم إجمالاً إن ظروفاً خاصّة قد أحاطت بهم بحيث تقتضي مثل هذا الأمر، ولا مانع من أن يكون فاعل هذه الظاهرة مجرّداً تامّاً هو الذي يوجدها، وأما التعيّن بهؤلاء الأفراد وبهذا الزمان فهو يعود إلى القابل.

ومن جملة كرامات غير الأنبياء قصّة أمّ موسى (ع):

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٧٣].

والحاصل إن خوارق العادة سواء أكانت بصورة علم أم بصورة كلام للملائكة أم بصورة أعمال خاصّة فإنها لا تختصّ بالأنبياء ولا تقتصر على مقام إثبات النبوّة. والضروريّ بحسب البرهان العقلي هو أن النبي عندما يتوقّف إثبات نبوّته على الإعجاز فلا بدّ من تحقّقه حتى تتمّ الحجّة على الناس. وأمّا في سائر الموارد فهو فضل من الله فكلّما اقتضت حكمته تعالى فانه يفعله.

(٧٣) القصص: ٧.

المعجزة الخالدة

قلنا إذا توقّف إثبات دعوة الأنبياء على الإتيان بالمعجزة فإن الحكمة الإلهيّة تقتضي تزويده بها.

فكيف كان الأمر بالنسبة إلى نبيّ الإسلام الأكرم (ص)؟

ينقـل القرآن الكريم أن الأنبياء السابقين قد بُشّروا بظهور نبيّ الإسلام (ص)، حتى أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون ظهوره، وجاء في التاريخ أن السبب - أو أحد الأسباب - في هجرة بني إسرائيل إلى الحجاز وإقامتهم في أطراف المدينة هو انتظارهم لهذا النبيّ العظيم.

وبناءً على هذا تكون نبوّته ثابتة لديهم، وعندهم من القرائن والعلامات بصورة لاتُبقي أيّ مجال للشكّ والريب. وقد تّمت الحجّة على سائر الناس الذين سمعوا بهذه البشارة أوّلاً ثمّ شاهدوا تحقّقها بعد ذلك.

ولكنّه لّما كان النبي الكريم (ص) لم يبعث لأُمّة في مكان معين أو زمان خاص وإنّما لا بدّ أن تتبّعه البشرية منذ ذلك الوقت وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فالحكمة الإلهيّة تقتضي تزويده بمعجزة خالدة لا تقتصر على زمان خاص ولا على مكان معيّن. وقد كانت معاجز سائر الأنبياء مقصورة على الحاضرين تثبت عندهم بالمشاهدة ثمّ يتمّ اثباتها للغائبين عنها بالنقل، إلاّ أن هذا الأسلوب ليس فعّالاً دائماً، أيّ لو أردنا الإكتفاء بالنقل فإنه على مرّ السنين يفقد قيمته ولا ضمان للنقل المفيد لليقين. إذن لا بدّ من وجود معجزة باقية حتى يعرف الناس بها دائماً نبوّة الرسول

الأكرم (ص)، ومن هنا أنزل الله كتاباً عليه وجعله معجزته.

فما هو موقف القرآن في هذا الصدد؟

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[1].

وقد نزلت هذه الآية في جوٍّ يمتلىء فيه أهل الكتاب عناداً للإسلام ولو كان هناك أدنى شك في هذا القول لأخذوا يشهّرون به مدّعين أننا لا نعرف هذا النبي ولا توجد عندنا علامة عليه، بينما نلاحظ أن القرآن يصرّح بمعرفتهم له ولم يجيبوا على هذا.

﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾[2].

كان أهل الكتاب قبل بعثة النبي (ص) يَعِدون المشركين عندما يدخلون في نقاش معهم بأن نبيّاً سوف يُبعث من بينكم يصدّق دعوتنا وستعرفون أننا على حقّ، ولكنّه عندما بعث هذا النبي (ص) كفروا به.

﴿ٱلَّـذِينَ يَتَّبِعُـونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيلِ﴾[3].

فالقـرآن يفهمنـا إن البشـارة بظهـور النبي (ص) قد تقـدّمت في التوراة والإنجيل ولا سيّما من قبل المسيح (ع):

﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[4].

وهو اسم آخر من أسماء النبي (ص) كان معروفاً به أيضاً.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[5].

(١) البَقَرَة: ١٤٦. الأنعام: ٢٠.

(٢) البَقَرَة: ٨٩.

(٣) الأعْرَاف: ١٥٧.

(٤) الصَّف: ٦.

(٥) المؤمنون: ٦٩.

فأهل الكتاب إذن كانوا يعرفون انه النبيّ الموعود، فالحجّة تامّة على أهل الكتاب.

وامّـا الآخـرون الـذيـن سمعـوا هذه البشارة من قبل ثمّ شاهدوا تحقّقها بالخصائص المذكورة من قبل هؤلاء فإن الحجّة تامّة عليهم، لأن ذلك شاهد على صدق الكتب السابقة المبشّرة وعلى صدق رسالة هذا النبي الكريم (ص):

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِن بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾[٦].

ولعلّه «عبد الله بن سلام» وهو أحد علمائهم.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾[٧].

فبشارة الكتب السابقة لم تكن حجّة على أهل الكتاب فحسب وإنما هي حجّة أيضاً على المعاصرين المطّلعين عليها وعلى انطباقها عليه (ص).

إلّا أننا قد ذكرنا كون رسالة الإسلام أبديّة عالميّة فلا بدّ أن تكون معجزته كذلك، وقد تحقّق ذلك في القرآن، وهو بنفسه يصرّح بذلك.

وينقل القرآن عن البعض قولهم لو أردنا أن نأتي بمثله لفعلنا:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ﴾[٨].

وقد تحدّاهم القرآن بعدّة صور، منها:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلإِنس وَٱلجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا ٱلقُرءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[٩].

﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ﴾[١٠].

والظاهر أن التحدّي هو بإتيان كتاب يشبه هذا الكتاب ومجموعة أحاديث مثل

(٦) الأحقاف: ١٠.
(٧) الشُعَرَاء: ١٩٧.
(٨) الأنفال: ٣١.
(٩) الإسْرَاء: ٨٨.
(١٠) الطُور: ٣٤.

هذه المجموعة.

والصورة الأخرى هي انه تحدّاهم أن يأتوا بعشر سور مثله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِن دُونِ ٱللهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللهِ...﴾[١١].

والصورة الثالثة هي إنه تحدّاهم أن يأتوا بسورة مثله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِن دُونِ ٱللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١٢].

هكذا كان جوّ المعارضة بحيث إذا فكّر الإنسان فيه فسوف يقطع أن هذا الكتاب مُنزل من الله، فهو حديث باللغة العربية مكوّن من هذه الحروف والكلمات المستعملة في الحوار اليومي ولكنّ أحداً بل كل الناس مجتمعين لا يستطيعون أن يأتوا بسورة مثله مكوّنه من سطر واحد.

لماذا كان التحدّي في بعض الآيات بعشر سور وفي بعضها الآخر بسورة واحدة؟

يقول بعض المفسّرين إن هذا تدرّج في التحدّي فيتحداهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن ثم يقول تنازلنا فاتوا الآن بعشر سور مثله ثمّ يقول تنازلنا فأتوا بسورة مثله، وهذا أبلغ في بيان عجز الخصم.

ولا يكون هذا الموضوع صحيحاً إلّا إذا كان نزول هذه الآيات بهذا الترتيب، أي نزلت الآيات التي تتحدى بكل القرآن أوّلاً ثم تلتها آيات التحدّي بعشر سور ثمّ اعقبتها الآيات التي تتحدّى بسورة واحدة، ولا ينسجم هذا مع المنقول في ترتيب نزول السور، فالتحدّي بعشر سور وارد في سورة هود والتحدّي بسورة وارد في سورة يونس والبقرة، وحسب النقل المشهور تكون سورة يونس سابقة في النزول على سورة

(١١) هُود: ١٣ و ١٤.

(١٢) يونس: ٣٨.

هود، وهناك نقل ضعيف يتقدم سورة هود.

واختار المرحوم العلّامة الطباطبائي رضوان الله عليه وجهاً آخر وهو أنَّ التحدّي بسورة كان من احدى الجهات والتحدّي بعشر سور كان من جهة أُخرى، وذلك أن جميع القرآن على مستوى الإعجاز في البلاغة لا فرق بين سورة وأُخرى من هذه الجهة، فلو جاءوا بسورة واحدة مثله من حيث البلاغة فهذا يدل على ان القرآن ليس كلام الله، إلّا أن للبلاغة جهة أُخرى بالإضافة إلى أصل الجمال والدقّة وهي أن فيها فنوناً مختلفة ولكل فن خصائص معينة، فإذا قال ائتوا بعشر سور فكأنه يريد التحدّي بأنواع الفنون المستعملة فيه ويقول لو تحدّثتم في أي مجال لا تستطيعون الاتيان بمثل القرآن: إذا تحدّث القرآن في مجال المعارف فإنكم لا تستطيعون الاتيان بمثله، ولا في مجال الأحكام ولا في مجال القصص ولا في مجال الأخلاق، ولا في أيّ فن من فنون الكلام الموجودة في القرآن، فلعلّ سورة يونس قد نزلت قبل سورة هود ومع ذلك يوجد معنى للتحدّي بعشر سور أيضاً.

فإذا ثبت ذلك التدرّج في النزول فذلك الوجه أفضل.

وهناك آية أُخرى تتحدّى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[١٣].

أحياناً يتناقش اثنان فيقول أحدهما للآخر لو كان الحقّ معك لفعلت كذا، والحدّ الأقصى أنه لا يستطيع فعله فينهزم، ولكنّ القرآن لا يكتفي بهذا الحدّ وإنّما يحرّض الخصم ويرغّبه في الفعل: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار...﴾، يتحداهم في إثبات أنه ليس هذا كلام الله وإن لم يستطيعوا ذلك فاقبلوه وإن لم تقبلوه فانتظروا عذاب الله الأبديّ. إن كل عاقل يحرّكه هذا التهديد وإذا كان ضميره حيّاً

(١٣) البَقَرَة: ٢٣ و ٢٤.

فانه يبحث عن جواب مقنع له.

واختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله ﴿من مثله﴾، فقال البعض إنه القرآن، ومن للتبعيض فيكون معنى الجملة هو فأْتوا بسورة من مثل القرآن، فيتطابق مفادها مع مفاد تلك الآية من سورة يونس. وذهب البعض الآخر إلى أن الضمير يرجع إلى قوله «عبدنا» فيصبح معنى الجملة فأْتوا بسورة من مثل هذا النبي، وهي إشارة إلى جهتين من إعجاز القرآن أحدهما أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن، والثانية هي أنكم لا بدّ أن تلتفتوا إلى كون هذا الشخص أُميّاً وقد صدر منه هذا الكلام الذي يعجز عن الإتيان بمثله علماؤكم، فهذا علامة أنه كلام الله.

جهات إعجاز القرآن:

لقد كُتِبت مؤلّفات لهذا الغرض لكننا نشير إجمالاً إلى وجوه إعجازه حتى لا يبقى الموضوع مبتوراً.

ذهب بعض المتكلمين إلى أن إعجاز القرآن ليس لذاته وإنما هو «للصرفة»، أي أن الإنسان ليس عاجزاً في الواقع عن إعداد سطر مثل القرآن لأنّ ما فيه هو من قبيل هذه التركيبات اللغويّة، وإنّما الله سبحانه هو الذي يصرف الناس عن القيام بذلك.

ويبدو أن هذا لا ينسجم مع ظاهر الآيات فالقرآن يؤكّد أنه معجزة ولا يمكن الاتيان بمثله لا أن الله لا يسمح بذلك. فالقرآن الكريم يحتل منزلة من البلاغة بحيث لا تستطيع القوى الإنسانيّة العاديّة أن ترتفع إليها، فكل من يأتي بمثل القرآن فذلك علامة على كونه مؤيّداً من قِبل الله، والقرآن هو بنفسه معجزه.

لماذا كان القرآن معجزة؟

من جملة وجوه إعجازه بلاغته، والبلاغة هي صياغة الكلام بحيث يتفق مع مقتضى الحال ويؤدّي أهداف القائل على أفضل وجه.

إذن كل كلام لا بدّ من مقايسته إلى هدف القائل وما يقتضيه حال السامع حتى يُعرف هل انه اختار أفضل الأساليب لتحقيق ذلك الهدف أم لا، ولا تقتصر البلاغة على اختيار الكلمات الجميلة الجذّابة وإنما لا بدّ ـ بالإضافة إلى ذلك ـ من الأخذ بعين الاعتبار هدف القائل ووضع السامع، ولّما كان الله سبحانه يعرف هدفه أفضل من الجميع، ويعرف وضع عباده أحسن من كل أحد، وهو المحيط بكل التركيبات اللغوية فإنه تعالى يستطيع بيان هدفه على أساس ما تقتضيه حال عباده وبأفضل وجهه ممكن. وأمّا الآخرون فهم محرومون من مثل هذه الخصائص، ما هي الملاحظات التي يريد بيانها؟ وكيف هي حال المخاطب؟ إمكانيات الإنسان في هذا المجال محدودة، فهو يستطيع الالتفات إلى جهة أو جهتين ولا يمكنه الاشراف على جميع الجهات، ولهذا يمتاز القرآن بهذا الإشراف على جميع ما يكتبه الإنسان.

وهناك استبعاد يقول: إن تركيب الألفاظ محدود وبالتالي يمكن الوصول إلى ما يشبه القرآن، فإذا لم يستطع شخص أو شخصان انتدبنا عدداً أكبر، وإن لم يكفهم يوم أو يومان تركنا لهم مجالاً أوسع، فكيف يعجز الناس عن الاتيان بمثله والتركيبات اللغويّة محدودة؟ نعم نحن نلاحظ أن القرآن أروع من أيّ كلام آخر وفيه ملاحظات دقيقة لكن الفاصلة بين بلاغته وبلاغة كلام الآخرين ليست لا نهائيّة وانما هي محدودة ولعلّ أناساً يأتون ليملأوا هذا الفراغ ويصلوا إلى مستوى القرآن. والحاصل ان هذا الاستبعاد يتضمّن اننا لا نستطيع أن نفهم ان للقرآن ميزة لا يمكن الارتفاع إليها، وصحيح أنه أرفع من كلام البلغاء لكنّه ليس بفاصلة لا يتيسّر قطعها.

ومنشأ هذا الاستبعاد هو اننا لا يمكننا تقييم حقيقة بلاغة القرآن الكريم ونظنّه أفضل قليلاً من كلام الآخرين، وما هو مقدار بلاغته؟ لا انستطيع أن نقيّمها فيحصل هذا الاستبعاد.

وللعلّامة الطباطبائي مثال يبيّن به كيفيّة رفع هذا الاستبعاد فيقول إن الامتياز الكيفيّ لكلام أو أيّ شيء آخر يتمتّع بالكمال والجمال لا يمكن قياسه بالمقاييس العاديّة. فلو أردنا المقارنة بين شيئين من الناحية الكميّة فنحن نستطيع ان ندرك مدى

اختلافهما في ذلك، فإذا كان أمامنا خط طوله سنتمتر واحد وقارنّاه إلى خط آخر طوله متر واحد فسوف نجد أن هذا أطول من ذلك مئة مرة، وقياس ذلك سهل. إلّا أن مقارنة الكيفيّات لا نستطيع قياسها بدقّة، ولهذا نلاحظ في العلوم الشائعة في العالم اليوم إنهم يحاولون توضيح المسائل بصورة كميّة، لأن ذهن الإنسان يأنس الكميّات والقوانين الرياضيّة وينبهم على أدراك الكيفيّات، فإذا تأملنا في منظر طبيعيّ وقارنّاه إلى منظر جميل آخر فنحن نعجز عن الجواب على هذا السؤال: كم هو أجمل منه؟ فهناك زهرة جميلة وأخرى أجمل منها، لكن الإنسان لا يستطيع أن يبيّن كم هي أجمل من الأولى؟

وقد يُتصّور ابتداءً أنّها أجمل منها بدرجة واحدة، فإذاجئنا بزهرة ثالثة متوسطة بينهما فسيقول أنها أجمل من هذه المتوسطة بدرجة وأجمل من الأولى بدرجتين، فإذا جئنا بزهرة أخرى وجعلناها في الوسط فستصبح الفاصلة ثلاث درجات وهكذا...

يقول العلّامة: كنت في فترة من حياتي أتدرّب على الخط فكنت ارسم الحرف «ن» ثم أقارنه إلى خط أستاذ في هذا الفن فأجد أن خطه أفضل من خطيّ، لكن كم هو أفضل منه؟ أتصوّر أنه بدرجة واحدة أو درجتين. ثمّ أكرّر كتابة هذا الحرف مئة مرة مثلاً وفي كل مرّة يكون الخطّ أفضل من سابقه، فالحرف الأخير أفضل من الأول بمئة درجة، ومع ذلك عندما أقارنه إلى خط ذلك الأستاذ أجد نفس تلك الفاصلة التي لاحظتها في أوّل الأمر. ولو كرّرت ذلك ألف مرّة لكنت أجد نفس الفاصلة.

إنه مثال جيدّ يبيّن عجز الإنسان عن الحكم وتبيين مقدار اختلاف الكيفيّات. رحمك الله أيها الأستاذ كم كان عطاؤك ثرّاً لا أستطيع بيان مقداره.

ونظير هذا يجري في مورد حسن الأعمال عندنا فنقول مثلاً إن فلاناً في أعماله أكثر إخلاصاً ولهذا تكون قيمتها أعظم. ولكن كم هن أعظم؟

نتصوّر ابتداءً أنّه إذا كان للمخلص شجرة واحدة في الجنة فإن للأكثر إخلاصاً منه شجرتين، ولكننا لو ظفرنا بمقياس دقيق لمراتب الإخلاص لأدركنا أن بين مرتبة من الإخلاص وأخرى مثل ما بين السماء والأرض، فنحن نصلّي مثلاً ونخلص فيها

ولا نرائي ولكن هذه الصلاة تختلف عن صلاة الإمام أمير المؤمنين (ع) وسائر المعصومين بحيث لو أنفقنا كل عمرنا لنقيس هذا الاختلاف لما انتهينا إلى نتيجة.

إن المسائل الكيفيّة في المحسوسات ولا سيّما في المعنويّات دقيقة وظريفة بحيث لا يمكن قياسها بهذه المعايير الكميّة.

قارنوا بين خطبة من نهج البلاغة وقصيدة لشاعر مبرّز ستجدون ان حديث نهج البلاغة أروع، لكن كم هو أروع؟ لا يمكن تعيين ذلك بدقّة، ونتصوّر أنه لا يوجد أفضل منه، إلاّ أنّنا عندما نقارن بين نهج البلاغة والقرآن الكريم نجد بينهما من التفاوت ما كان بين النهج والشعر.

كانت هذه الأمثلة لإعداد الذهن لإدراك الاختلاف الكيفي في الكمال المعنويّ وأنه لا يمكن قياسه على الكميّات ولا يمكن توضيحه بالعدد. وعندئذ ندرك كيف يمكن أن يوجد كلام يعجز الإنسان عن الارتفاع إلى مستواه من حيث الجمال والبلاغة.

وعلى كل حال فإن الجانب البلاغي وجه من أوجوه إعجاز القرآن الكريم، وشاهده أنه لم يستطع أحد على طول التاريخ أن يأتي بمثله مع وجود كلّ هذا التراث الضخم ووجود كل الدواعي على المعارضة.

ومن حسن الحظ أننا لم نكلّف بتعيين كم يكون القرآن الكريم أفضل من غيره، واكتفى الله سبحانه بالقول: إذا استطعتم فأتوا بمثله، وإلاّ لو جعل على عاتقنا أن نبيّن ونقيّم المقدار لعجزنا، فنحن نفهم فقط أن ذلك غير ممكن، فكلّما صاغ إنسان كلاماً وجده المطّلعون وذوو الخبرة أخفض منزلة من القرآن.

* * *

ومن وجوه إعجاز القرآن أيضاً عدم وجود الاختلاف فيه:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً﴾[١٤].

فلو كان الكلام صادراً من إنسان لوجد فيه الاختلاف، لأن الإنسان ـ مثل جميع الموجودات الماديّة ـ في هذا العالم في حالة تغيّر مستمر.

فتغييرات البيئة والتغيرات الحاصلة في باطنه تؤثّر في أوضاعه الروحيّة والآثار الصادرة منها. فمن جهة يكون الإنسان دائماً في حالة تكامل، يتعلّم أشياء لم يكن له بها علم من قبل فتؤثّر في كلامه. ونتيجة للتمرّس في العمل فإنّه يصبح مستعداً للقيام بعمل أفضل مما سبق فلم تضف إليه معلومات جديدة لكنه اكتسب مهارة جديدة.

ومن ناحية أُخرى فإن حالات الإنسان تتغيّر تحت تأثير العوامل الخارجيّة أحياناً والعوامل الباطنية أحياناً أُخرى، فحالات السرور والحزن والخوف والأمل و.. تؤثّر في كلامه، فالإنسان في حالة الفرح يتكلم بشكلٍ وفي حالة الحزن يتحدث بشكل آخر. إذن بما أن الإنسان موجود مادي فإنه يخضع لتأثير عوامل مختلفة فيتكامل وتزداد معلوماته وتتغير حالاته، وكل هذه تؤثر في كلامه، ولا يستطيع أن يحافظ على لون واحد من الكلام من حيث البلاغة طيلة عمره، فتارة ينخفض مستوى كلامه وأُخرى يرتفع مستواه، فالإنسان مثلاً عند الهزيمة يختلف كلامه كثيراً عنه حالة النصر.

وقد تحدّث القرآن في كل هذه المجالات، حينما كان النبي (ص) في غاية العسر، وحينما كان في ذروة النصر، وفي حالة الفقر وفي أوج الغنى، في وضع المرض وفي غاية الصحّة، وبالتالي فإنه استمر طيلة ثلاث وعشرين سنة تطرأ فيها على الإنسان حالات من التكامل وتطور المهارة، إلّا أن القرآن كان على مستوى واحد من حيث البلاغة، وصحيح أن نغمة الكلام فيه تختلف من مكان إلى آخر بما يتناسب مع المقام إلّا أنّ الكل على أرفع مستوى من البلاغة والفصاحة.

* * *

(١٤) النِّسَاء: ٨٢.

ومن وجوه إعجاز القرآن أيضاً إن حامله شخص لم يتلقّ درساً من العلماء، وكانت طريقته في الحديث لحد الآن عاديّة مثل سائر الناس، وفجأة أظهر هذا الكلام المنقطع النظير الذي لا يمكن مقارنته حتى إلى أحاديث النبي (ص) بعد البعثة وإن كانت هي بحدّ ذاتها في مستوى رفيع من حيث البلاغة والفصاحة.

﴿قُل لَّوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١٥).

لقد عشت معكم كل هذا العمر ولم تلاحظوا صدور مثل هذا الكلام منّي وبعد أربعين عاماً من عمري لاحظتم صدور كلام مني يختلف عن كلامي السابق، فلو لم يكن من الله لوجدتم مثله في كلامي، فهو إذن كلام الله جرى على لساني. ولكي يتّضح هذا الأمر للناس جيّداً فقد ربّى الله سبحانه الرسول الأكرم (ص) بحيث لم يحضر درساً ولم يتلقّ علمًا من أُستاذ، وحتى انه لم يكن يعرف الكتابة مثل سائر الناس بينما كان في مجتمعه من يعرف الكتابة والقراءة:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(١٦).

وقد ربّاه الله بهذه الصورة حتى إذا جاء بالقرآن فهم الناس إنه ليس منه وإنما هو من الله، وإلّا لو كنت متعلّمًا لشكّ الذين يتصدّون لإبطال رسالتك ويتذرّعون بأنه تعلّمه على الأُستاذ الفلاني، ولكنك أُرسلت في بيئة تعرفك أنك لم تكن من أصحاب القراءة والكتابة، وهذا يبيّن صدق دعواك النبوّة بصورة أفضل.

ومن وجوه إعجاز القرآن التي أشار إليها المفسرون والمتكلمون وهي تدخل ضمن التحدّي أنه كتاب جامع. فالإنسان يستحيل عليه أن يكون مُلِمّاً بجميع المعارف العقائدية والسياسيّة والاقتصاديّة والاخلاقيّة والعسكرية وكل ما يحتاجه الإنسان في

(١٥) يُونس: ١٦.
(١٦) العنكبوت: ٤٨.

حياته، وقد ثبت عملياً إن الإنسان إذا أراد لنفسه أن يتقدّم فلا بدّ أن ينفق كل عمره في اتجاه واحد حتى يتخصّص فيه ويُلمّ بمعظم جوانبه، وأما أن يحيط الإنسان بجميع التخصّصات وأن يتقدّم فيها أفضل من جميع الناس فهو الإعجاز وهو الدليل على انه مرتبط بالله.

ومن وجوه الإعجاز الأخرى إتيانه بمواضيع علميّة لم تكن مقبولة في ذلك الزمان من قِبل المحافل العلميّة ثم تقدّمت العلوم بعد ذلك وأثبتت صحتها.

إن نفس أن يتحدّى إنسان أُمي في بلد متخلّف جميع المحافل العلميّة في العالم بأُمور علميّة يخالفونه فيها ثم يثبت لهم تقدّم العلوم بعد ذلك صحة ما قاله وبطلان ما قالوه إن نفس هذا كافٍ لإثبات إنه كلام الله. ومن نماذج هذا الأمر موضوع الهيأة لبطليموس فقد كان العالم آنذاك مسلّمًا بصحّتها، لكنّ القرآن لا يتفق مع نظرية الأفلاك لبطليموس خلال حديثه عن السماوات. لقد كانت هذه النظرية تؤكّد على استحالة الخرق والإلتئام في الأفلاك، بينما يؤمن القرآن بإمكان ذلك بل وبتفتّت كل هذه الأفلاك في يوم ما. ولم يحصر القرآن الأفلاك في عدد معين كما فعلت هذه النظرية حيث قالت بالأفلاك التسعة.

ومن وجوه إعجاز القرآن إخباره بالغيب، وتنقسم هذه الأخبار إلى قسمين: قسم منها يتعلق بالحوادث الماضية التي لم يكن لأحد من الناس سبيل إليها:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ...﴾[١٧].

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[١٨].

والقسم الآخر يتعلّق بالأحداث التي ستقع في المستقبل، منها قوله عزَّوجلّ:

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ...﴾[١٩].

(١٧) هُود: ٤٩.

(١٨) آل عِمْرَان: ٤٤.

(١٩) الرُّوم: ٢ ـ ٤.

وقد ألحق الهزيمة بالايرانيين بعد ذلك بأقل من عشر سنين.

وقوله سبحانه:

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَاءَ ٱللهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ..﴾(٢٠).

وهي الآية التي تنبأت بفتح مكّة المكرّمة.

سائر معاجز نبيّ ألإسلام (ص):

هل للنبيّ الأكرم (ص) معجزة أُخرى غير القرآن أم لا؟

يشير القرآن الكريم إلى معجزة أُخرى من معاجزه وإلى مساعدات غيبيّة أكرم الله بها نبيّ الإسلام والأُمّة بأجمعها، وتلك المعجزة هي «شقّ القمر»:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾(٢١).

ظاهر الآية ان انشقاق القمر حصل في زمان رسول الله (ص) وانه آية إلٰهيّة لأنه تعالى يقول بعد ذلك ﴿وإن يروا آية...﴾.

وذهب البعض إلى ان الآية تتحدّث عن يوم القيامة، وشاهد ذلك قوله في صدر الآية: ﴿اقتربت الساعة﴾:

إلّا أن هذا لا ينسجم مع ظاهر الآية كما تلاحظون، لأن قوله ﴿انشق القمر﴾، يحكي أمراً قد وقع، وهو يعبّر عن يوم القيامة بـ ﴿اقتربت الساعة﴾ ولم يقل تحقّقت، بينما هو يعبّر عن هذا بقوله «انشق القمر» ولم يقل «اقترب انشقاق القمر». وصحيح أن القرآن يذكر آثاراً للقيامة تسمّيها الروايات بأشراط الساعة، وهي تُصدّر عادةً بكلمة «إذا»: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ و﴿إذا السّماء انشقّت﴾، إلّا أنه هنا يُعبّر بالفعل الماضي مجرداً عن «إذا». وعلاوة على ذلك فإن الآية اللاحقة تصلح شاهداً

(٢٠) الفتح: ٢٧.

(٢١) القمر: ١ و٢.

على أن هذا الأمر كان آية للناس وقد اعرضوا عنها ووصفوها بالسحر، فهل يستطيع أحد أن يحمل في القيامة آيات الله على السحر؟ فهناك عالم ظهور الحقائق وليس بإمكان أحد أن ينكرها، ومن هنا يتّضح أن الآية تتعلّق بعالمنا هذا.

وزعم البعض إن هذه الآية إشارة إلى حقيقة علميّة وهي انفصال القمر عن الأرض. حيث يؤكّد علم الفلك المعاصر إن الأرض انفصلت ابتداءً عن الشمس ثمّ انفصل القمر عن الأرض ولهذا فهو يدور حولها. وهذه الآية من القرآن تؤيّد هذه النظريّة العلميّة.

ويرد على هذا القول نفس الإشكال الذي أوردناه على القول السابق وهو ان هذا خلاف ظاهر الآية، لانها تذكر انشقاق القمر بعنوان كونه آية ومعجزة وليس على أساس انه أمر طبيعي تكوينيّ. وعلاوةً على هذا فإن استعمال «انشق» للتعبير عن انفصال القمر عن الأرض ليس صحيحاً، ولو أراد ذلك لعبّر مثلًا بقوله اشتقّ القمر من الأرض أو أنفصل عنها أو ما يشبهه.

وعلى كل حال فنحن لا نشكّ إن هذه الآية إشارة إلى شقّ القمر الذي تمّ على يد النبيّ الأكرم (ص)، وقد نُقلت هذه القصّة في روايات الشيعة والسنّة كثيراً، وورد في تفاصيلها إن النبيّ (ص) أشار إلى القمر في أول الليلة الرابعة عشرة من الشهر فانقسم إلى قسمين ثمّ بعد لحظات عاد القسمان والتصقا ببعضهما فرجع القمر إلى حالته الأولى.

وحتى من بين علماء أهل السنة من ادّعى التواتر في روايات شقّ القمر.

وأشكل البعض بإشكالات علميّة على هذه الحقيقة قائلين إنه لا معنى لأن تنقسم كرة سماوية، ولو حدث مثل هذا لرآه الناس وسجّله التاريخ.

وأجاب عليها علماؤنا:

أوّلاً: إنها كانت حادثة غير متوقّعة ولم يكن الناس ينظرون إلى السماء ماذا يحدث فيها حتى يلاحظوا ما وقع، نعم شاهدها من كان ينتظرها. واما بالنسبة لضبط التاريخ وملاحظة الناس، فإن الأخبار في ذلك الزمان لا تنتقل بمثل ما تنتقل به في

زماننا بفضل أجهزة المذياع والتلفاز، وبالإضافة إلى ذلك فإن مثل هذه الحادثة إذا تحققت في قطعة من الأرض فيلس معناه أنها تُلاحظ في كل مكان، لأنها تحقّقت في بداية الليل ولم يشرق القمر عندئذ في كثير من المناطق.

ومع وجود الآية الشريفة والروايات المتظافرة لا مجال لطرح مثل هذه الشبهات.

ويشير القرآن الكريم إلى كرامات وخوارق للعادة أُخرى تحقّقت على يد رسول الله (ص)، وأغلبها كان في مورد الحروب التي خاضها المسلمون ومنّ الله عليهم بدعم غيبيّ انتهى بهم إلى النصر. ومن جملتها:

التصرّف في إدراك الناس:

فالقرآن يؤكّد انّ الله في بعض الحروب قد تصرّف في إدراك المسلمين والمشركين بحيث يرون المجموعة التي أمامهم بأقل أو أكثر مما هي عليه في الواقع، فيؤدي هذا إلى تحقّق الغرض الذي يريده الله وهو نصر المؤمنين:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَارِ﴾[٢٢].

اختلف المفسرون في تعيين فاعل «يرون» ومرجع الضمير المفعول به «هم والضمير في «مثليهم»»، فقال البعض هي بمعنى إن المؤمنين كانوا يرون أنفسهم ضعف ما هم عليه في الواقع لكي يحيي الأمل بالنصر في أنفسهم. وترتبط القصّة حسب الظاهر بغزوة بدر حيث المسلمون قلّة ـ ٣١٣ شخصاً ـ فالله أراهم أنفسهم ضعف عددهم الحقيقي، وبناءً على هذا فإن الفاعل ومرجع الضميرين هم المؤمنون.

وقال البعض الآخر ان الفاعل ضمير يعود على الكفار ولكنّ الضميرين

(٢٢) آل عمران: ١٣.

الآخرين يعودان على المؤمنين، فيصبح معنى الآية هو إن الكفار كانوا يرون المؤمنين ضعف عددهم، فهو تصرّف في إدراك الكفّار.

وذهب البعض إلى ان الضمير في الفعل يعود على الكفّار وكذا الضمير في «مثليهم»، أي أن الكفار كانوا يرون المؤمنين ضعف الكفّار.

والمرحوم العلّامة الطباطبائي يؤيّد هذا الاحتمال وهو ان الكفار كانوا يرون المؤمنين ضعف عددهم الحقيقي.

وعلى كل حال فإن الله قد تصرّف في إدراك الناس:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾[٢٣].

ويظهر هنا إشكالان أحدهما: ما تأثير هذا الشيء؟ ونقول في الجواب لو كان أحد الطرفين يرى الآخر أكثر منه عدداً لأدّى ذلك إلى غلبته عليه، وأما إذا رأى كل منهما الآخر أقّل مما هو عليه فإن ذلك الأثر لا يترتب عندئذ بسبب التأثير النفسيّ.

الإشكال الآخر: كيف يمكن الجمع بين هذه الآية وتلك الآية السابقة التي تمنّ على المؤمنين برؤية الكفّار لهم بضعف عددهم بينما في هذه الآية يقول يقلّلكم في أعينهم، فأيّهما المؤثر؟

والجمع بينهما هو أن نقول إن لتقليل المؤمنين في أعين الكفار حكمة ولتقليل الكفار في أعين المؤمنين حكمة أُخرى، ولرؤية الكفار المؤمنين ضعف ما هم عليه حكمة ثالثة، ولم تكن هذه جميعاً في لحظة واحدة، ففي مرّة رأى الكفّار المؤمنين أقلّ مما هم عليه وفي مرّة أُخرى رأوهم أكثر من واقعهم.

وأما الجواب على الإشكال الأول القائل كيف يكون التقليل مؤدّياً إلى نصر المؤمنين فهو ان المؤمنين لو [illegible] الكفار منذ البدء على حقيقتهم وكثرتهم لأدّى ذلك إلى بعث الخوف في أنفسهم فلا [illegible]أون على قتالهم فقلّل الله الكفار في أعين المؤمنين حتى لا يخافوهم.

(٢٣) الأنفال: ٤٤.

وأما حكمة تقليل المؤمنين في أعين الكفّار فهي لو أنهم رأوا المؤمنين كثيراً منذ البدء لما دخلوا في حرب معهم وبالتالي لما تحقّق هذا النصر للمؤمنين، فالله قلّل المؤمنين في أعينهم حتى يحتقروا عددهم فيدخلوا الحرب معهم وعندئذ يرونهم ضعف عددهم الحقيقي حينما لا يكون مجال للفرار فيؤدّي ذلك إلى الرعب منهم والإنهزام أمامهم.

إذن كل المواقف الثلاثة صحيحة في مكانها وكلها نعم الله على المؤمنين، وفي تلك الآية يذكر سبحانه أنه قد صوّر الكفار للنبيّ (ص) في منامه قليلاً، ثم يقول تعالى: ﴿ولو أراكهم كثيراً لفشلتم﴾ لأن النبيّ (ص) حينئذ سينقل رؤياه للمؤمنين فيشعرون بالضعف ازاءهم ويؤدّي ذلك إلى هزيمتهم.

فهذا تصرّف إلٰهيّ في إدراك المؤمنين والكافرين لصالح المؤمنين.

«إلقاء الرعب» و«نزول السكينة»:

وهو أمر آخر من خوارق العادة فعله الله لصالح المسلمين ومن أجل تحقيق النصر لهم فألقى الرعب في قلوب الأعداء في عدّة موارد، وقد وصف النبي (ص) في الروايات بأنه المنصور بالرعب:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ﴾[٢٤].

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾[٢٥].

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[٢٦].

وفي مقابل هذا أوجد السكينة في قلوب المؤمنين:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٧].

﴿فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾[٢٨].

(٢٤) آل عمران: ١٥١.

(٢٥) الأنفال: ١٢.

(٢٦) الأحزاب: ٢٦. الحشر: ٢.

(٢٧) التوبة: ٢٦.

(٢٨) التوبة: ٤٠.

وقد نزلت هذه الآية في هجرة النبي (ص) من مكة إلى المدينة واختفائه في الغار.

﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِم﴾[٢٩].

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[٣٠].

﴿فَأَنزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣١].

وفي أغلب هذه الموارد يبيّن الله سبحانه بعد موضوع إنزال السكينة ملاحظة أُخرى وهي أن الله ينزل من السماء جنوداً لإعانة المؤمنين وهم لا يرونهم:

﴿وَأَنزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾[٣٢].

﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[٣٣].

وتذكر بعض الآيات الريح بالإضافة إلى الجنود:

﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾[٣٤].

فما هي هذه الجنود المنزلة من الله؟

لعلّها الملائكة، وقد صرّح الله بها في بعض الآيات.

ويقول عزَّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣٥].

فكيف يصف الله المؤمنين هنا بالذلّة بينما يقول في آية أُخرى:

﴿وَللهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣٦].

(٢٩) الفتْح: ٤.
(٣٠) الفتْح: ١٨.
(٣١) الفتْح: ٢٦.
(٣٢) التّوبة: ٢٦.
(٣٣) التّوبة: ٤٠.
(٣٤) الأحزاب: ٩.
(٣٥) آل عمْرَان: ١٢٣
(٣٦) المنافقون: ٨.

والجواب هو أن هذا الذل أما بحسب ظاهر حال المؤمنين في مقابل الكفّار حيث كانوا أقلّ منهم عدداً وأضعف منهم عدّة فلم يكن المؤمنون يملكون سوى ستة دروع وعدد قليل من السيوف بينما كان الكفار مدجّجين بالسلاح، وأما بحسب أن الإنسان في حدّ ذاته ذليل، والله هو الذي يمنحه العزة لأن العزة لله جميعاً، وهذا يشبه خطابه سبحانه للنبي (ص):

﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾[٣٧].

بمعنى أن كل موجود فهو لا يتمتّع بالعزّة من عند نفسه فالله هو الذي أعزّكم. ثمّ يقول تعالى:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُم رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾[٣٨].

فقد كان المؤمنون يحسّون الضعف في أنفسهم وأحياناً يظهرونه بألسنتهم، وانت أيها النبي كنت تطمئنهم بإنزل الملائكة لنصرتهم بعدد يفوق عدد الأعداء بثلاثة أضعاف، ثم يؤكّد سبحانه على أنكم إن احتجتم فسوف ينزل عليكم أكثر من ذلك:

﴿بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[٣٩].

ففي هذه الآية الشريفة وعدٌ للمؤمنين بهذا الدعم بشرط الصبر والتقوى، لكن هل أرسل الله إليهم ذلك؟

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[٤٠].

ونواجه عندئذ هذا السؤال: في تلك الآية وُعد النبي (ص) بثلاثة آلاف ملك

(٣٧) الضّحى: ٧.

(٣٨) آل عِمْرَان: ١٢٤.

(٣٩) آل عِمْرَان: ١٢٥.

(٤٠) الأنفال: ٩.

ثمّ مع الصبر والتقوى بخمسة آلاف فكيف يقول هنا أرسلنا ألف ملك لإمدادكم؟

والجـواب عليه هو أن هذا الألف كان مقـدمـة فحسب، وشاهد ذلك قوله «مردفين»، وهي تستعمل فيما إذا تقدم أحد وهو يستتبع آخر وراءه، فهذا الألف يستتبع وراءه ألفين، فالمجموع ثلاثة آلاف، غاية الأمر أنّ هذا الألف كان مقدّمتهم.

ماذا فعل هؤلاء الملائكة؟

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ إِنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[٤١].

وما هو دورهم في غزوة بدر؟

إن معظم القتلى قد تمّ قتلهم بيد أمير المؤمنين (ع) وبعض الأصحاب رضوان الله عليهم، وكانت مهمّة الملائكة هي تقوية معنويات المؤمنين وإيجاد الصمود والثبات في قلوبهم، ثم يقول عزّ وجلّ:

﴿... فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٤٢].

اختلف المفسرون في تعيين المخاطبين بهاتين الجملتين أهم الملائكة أم المؤمنون؟

قال البعض إنه خطاب للمؤمنين بشنّ الحرب. ولا ينسجم هذا مع الروايات ولا مع ظاهر الجملة السابقة من الآية.

وقـال آخـرون إنه خطاب للملائكة، لكنه لا يقصد منه قطع الرأس واليد والرجل وإنما المقصود منه تضعيفهم، فالملائكة يقوّون المؤمنين ويُضعفون الكافرين.

وذهب البعض إلى أن هذه الجملة الأخـيرة تخاطب المؤمنين، أي لما أرسلنا الملائكة لمساعدتكم فاثبتوا وحطّموا أعداءكم.

هذه ثلاثة وجوه أولاها عندنا ثانيها.

استعرضنا لحد الآن الآيات الدالّة على التأييد الغيبيّ الإلهي للمؤمنين ويتعلّق أغلبها بالحرب، وأمّا الروايات المنقولة عن طريق الشيعة أو السنّة في مورد كرامات النبي (ص) فهي كثيرة، لكنّنا لا نتناولها بالبحث لأن دراستنا هذه قرآنية. ونكتفي

٤١) و(٤٢) الأنفال:١٢.

بالإشارة إلى أن بعضها متواتر وبعضها مستفيض، وهي تنقل معاجز للنبيّ يصعب عدّها، فقد تجري على يديه في يوم واحد عدّة أفعال خارقة للعادة، بعضها باقتراح من الكفار وبعضها ليس باقتراح منهم ولا لإظهار نبوّته (ص)، فمثلاً تنقل الروايات إنه (ص) كان في الصحراء ومرّ بخيمة فوجد شاة ومسح عليها فدرّ لبنها وازداد وزنها، أو مسح على مريض فعافاه الله، وغيرها كثير. وكان بعض الكفار يتحدّاه بأن يفعل كذا لو كان نبيّاً، فاقترحوا عليهم مثلاً أن تتقدّم شجرة منه في الصحراء وتشهد بنبوته فأشار إليها (ص) فشهدت بما أرادوا. أو يطلبو ن منه أن تتكلم الحصاة في يده فتناولها (ص) فارتفع منها صوت التسبيح، وأشياء كثيرة من هذا القبيل مذكورة في روايات بحار الأنوار ومدينة المعاجز.

عصمة الأنبياء

عرفنا لحدّ الآن إن الحكمة الإلٓهية تقتضي أن يختار الله سبحانه أفراداً من الإنسان ليفهمهم بواسطة هؤلاء أهدافه والسبل المؤدّية إليها، ولا بدّ أن يكون هؤلاء متميزين بأمور تبيّن نبوّتهم ورسالتهم.

ونواجه حينئذ هذا السؤال وهو: إذا بعث الله نبيّاً وأوحى إليه ما يريد أن يوصله إلى عباده فكيف نطمئن إلى أنه قد أبلغ العباد بدقّة ما أوحى به الله إليه؟

أي أن الرسالة التي تنزل من الله لعباده تمرّ بمراحل حتى تصل إليهم، وقد يحدث الخطأ في هذه المراحل، فنحتمل. مثلًا أن يكون الواسطة في الوحي قد أبلغ النبي بشكل يختلف عما أبلغه الله به، أو أن النبي قد أخطأ في تلقّيه الوحي، أو أنه يشتبه عند إبلاغ الرسالة للناس، ومن المحتمل أن يقوم ـ والعياذ بالله ـ بتغيير مضمون الوحي متعمّداً.

فما لم نطمئن إلى أن الخطأ لا يتسلّل إلى هذه المراحل فإن الحجّة لاتتمّ على الناس.

وعلى أساس نفس البرهان القائل إن الحكمة الإلٓهية تقتضي أن يعرف الناس طريق السعادة وطريق الشقاء ويدركوا الأهداف الإلٓهية نقول إن هذا كافٍ لإثبات عدم وقوع الخطأ في هذه المراحل. فإذا عرفنا أن الحكمة الإلٓهية تقتضي تعليم الناس المقاصد الإلٓهية فإنه يلزم من هذا أن لا يقع خطأ في تلك المراحل وإلّا إذا وقع في احدها الخطأ فإنه يلزم منه نقض غرضه سبحانه وعدم تحقق الأهداف الإلهيّة فلا بدّ من وصول المقاصد الإلٓهية للناس كما هي، ولا بدّ أن لا ترتكب أيّة واسطة بين هذين خطأً أو عصياناً.

وبناءً على هذا فالملائكة الذين هم واسطة في الوحي لا بدّ أن لا يخطئوا في تلقّي الوحي ولا في إبلاغه، وكذا الأنبياء لا بدّ أن يستلموا الوحي بدقة وأن يوصلوه إلى الناس بصورة مصونة عن الخطأ، فالوحي منذ صدوره وحتى إبلاغه للناس مصون عن الخطأ والاشتباه، فالملائكة والأنبياء معصومون في تلقي الوحي وإبلاغه.

هذه درجة من العصمة، وهناك درجة أُخرى منها وهي أن الأنبياء يجب أن لا يعصوا الله خلال العمل أي أن لا يعلموا خلاف ما يوحى إليهم بل يجب أن يعملوا حسب ما أوحي إليهم، وتوجد درجة أرفع من هذه وهي أنهم لا بدّ من كونهم معصومين عن الذنوب حتى قبل نبوتهم، ولا يكفي هذا بل يجب أن لا يصدر منهم الخطأ والاشتباه والسهو والنسيان حتّى في الأُمور العاديّة ممّا لا يرتبط بوظائف النبوة والرسالة.

وهذه المراتب لا يتكفل بإثباتها ذلك البرهان ولا بدّ من اللجوء إلى الآيات والروايات أو إلى برهان آخر أحياناً.

فالمسألة الأُولى ـ وهي عصمة الأنبياء في تلقي الوحي وإبلاغه بحيث لا يحدث الخطأ في ذلك ولا يصدر منهم عصيان له أي أنهم لا يعملون شيئاً خلاف ما يوحى اليهم ـ تثبتها آيات عديدة علاوة على البرهان العقلي.

ومن الواضح أن الشخص الذي لم تثبت لديه نبوّة النبي ولم يؤمن بنزول الكتاب من قِبل الله لا يمكن أن يُستدل له بمحتوى الكتاب لانه شاك عندئذ بالنبي والكتاب، فيتعيّن أن نقيم لهذا دليلاً عقلياً. وأما إذا اثبتنا أن هذا الكتاب معجز وهو من قِبل الله فإن محتواه حينئذ يكون حجّة.

هناك آيات في القرآن الكريم تتعلّق بعصمة الملائكة من ارتكاب الخطأ والاشتباه في إبلاغ الرسالة الإلّهية، وكذا بعصمة الأنبياء من الخطأ والاشتباه في إبلاغ الوحي وهم مصونون أيضاً عن ارتكاب العصيان عمداً. ومن جملة الآيات المتعلّقة بالملائكة قوله تعالى:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(١).

فلا في مجال القول يتقدمون على الله ولا في مجال العمل يعصون الله سبحانه:

﴿لَا يَعْصُونَ ٱللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٢).

ويؤكّد القرآن بالخصوص على جبرئيل الذي هو واسطة الوحي القرآني فهو يوصل إلى النبي (ص) ما أوحي إليه بدقة، وهذا يثبت عصمة جبرئيل في تلقي الوحي وإبلاغه. والسبب في التأكيد على جبرئيل بالذات هو ما يشعر به بنو إسرائيل من حساسيّة ضد هذا الملك المقرّب، فهم يعتقدون أن بعض ألوان العذاب الذي نزل عليهم كان على يد هذا الرسول الأمين، فكان هؤلاء التعساء يكرهونه متخيّلين أن هذه الأفعال يتبرّع بها من عند نفسه ولهذا جاءوا إلى النبي الأكرم (ص) يسألونه عن الملك الذي ينزل عليه من هو؟ فإن كان جبرئيل فإننا لا نسلّم برسالتك لأنه عدوّنا فنزلت هذه الآية الشريفة:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللهِ﴾(٣).

فجبرئيل ليس له شيء من ذاته وكل شيء يصدر منه بأمر الله، فهذه الآية تثبت أنَّ ما أوحاه جبرئيل إلى النبي (ص) كان هو بنفسه ما أوحاه الله إليه ولم يتصرف فيه جبرئيل اطلاقاً:

﴿إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(٤).

فالضمير في «إنه» يعود على القرآن، ويقصد بالرسول هنا جبرئيل، وقد أُطلق «الرسول» في آيات أُخرى على الملائكة، منها:

﴿ٱللهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً﴾(٥).

(١) الأنبياء: ٢٧ و ٢٨.

(٢) التّحريم: ٦.

(٣) البَقَرَة: ٩٧.

(٤) التكوير: ١٩ ـ ٢١.

(٥) الحجّ: ٧٥.

إذن هذا القرآن قول جبرئيل وهو قوي يحفظه من تصرّف الشياطين وأمين لا يخون الوحي. وبطبيعة الحال فنحن لا نعرف كيف يستلم جبرئيل الوحي وكيف يوصله إلى النبي لكننا نقول من باب تشبيه المعقول بالمحسوس لو فرضنا أن شخصاً يحمل رسالة إلى شخص آخر فمن المحتمل أن يهاجم في الطريق ويتصرّف المهاجم في تلك الرسالة، أو يحتال عليه أحد فيضمّ إليها شيئاً ليس منها، فالقرآن يؤكد أن جبرئيل قوي وأمين لا يستطيع أحد من المخلوقات أن يتغلب عليه أو يحتال عليه ليتصرف في رسالته، فلا هو ولا غيره يستطيع أن يغيّر من القرآن شيئاً:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إلا بِأمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيدِينَا وَمَا خَلفَنَا وَمَا بَينَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾[٦].

وأما الأنبياء فهل هم يخطئون في تلقّي الوحي؟

فالناس العاديّون قد يحدث لهم أن لا يستوعبوا جيداً ما يقال لهم فيفهمون خطأ، فهل يمكن أن يفهم الأنبياء الوحي الخطأ من الملائكة أم لا؟

وإذا فرضنا أنهم استوعبوا الوحي من الملائكة بدقة فهل يطرأ عليهم الخطأ حين إبلاغه للناس أم لا؟

وإذا كان الجواب بالسلب فما دليل ذلك؟

بغضّ النظر عن الدليل العقلي الذي ذكرناه فإن لدينا آيات تضمن عدم وقوع الأنبياء في الخطأ أثناء تلقي الوحي وخلال إبلاغه للناس:

﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مِنِ ٱرْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾[٧].

فهو تعالى يحرس الرسول من أن يخلّ أحد برسالته حتى يبلغوها للناس كما

(٦) مريم: ٦٤.

(٧) الجنّ: ٢٦ ـ ٢٨.

هي. فيستفاد من هذه الآية الشريفة أن الرسل الإلهيين معصومون عن الخطأ في تلقي الوحي وفي إبلاغه، وإلّا فإنه لا يتحقق قوله تعالى: ﴿ليعلم أن قد أبلغوا...﴾، فحتى تصل الرسالة الإلهية بدقة إلى الناس لا مجال لأي خطأ. فمضمون هذه الآية هو نفس مفاد ذلك البرهان العقلي المتقدم، أيّ إذا لم يكن كذلك فانه نقض للغرض ومخالفة للحكمة الإلّهية، والله قادر وينفذ هنا قدرته.

والآن وبعد أن اثبتنا عصمة الأنبياء عن الخطأ في مجال تلقّي الوحي وفي مجال إبلاغه للناس نتساءل:

هل من الممكن أن يضيفوا إليه شيئاً؟ أي بعد أن يوصلوا للناس ما أراده الله بدقّة هل يمكن أن يضمّوا إليه شيئاً لم يوح إليهم؟

توجد آيات تدل على أن الله سبحانه يصطفي لرسالاته أشخاصاً لا يفعلون هذا الأمر، وإلّا إذا اختار من ليس معصوماً ويحتمل أن يضيف إلى الرسالة شيئاً من نفسه فإنه يصبح نقضاً للغرض الإلهي ولا يميّز الناس بين ما هو موحى إليه وما هو من عند نفسه.

يقول عزّ وجلّ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللهِ﴾[8].

فالنـاس مأمورون أن يطيعوا رسولهم مطلقاً في كل ما يأمرهم به، فلو كان الرسول يضيف شيئاً من نفسه لما وجبت طاعته فيه، بينما الأمر بطاعته مطلقاً ، إذن يعلم من هذا إنّ ما يبيّنه هو مورد رضى الله سبحانه وتصديقه، فالله لا يختار رسولاً يبيّن للناس خلاف مقصوده.

وهنـاك آية تتعلق بعيسى (ع) حيث كان النصارى يعتقدون إن عيسى بن مريم (ع) يدعي إنه ابن الله ويدعو الناس لعبادته، والآية تقول ليس الواقع كذلك:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللهُ يَا عِيسَـى ٱبْـنَ مَرْيَمَ ءَأَنـتَ قُلْتَ لِلنَّـاسِ ٱتَّخِـذُونِي

(٨) النِّساء: ٦٤.

وَأُمِّــي إِلَهَــيْنِ مِن دُونِ ٱللهِ قَالَ سُبْـحَـانَــكَ مَا يَكُــونُ لِي أَنْ أَقُــولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُــهُ فَقَــدْ عَلِمْتَــهُ... مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَــرْتَنِي بِه﴾(٩).

فالله لا يختار شخصاً يحتمل التزوير منه، لأنه سبحانه أما أن يكون عندئذ جاهلًا بكونه سيفعل هذا وأما أن يكون عاجزاً عن الحيلولة دون هذا الفعل، وهو تعالى لا جاهل ولا عاجز:

﴿وَمَـا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللهُ ٱلكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِي مِن دُونِ ٱللهِ﴾(١٠).

إن الله يرسل الأنبياء للناس لكي يهدوهم إلى التوحيد، والله لا يختار شخصاً يدعوهم إلى الشرك وهو يصوّر لهم أنه قول الله حتّى يقبلوه. والله ينقل عن المشركين أنهم ينسبون الافتراء على الله للنبي وينفي عنه هذا. ونلاحظ اليوم بعض العلماء والمؤرّخين الذين يعترفون بأن الإسلام دين تقدمّي لكنهم يقولون إن مقنّن الإسلام نسب أقواله لله حتى يقبلها الناس، ويناسب هذا القول منكري نبوّته، ويؤكد الله سبحانه:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱليَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنهُ ٱلوَتِينَ * فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾(١١).

فاليمين علامة على القدرة، أي لأخذناه بقوّة وقطعنا حياته ولا يستطيع أحد أن يقف أمامنا.

عصمة الأنبياء في مقام العمل:

لقد أوصلنا البرهان العقلّي إلى أن الرسالة الإلهيّة لا بدّ أن تبلّغ للناس بدقّة،

(٩) المائدة: ١١٦ ـ ١١٧.

(١٠) آل عمران: ٧٩.

(١١) الحاقّة: ٤٤ ـ ٤٧.

إلّا أن هذا البرهان لا يثبت أن المرسلين لا بدّ أن يعملوا بمحتوى رسالتهم أيضاً.

وقد ذكر بعض المتكلمين وجوهاً يمكن أن تثبت عصمتهم في مقام العمل عن طريق العقل، من جملتها قولهم: إن العمل ـ مثل القول ـ يدل على الجواز، فلو ارتكب النبي ـ والعياذ بالله ـ معصية، فإن الناس يعتبرون هذا دليلًا على جواز تلك المعصية، فيصبح هذا نقضاً للغرض الإلهي، لأنه تعالى أرسل الرسل لكي يفهموا الناس ما يريد منهم أن يفعلوه وما يريد منهم أن ينتهوا عنه، بينما فعل الرسول هذا غرّر بهم.

إلّا انّ هذا البرهان ليس متقناً، لأنه قد يوصل النبيّ الرسالة بدقة إلى الناس وينبّههم إلى اني مثلكم قد أعصي الله، وهـذا الفعل قد صدر مني عصياناً، وليس هذامستحيلًا من الناحية العقليّة.

وهنـاك أدّلـة كافية من الكتـاب والسنة لإثبات عصمة الأنبياء حتى قبل الرسالة، لكنّي اعتقد أنه لا يوجد برهان عقلّي على ضرورة تلك العصمة، ولو كان موجوداً فإني لم أُحط به علمًا. وأقصى ما يمكن إثباته عن طريق العقل هو عصمة الأنبياء في تلقّي الـوحي وإبلاغه، وما سوى ذلك فهو فضل من الله حيث عصم الأنبياء من الخطأ في مجال العمل حتى يثق الناس بهم أكثر ويعدّونهم أُسوة لهم في سلوكهم، وإلّا فإنه لا يوجد برهان عقلي على ذلك. نعم تدل عليه آيات وروايات عديدة.

وقد اختلف المسلمون في هذه المسألة من عدّة جهات، فهم مجمعون تقريباً على عصمة الأنبياء بعد النبوّة، وأمّا قبلها فقد ذهب البعض إلى أنهم يعصون، وقال البعض أنهم قد يفعلون شيئاً سوف يحرّم في دينهم والآن لم يُحرّم بعد. وذهب البعض إلى عصمتهم من الكبائر دون الصغائر، وذكروا لهذا بعض الوجوه العقليّة، منها:

إن هذا الشخص لو ارتكب معصية لأدّى هذا إلى وهن شخصيته في عيون الناس فلا يثقون به فلا بدّ أن يكون مصوناً عن الأفعال القبيحة حتى يظفر بثقة الناس.

والـظاهر أن هذا الوجه ظنّي وليس يقينيّاً، لأنه إذا فرضنا أن شخصاً جاء

بكتاب من الله لهداية الناس وأتمّ الحجّة عليهم وأبلغهم به فإن العقل لا يرى ضرورة عدم مخالفته، أجل أن عدم مخالفته راجح وحسن لكنه ليس ضرورياً.

وعلى كل حال فإن الشيعة يعتقدون بعصمة الأنبياء منذ بدء ولادتهم وإلى وفاتهم عن جميع الذنوب الصغيرة والكبيرة، وإنّ أيّ نبيّ منذ آدم (ع) وإلى خاتم النبيّين(ص) لم يرتكب أيّ ذنب في حياته.

وتختلف طوائف أهل السنة في هذا المجال، ولعلّنا نشير فيما بعد إلى بعض شبهاتهم في هذا المضمار.

فهل هناك في القرآن ما يدل على عصمة الأنبياء في مقام العمل؟

يبدو من بعض الآيات الكريمة أن بين الناس من يمكن وصفهم بأنهم عباد مخلصون لم يطمع الشيطان في إضلالهم مع أنه قد جرّد نفسه لإضلال البشرية منذ بداية خلقها حيث طُرد من قرب الله فصدر منه هذا القسم:

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[١٢].

فهؤلاء المخلَصون كانوا بشكلٍ حتى إبليس يعلم أنه لا يستطيع اغواءهم. فما هي خصائص هؤلاء؟

يمكننا أن نستفيد من هذا التعبير «المخلَص» أنهم أُناس اختصّهم الله بفضله فجعلهم خالصين. وهذا يختلف عن «المخلِص» وهو الذي يؤدّي عمله بإخلاص فهو مخلِص في عمله، بينما أولئك مخلَصون هم لا أعمالهم، أيّ أن وجودهم بأكمله قد غدا خالصاً لله ولا حظّ فيه للشيطان، وهو ينطبق تقريباً على معنى المعصوم، فالمعصوم هو من حفظه الله من ارتكاب الذنوب (ولا يتنافى هذا مع اختيارهم لأن الله يعلم أنّ هؤلاء لا يذنبون باختيارهم) ولا يوجد في القرآن لفظ المعصوم وإنما يوجد فيه هذا التعبير «المخلَص»، وهو الذي لا يطمع الشيطان أيضاً في إغوائه، ويذكر القرآن أسماء عدد

(١٢) ص: ٨٤ و ٨٥.

من الأنبياء ويصفهم بوصف «المخلَصين»، وقد صرّح سبحانه في بعض الموارد بأن الله أبعدَ هؤلاء عن الأفعال القبيحة وصانهم عن كل انحراف فبالنسبة إلى يوسف (ع) يقول عزَّ وجلّ بعد بيان مسألة تعلّق امرأة العزيز بيوسف حتى هيّأت غرفة محفوظة من كل جانب ووفّرت فيها وسائل الإغراء ثمّ احتالت على يوسف وأدخلته إليها وغلّقت الأبواب بحيث لا يطّلع أحد على ما يجري في داخلها، وكانت جدران الغرفة مرصوفة بالمرايا بحيث أينما ينظر يوسف فإن عينيه تقعان على زليخا، وفي مثل هذا الجو المتوتّر يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوءَ وَٱلْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(١٣).

في مثل هذا الموقف تتفجّر الرغبة في نفس الإنسان العاديّ ولا يمكنه غالباً السيطرة على نفسه، واقتربت منه وكاد يوسف أن يميل إليها إلاّ أن الله أراه برهانه فحفظه من الوقوع في المصيدة.

ما هو هذا البرهان؟ ذكرت بعض الروايات أُموراً لكنها ليست صحيحة من حيث السند، والقرآن لا يشرحه، وعلى الأجمال فهو أمر غيبي كشف ليوسف، ويسمى الشيء برهاناً إذا كان يفيد الإنسان علمًا، فقد رأى يوسف شيئاً حال دون غفلته، ونحن لا نفهم هذا الشيء لأن القرآن لم يوضّحه، فلم يتورّط في الذنب، لماذا؟ ﴿إنه من عبادنا المخلَصين﴾.

ويقول سبحانه بالنسبة للنبي الأكرم (ص):

﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَاةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾(١٤).

هناك مجموعة كانت تحاول صرف النبي (ص) عن القيام بمهمته، فكان

(١٣) يُوسُف: ٢٤.

(١٤) الإسْرَاء: ٧٤ و٧٥.

البعض مثلاً ـ وحتى من الأصدقاء ـ يقومون ببعض الشفاعات والوساطات في غير محلّها، فيسرق الشخص وتنهض قبيلته لتحول دون إجراء الحدّ عليه ويسلّطون الضغوط المختلفة بحيث يستجيب لها أيّ إنسان عاديّ لكن الله سبحانه لم يترك النبيّ في مثل هذه المواقف يستجيب لهم وإنّما كان يؤيده للقيام بالواجب على أفضل وجه، ومن هذه الموارد ما تشير إليه هذه الآية الكريمة، ويستفاد منها ان النبي (ص) مثل سائر عباد الله المخلَصين عندما يدنو إلى الخطأ نتيجة للعوامل الخارجية فإن الله كان يمدّه عن طريق الغيب ويحفظه من الزلل وهذا هو معنى العصمة.

فهل هذا يعني الجبر أم لا يزال المخلَص محتفظاً باختياره؟

هناك أدلّة كثيرة تفيد أن النبيّ ـ مثل سائر الناس ـ مكلّف بالأوامر والنواهي الإلهيّة، وتترتب على أعماله النتائج من ثواب وعقاب وهو ليس مجبراً في تركه المعاصي، غاية الأمر أن الله خلقه وزوّده بعلوم وإرادة قوية بحيث لا يصدر منه الفعل القبيح باختياره، فالله منحه استعداداً ويعلم أنه سوف يطيعه بإرادته، ومنحة الله ليست عشوائية وإنما هي تتمّ حسب ضوابط معيّنة فكلما تقدم الإنسان في طريق الخير فإن العون الإلهيّ يرفده، والنبي يبذل كل ما في وسعه في سبيل عبادة الله فإذا احتاج إلى عون الله فإن الله سبحانه يسعفه، ولا يُشمّ من هذا رائحة الجبر، فصحيح أن الله قد جعل يوسف (ع) يرى برهانه في تلك اللحظة الحاسمة إلّا أن يوسف قد أنفق عمراً في سبيل الاستعداد، فالدعم الغيبي للأنبياء نتيجة لأعمالهم الطيّبة، ولا يستلزم هذا أيّ إجبار، ونضرب مثالاً لتقريب الموضوع إلى الذهن: فهناك أمور قبيحة لا نفعلها جميعاً ولا نفكّر في التورّط بها مثل بعض المأكولات الرديئة ومع ذلك فنحن لسنا مجبرين. وكذا الأنبياء فإنهم نتيجة للعبادة والجهاد المستمرّين يمنحهم الله علماً يرون به الذنوب بقبحها الحقيقي ويزوّدهم بإرادة صلبة بحيث تمنعهم من ارتكابها، فهم معصومون عن الذنوب باختيارهم.

لقد مرّ علينا أن الشيعة يعتقدون بعصمة الأنبياء (ع) جميعاً منذ الولادة وحتى الوفاة من العصيان والخطأ في مجال تلقّي الوحي وإبلاغه وفي المجال العلمي. إلّا أن

هناك أقوالاً عند أهل السنة في هذا المضمار حيث أنكر البعض عصمتهم في بعض الجهات فجوّزوا عليهم مثلاً ارتكاب الصغائر مدّعين أنهم استفادوا أقوالهم من آيات القرآن الكريم، وإن هذا الكتاب العزيز ينسب إليهم العصيان، وقد وردت هذه الشبهات في رواياتنا وقد أجاب أئمة أهل البيت (ع) عنها.

ونشير هنا إلى بعض الآيات التي حاول هؤلاء أن يستنبطوا منها عدم عصمة الأنبياء، ومن جملتها ما ورد في حقّ آدم (ع) حيث نُهي عن تناول الشجرة فوسوس له الشيطان وأكل منها فأُخرج من الجنّة:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[١٥].

وفي آية أُخرى:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[١٦].

وقد وردت بالنسبة لسائر الأنبياء أيضاً كلمات توهم هذا المعنى. ونلفت الإنتباه في البداية إلى أن العصيان والإستغفار والتوبة لا تلازم دائماً عدم العصمة بالمعنى الذي نعتقده، فالعصمة كما نؤمن بها هي عدم ارتكاب المحرّمات الشرعيّة، وأما إذا كان النهي عنها تنزيهيّاً أو إرشاديّاً فإن عصيانه لا يتنافى مع العصمة. وفي هذه الآية الكريمة نسب العصيان والتوبة لآدم (ع)، ويجيب الشيعة بأن هذا النهي لم يكن تحريميّاً. فهناك نهي صادر من الله تعالى لعباده عن ارتكاب فعل لأنه يؤدي إلى العذاب والشقاء في الآخرة والبعد عنه تعالى. ويوجد نهي لا تترتب عليه هذه النتائج وإنما له عواقب غير مرغوبة في الدنيا. والشاهد على أن هذا النهي المتّجه إلى آدم عن الأكل من الشجرة لم يكن تحريميّاً ولا تكليفيّاً هو تعليل الله سبحانه لنهيه بقوله:

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[١٧].

(١٥) طه: ١٢١ و١٢٢.

(١٦) البَقَرَة: ٣٧.

(١٧) طه: ١١٧ ـ ١١٩.

فعصيان هذا النهي لا يؤدي إلى العذاب الأخروي وإنما هو يحرمه من رفاه الجنة وسعادتها.

وهناك ملاحظات حول ذلك العالم الذي خوطب فيه آدم هل كان فيه تكليف أم أن التكليف مختصّ بهذا العالم الأرضيّ.

﴿قُلْنَا اهبِطُواْ مِنهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأتِيَنَّكُم مِنِيّ هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١٨].

ولم يكن هناك تكليف قبل ذلك، وهذه الأوامر والنواهي عندئذ كانت تحكي عن أمور تكوينيّة أو هي إرشاد لحكم العقل، إرشاد للمشقّات المترتبة على مخالفة هذا النهي. إن أقوال علماء الشيعة مختلفة في هذا المضمار فقد قال البعض إن ذلك العالم لم يكن فيه تكليف، وذهب البعض الآخر إلى أنه لم يكن تكليفاً تحريميّاً وإنما هو تكليف تنزيهي، وعبّروا عن عصيان آدم (ع) بأنه كان تركاً للأولى، بمعنى أنه قد تعلق تكليف تنزيهي بترك التناول من الشجرة فعصى آدم هذا التكليف التنزيهي، ولكن البعض كما ذكرنا يصرّ على أنه لم يكن عالم تكليف. وعلى كل حال فإن جوابنا على الشبهة هو أن هذا العصيان ليس صريحاً في كونه عصياناً لتكليف تحريمي، وشاهده تعليله بأنك إن ارتكبت هذا الفعل فسوف تسبب لنفسك عناء وتحرم نفسك من هذه الراحة.

فالعصمة ثابتة لهم بالأدلة المعروفة، وهذه الآية لا تتنافى معها.

وهنـاك شبهة تتعلّق بإبراهيم (ع) وهي إنه بعد أن ناقش قومه في موضوع عبادة الشمس والقمر والنجوم أراد أن يشنّ هجوماً ضدّ عبادة الأصنام وكان يبحث عن فرصة يغتنمها للقيام بنهضة توحيديّة، والتفت إلى أن أهل بلدته يخرجون منها لأداء مراسم خاصّة، وهيّأ نفسه للقيام بالمهمّة أثناء غيابهم عن البلد، وعندما استعدّوا للخروج عرضوا على إبراهيم (ع) أن يصحبهم لأنه كان يعيش في عائلة يتزعّمها شخص ينحت الأصنام وهو «آزر»، وكان من عادتهم أن يستصحبوا معهم جميع أفراد

(١٨) البَقَرَة: ٣٨.

العائلة، فلكي يتخلّف عنهم وينهض بمهمّته تمارض:

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[١٩].

قال البعض إن إبراهيم (ع) تحدّث بما هو خلاف الواقع لأنه قال إني سقيم بينما هو لم يكن مريضاً، إذن يُعرف من هذا إن النبي قد يكذب قبل نبّوته، إلّا أنّ ذلك لا يصدر منه بعد نبوّته، أو أنه من الذنوب الصغيرة التي لا مانع من أن يرتكبها الأنبياء.

ومثل هذا قيل بالنسبة ليوسف (ع) عندما جاءه إخوته ليشتروا بعض الأطعمة لأهليهم، وفي المرّة الثانية جعل السقاية في رحل أخيه وذلك ليستطيع بهذه الطريقة أن يحتفظ بأخيه «بنيامين» عنده، وبمجرّد أن همّوا بالسفر:

﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[٢٠].

وأجابوا بأننا لم نأت للسرقة، وقد تمّ هذا بأمر يوسف حيث اتّهم إخوته بالسرقة وهو أمر غير جائز، إذن يعلم من هذا أنه من الممكن صدوره من الأنبياء.

ويشكّل هذان النموذجان شبهة واحدة على عصمة الأنبياء وقد أجيب على هذه الشبهة بصورة مختلفة، فقال البعض إن كلام إبراهيم ويوسف (ع) لم يكن كذباً وإنّما هو من قبيل التورية.

والجواب الذي نختاره هو: إن الكذب ليس محرّماً مطلقاً، وإنما هو مباح في بعض المجالات، بل يصبح واجباً أحياناً. فليس صحيحاً أن نتوهّم إن الكذب مطلقاً حرام، وإنما يتغيّر حكمه حسب المصلحة، وفي هذه النماذج المذكورة توجد مصلحة ملزمة ولو لم يتمّ الكذب فإن تلك المصلحة سوف تفوّت، فعندما نتأمل في قصة إبراهيم (ع) نجد أنه يريد تشييد نهضة يلفت بها الناس إلى أن الأصنام لا تستحق العبادة ولم يكن أمامه من طريق سوى البقاء في البلد لتحطيم الأصنام، ولهذا أظهر

(١٩) الصّافات: ٨٨ و ٨٩.

(٢٠) يُوسُف: ٧٠.

أنه مريض، وصحيح أن هذا كذب لكنّه ليس محرّماً في الشرع، فالكذب الضارّ حرام، وفي هذا الكذب مصلحة للتوحيد ملزمة. وكذا في قصة يوسف (ع) فلو أنهم فهموا أنه أخوهم يوسف لهربوا خجلاً منه ولما تحقّق مجيء يعقوب (ع) وما ترتب على مجيئه من مصالح، فهذا كذب أو حيلة استخدموها لإبقاء بنيامين ليكون ذلك مقدّمة لمجيء يعقوب إلى مصر ويتوب أخوة يوسف مما عملوه، وليس هذا محرّماً. بالإضافة إلى ذلك فإن هذا القول ﴿إنكم لسارقون﴾ لم يصدر من يوسف (ع)، ولعلّ قائله كان يتصوّر إن هؤلاء سارقون فعلاً، فالإشكال حينئذ يقتصر على المقدمات وهي التحايل على جعل السقاية في رحل أخيه حتى ينادي المنادي إنكم لسارقون، وهو غير محرم للسبب المذكور.

وهناك آية تتعلّق بيونس (ع) عندما انفصل عن قومه وسقط في البحر فالتقمه الحوت:

﴿فَنَادَى فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَن لَّآ إِلَهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[٢١]

وهو اعتراف منه بالظلم، إذن يصدر الظلم والذنب من الأنبياء حتّى بعد نبوّتهم.

وجواب هذه الشبهة واضح بعد المقدّمة التي ذكرناها حيث نعتقد بعصمتهم عن المحرمات، وأما غير المحرّمات وإن صدق عليها الظلم والعصيان فإنها لا تتنافى مع العصمة، فالظلم يعني التجاوز عن الحدّ المقرر، وقد يكون هذا الحدّ المقرر الزامياً وقد يكون راجحاً. فكان من الراجح أن يبقى يونس (ع) بين قومه ولكنه تسرّع فعُدّ تسرّعه تركاً للأولى، وليس هو تركاً للواجب فاعتبر هذا ظلمًا وأدّى هذا إلى وقوعه في هذه المشاكل.

كما أن التعبير بالمغفرة لا يدّل على غفران ذنب محرّم في كل مجال تتناسب مع موضوعها فمغفرة الذنب الحرام تكون برفع اليد عن عقوبته الأخروية، وأما مغفرة

(٢١) الأنبياء: ٨٧.

ترك الأولى فهي تتحقق بمحـو الآثار الوضعيّة المترتبة على ذلك الترك، ومن هنا نلاحظ ان النتيجة المترتبة على هذا الاستغفار هي أنه أُستنقذ من بطن الحوت وعاد إلى قومه مرشداً لهم.

ومن الموارد التي أشكل بها على العصمة ما جرى لموسى (ع) حيث صادف في أحد الأيام شخصين يتشاجران أحدهما من أتباع الفراعنة والآخر من بني إسرائيل:

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٢٢].

ثمّ نمى هذا الخبر إلى فرعون فتعقّبه وفرّ موسى إلى مدين، وفي طريق عودته من مدين خوطب موسى أن يذهب إلى قوم فرعون يدعوهم إلى الهدى فقال موسى:

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[٢٣].

فأمّنه الله وذهب برفقة هارون إلى فرعون فعرف موسى و:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾[٢٤].

وبهذا استدل جماعة على إمكان صدور الذنب من الأنبياء قبل النبوة وكونهم على ضلال.

وأجيب على هذه الشبهة بأجوبة متنوعة، بعضها يدور حول كلمة «الضلال» فذكروا لها معاني أُخرى لا يلزم منها الذنب، من جملتها ان الضلال بمعنى عدم التعمّد وهو الجهل في مقابل العمد لا في مقابل العلم، فهو (ع) يقصد انني لم أتعمّد قتله وإنما

(٢٢) القَصَص: ١٥ و١٦.
(٢٣) الشُعَرَاء: ١٤.
(٢٤) الشُعَرَاء: ١٨ ـ ٢٠.

كنت أهدف إلى إنقاذ الإسرائيلي فقتلته سهواً وخطأ، فكأنه قال وانا من المخطئين.

وزعم البعض ان الضلال هنا بمعنى الحب (وهو من الأقوال العجيبة) واستشهدوا لهذا بقول أولاد يعقوب لأبيهم:

﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[٢٥].

ومقصودهم من الضلال هنا حبّه ليوسف، إذن من معاني الضلال الحب، فعندما يقول موسى (ع) «وأنا مِنَ ٱلضَالِيّن» أيّ من المحبّين لله.

وذكروا وجوهاً أخرى لو لم يذكروها لكان أكرم لأنفسهم.

وأما الوجه الذي ذكره المرحوم العلّامة الطباطبائي فهو إن المقصود من الضلال هنا هو إنني لم أكن أعرف حينذاك ماذا أفعل حتى أنهي الصراع بينهما على أفضل وجه، فضربته تلك الضربة وانتهت إلى هذه النتيجة.

وقال البعض إن هذا الكلام لون من المجاراة لفرعون لأن فرعون قال له: ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين﴾، فأراد موسى (ع) أن يجاريه في الحديث فقال فعلتها إذاً وأنا من الضالين حينذاك ولا علاقة لهذا بالحال الحاضر.

وعلى كل حال فسواء التزمنا بهذا الوجه الأخير أم بالوجه الذي ذكره العلّامة فإن للضلال معنى آخر غير ارتكاب الجريمة، وصرف إطلاق الضالّ على موسى (ع) لا يعني أنه ارتكب ذنباً محرّماً في الشرع.

وكذا بالنسبة لسائر الأنبياء (ع)، مثل ما جرى لداوود (ع):

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ... * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾[٢٦].

فقبل أن يطالبهم بالبيّنة تسرّع في الحكم بمجرّد الاستماع إلى الإدّعاء.

(٢٥) يُوسُف: ٩٥.

(٢٦) ص: ٢٢ ـ ٢٤.

ويمكن الجواب على هذه الشبهة بأن هذا لم يكن من باب القضاء الرسمي، بمعنى أنه لم يرد في الواقع أن يأخذ المال من شخص ويعطيه إلى الآخر، وإنما هو حديث أخويّ بينهم فلم يرتكب شيئاً مخالفاً للشرع، نعم كان من الأفضل أن لا يتسرّع في الحكم بل يطالب بالبيّنة.

وبعد ذلك قضى داوود أربعين يوماً في البكاء والاستغفار وعندئذ جاءه الخطاب الإلهي:

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ﴾(٢٧).

وتوجد آيات تتعلّق بالنبيّ الأكرم (ص)، وبعضها صريح في نسبة الذنب والإستغفار إليه، يقول سبحانه:

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾(٢٨).

ويقول عزّ وجلّ:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(٢٩).

فهي تنسب الذنب إليه، وليس مرة واحدة وإنما في مرتين على أقل تقدير.

ويوجد جواب للآيات الدالّة على الذنب والإستغفار، وفي هذه الآية من سورة الفتح ميزة خاصة سوف نشير إليها.

أما الآيات الآمرة بالإستغفار وحتى التي تنسب الذنب إليهم فقد تقدم القول إنها لا تدل على ارتكابه حراماً شرعياً، نعم ظاهرها إنها تثبت الذنب له وأن الله قد غفره، وقد يخطر في البال لأول وهلة أنه (ص) ارتكب ترك الأولى أو ارتكب مكروهاً، إلّا أنّ التعمّق في الآية يقنع الباحث بأنه (ص) لم يرتكب أيّ مكروه، وبيان هذا

(٢٧) ص: ٢٦.
(٢٨) محمّد: ١٩. المؤمن: ٥٥.
(٢٩) الفتح: ١ و ٢.

الموضوع يحتاج إلى مقدمّة وهي:

إن الذنب قد يتحقق أحياناً بين أفراد المجتمع بالنسبة للقانون الإلهي، بمعنى إنهم يرتكبون المحرّم شرعاً والممنوع قانوناً، وقد يكون لهذا عقوبة دنيويّة وإن لم تكن له هذه فإن له عقوبة أخرويّة حتماً.

إلاّ أن الذنب يطلق أحياناً للحاظ المراتب المعنويّة وهي فوق القانون. يقول العلاّمة الطباطبائي رضوان الله عليه في تفسيره: إن الذنب يُتصّور على ثلاثة أشكال: أحدها الذنب القانوني (الوضعي) فهناك قانون موضوع وتحرم مخالفته. والثاني الذنب الأخلاقي، بمعنى أن الإنسان إذا ارتكبه فهو يتنافى مع مكارم الأخلاق وإن لم يكن محرّماً في الشريعة، أي أن لارتكابه آثاراً وضعيّة في روح الإنسان.

والثالث هو الذنب في مجال الحب، ولا يتبع قانوناً ولا يعدّ من الرذائل الأخلاقيّة، وإنّما للحب لوازم فهو يقتضي ان ينقاد المحب لمحبوبه تمام الانقياد فلا يلتفت إلاّ إليه ولا يغفل عنه، وكل همّه هو أن يعرف ماذا يريد محبوبه ليقوم به. وللحب آداب خاصّة لا تخضع للقانون ولا للخلقيات فهي علاقة متميّزة بين المحب والمحبوب. وللأنبياء الكرام وأولياء الله منازل رفيعة، وتقتضي هذه الدرجات الراقية أن يركّزوا كل التفاتهم على معبودهم وأن لا يلتفتوا إلى غيره ولا يطلبوا غير رضاه، فإذا حدث تخلّف منهم عما تقتضيه هذه المنزلة فانهم يعدّونه ذنباً بالنسبة إليهم، فإذا التفتوا إلى غير محبوبهم اعتبروه ذنباً وقاموا لله يستغفرونه منه. ومن الواضح إن جميع الأنبياء والأولياء ليسوا في منزلة واحدة وإنما هم في مراتب مختلفة، ولكل مقام ذنب يتناسب معه، فقد يكون شيء ما ليس ذنباً لاحدى الدرجات لكنّه يعدّ ذنباً لشخص في مرتبة أرفع. وكلّما ارتفعت المنزلة في القرب من الله سبحانه أصبحت مراتب الذنب أدّق وأظرف وأعظم في نفس الوقت.

ولتقريب هذا إلى الذهن نذكر مثالاً من حياتنا العاديّة: لو فرضنا شخصيّة مهمة مثل مرجع من مراجع التقليد أو من الشخصيات الدنيويّة، وللناس ارتباطات به، لكنّ هذه العلاقات ليست على مستوى واحد، فهناك المستوى العام حيث يجب

على الناس احترامه، ويحرم عليهم إهانته أو سبّه، فإذا لم يهينوه ولم يسبّوه فإنهم لم يرتكبوا ذنباً، ولو فرضنا أن شخصاً من عامّة الناس قد أدار نحوه ظهره كالخادم الذي ينظّف المكان من الأوساخ فإن أحداً لا ينسب إليه الذنب. وأمّا الأشخاص الذين هم في منزلة أقرب إلى ذلك الرجل العظيم فإن عليهم واجبات أدّق لو لم يقوموا بها فإنّهم لم يرتكبوا مخالفة قانونية لكنهم تصرّفوا خلاف ما يقتضيه مقامهم.

وكلما كانت المنزلة أقرب إليه كانت الواجبات أدّق وأظرف بحيث قد لا يلتفت إليها الآخرون ممّن هم في مستوى أخفض ولا يعرفون مخالفتها، فلهذه الدرجة لوازم، فالمقرّبون يراقبون أنفسهم حتى أثناء الدخول عليه والخروج منه بحيث لا يديرون ظهورهم نحوه، وإذا تصرّفوا خلاف ذلك عدّوه ذنباً واعتذروا منه. فنسبة الذنب لمثل هؤلاء لا تعني أنهم قد ارتكبوا تلك المحرمات العامّة الشاملة لجميع الناس، وإنما هم خالفوا شيئاً مختصّاً بتلك المنزلة، ولعلّ هذا الذنب في نظر ذلك العظيم أهمّ من المحرمات التي يرتكبها سائر الناس بحقّه. فإذا ارتكب المقرّب شيئاً من هذه المخالفات فإنه يشعر بالذنب أكثر مما لو ارتكب العادي محرمّاً قطعيّاً.

ومن هنا قيل: حسنات الأبرار سيئات المقرّبين، لأن للمقربين واجبات خاصّة بحسب درجة قربهم، والتخلّف عنها يعتبر ذنباً بالنسبة إليهم، ولازم هذا الذنب هو البعد عن معبودهم ومحبوبهم، وليس من لوازمه الحرمان من الجنّة ولاالتورّط في جهنّم. وأكثر شيء يخافون منه هو أن ينصرف عنهم اهتمام محبوبهم، فإذا أعرض عنهم قليلاً كان ذلك أعظم عذاب لهم وأصعب من نار جهنّم. ولّما كانوا يخافون أن يفعلوا شيئاً يسقطهم في نظره ويقلّ اهتمامه بهم فإنهم يهتمون أكثر من الآخرين وإذا صدر منهم مثل هذا الفعل اجتاحهم الخوف واندفعوا للتوبة والاستغفار.

ولا شك أن أفضل الأنبياء (ع) هو النبيّ الأكرم (ص)وهو يتمتع بأقرب المنازل إلى الله جلّ وعلا، ولازم هذا أن تكون واجباته أضخم من غيره وخوفه أكثر من الإخلال بهذه الواجبات، إلاّ أنّ للحياة الدنيا لوازم قد يكون بعضها واجباً من الناحية الشرعيّة، ولكنّ نفس هذا الواجب الشرعي قد يعدّ ذنباً بالإلتفات إلى لوازم

الحبّ، فمن لوازم الحب أن يركّز المحب التفاته على محبوبه ولكنّه هو يأمره بالزواج ومعاشرة الناس وتناول الطعام، إنها واجبات شرعيّة لا بدّ من القيام بها لكنّه هو يشعر بأنه مذنب ومقصّر في حقّ مولاه لأنه قد صرف انتباهه نحو غيره من أجل الحياة الدنيا، ولكي يزيل آثار هذا الذنب فإنه يتوب ويستغفر، وكل موجود مادي في هذا العالم لا يستطيع أن يركز كل انتباهه على معبوده الحقّ عزَّ وجلّ وإنما الحياة تلزمه بصرف اهتمامه بنحو أو بآخر نحو المخلوقات، فهذه الحياة الدنيا إذن لا تخلو من ذنب بالنسبة لأولياء الله. ولا تعتبر هذه ذنوباً بالنسبة لعامّة الناس.

إذن حتى أرفع الأنبياء وأقربهم إلى الله لا تخلو حياته الدنيويّة من مثل هذه الذنوب التي قد تكون من الواجبات الشرعيّة أيضاً، لأنه سوف يصرف شيئاً من التفاته نحو الله، ولا يعني هذا إنه قد غفل عن الله، وإنما قد يؤدي ذلك إلى ضعف التفاته، وهذا يعدّه ذنباً بالنسبة إليه.

وبهذه الرؤية تتّضح مسألة نسبة الذنب والاستغفار للنبي الأكرم (ص) وأهل بيته الطاهرين في المناجاة والأدعية، كما نلاحظ ذلك في دعاء أبي حمزة الثمالي. فهم (ع) ينظرون إلى درجات قربهم من الله سبحانه ويعدّون أقل التفات إلى غيره أعظم ذنب بالنسبة إليهم، لأنهم يتمتّعون بمقام الحبّ الذي ليس لسائر الناس، ولهذا تعدّ مخالفة ما يقتضيه هذا المقام ذنباً بالنسبة إليهم دون أن يرتكبوا محرّماً شرعيّاً.

وأما الميزة التي تختصّ بسورة الفتح بحيث تجعلها بعيدة جدّاً عن الذنب بمعنى ارتكاب المحرم شرعاً هي أن السورة تتحدث عن فتح قام به المسلمون بقيادة النبي (ص) هزموا به المشركين والكفّار، ويؤكّد الله سبحانه على أننا فتحنا لك هذا الفتح ليغفر الله لك ذنبك، فما علاقة هذا بالذنب المتعارف؟ إنه سؤال طرحه المأمون العباسي على الإمام الرضا(ع)، فأجاب الإمام بأنه الذنب الذي كان المشركون ينسبونه إلى النبي (ص)، حيث كانوا يعتقدون أنه (ص) قد ارتكب أعظم ذنب بإهانته للأصنام ونضاله ضد عبادتها، وهو ذنب انمحى بفتح مكة.

ونواجه عندئذ هذا السؤال: إذا كان الأمر كذلك فلماذا يقول: «ليغفر لك الله»؟

الجواب: ان هذا البيان مبني على التوحيد القرآني، فالله سبحانه هو الذي منح المسلمين الفتح، إذن كل ما يترتب عليه فهو عائد إليه، ومن جملتها محو الآثار التي تعدّ ذنباً عند المشركين.

ومن الشبهات التي طرحوها ضد عصمة الأنبياء ولا سيما النبيّ الأكرم (ص) ما فهموه من قوله تعالى:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾[٣٠].

فتوهّم هؤلاء إن النبي (ص) قد ارتكب ذنباً ـ والعياذ بالله ـ ولهذا يقول له الجليل عفونا عنك، وهو يوبّخه على إذنه لهم.

ولكي يتّضح المقصود من الآية الكريمة وترتفع الشبهة نذكر شأن نزولها:

فالمنـافقون أو ضعفاء الإيمان كانوا يتباطأون في أمر الجهاد ويبحثون عن أعذار يتذرّعون بها، وهناك عدد منهم تخلّف في أحدى الغزوات، ومع ان النبي (ص) قد أعلن التعبئة العامّة إلاّ أنّ هؤلاء تخلّفوا فنزلت فيهم آية توبخهم وتؤنبّهم. فذهب البعض الآخر إلى النبيّ (ص) يستأذنه في البقاء في المدينة معتذراً ببعض المشاكل، ولم يكن لهم عذر في الواقع إلاّ أنّهم أرادوا إسكات المعترضين بهذا الإذن القانوني، وقد أذن لهم النبي (ص) في البقاء وعدم المساهمة في القتال مع علمه بواقعهم لكي يحفظ ظواهـرهم، ويعـدّ هذا منتهى العطف والرأفة بهم، ولكي لا يفتح باب التجرّي في المجتمع أيضاً، لأنه لو أمرت القيادة بشيء ولم ينفّذ أمرها عدد من الناس فان هذا يؤدي إلى تجرّؤ الآخرين وكسر هيبة القيادة، لهذا كله إذن لهم النبي فنزلت هذه الآية: «**عَفا الله عَنْكَ...**» ، وظاهر الآية يدل على أنه (ص) قد ارتكب خلاف الأولى، كما قال بذلك بعض المفسرين المعتقدين بعصمة الأنبياء (ع)، أيّ أن الله تعالى قد أعطى النبي (ص) الحق في الإذن بالبقاء لأيّ شخص يرى بقاءه أصلح من خروجه للقتال،

(٣٠) التّوبة: ٤٣.

فهو (ص) لم يرتكب ذنباً، وإنما هو قد ترك الأولى بإذنه لهم بالبقاء.

إلّا أن المرحوم العلّامة الطباطبائي يرى أن هذا التصرّف لم يكن خلاف الأولى أيضاً، وإنّما الآية مدح للنبيّ (ص) في لسان عتاب، فقد يتمّ المدح بصورة مباشرة كأن تقول: فلان عطوف أو رحيم جدّاً، وقد يتمّ أحياناً بصورة غير مباشرة فهو في ظاهره عتاب لكنّه في الواقع مدح، وهو أبلغ من سابقه فتقول مثلًا: لماذا تكون رحيماً إلى هذا الحدّ؟! إن للرحمة حدوداً أيضاً؟! وهذه الآية من هذا القبيل، لأنه تعالى في آية لاحقة يقول:

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ ٱللهُ ٱنبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾[٣١].

إن هؤلاء لم يكونوا أهلًا للمساهمة في الجهاد، وهذا التباطؤ والتعلّل بالأعذار عقوبة إلهية لهم، وحتى:

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾[٣٢].

فالآية الكريمة لا تريد أن تؤكّد على أولويّة عدم إذنه في التخلّف عن الجهاد.

وفي نفس الآية يبيّن تعالى علّة العتاب:

﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾[٣٣].

فلو لم يُجز الرسول لخرج الصادقون إلى القتال وتخلّف الكاذبون وظهر خداعهم. فالآية إذن في مقام مدح النبيّ (ص) على شدّة عطفه وعلى مدى اهتمامه بالناس حيث لا يرغب في فضحهم. وقوله «عَفا اللهُ عَنْكَ» ليست جملة خبريّة حتى يصبح معناها إنك أذنبت أو تركت الأولى وقد عفا الله عنك، وانما هو دعاء من الجليل سبحانه له بالعفو والرحمة ونحن نستعمل هذا الأسلوب في أحاديثنا العاديّة حيث نقول: عفا الله عنك لِمَ قلت هذا، ولا نقصد من اثبات الذنب للمخاطب.

نعم يوجد في هذا الخطاب عتاب حقيقي كامن للمنافقين وضعفاء الإيمان من

(٣١) التّوبة: ٤٦.

(٣٢) التّوبة: ٤٧.

(٣٣) التّوبة: ٤٣.

باب «إيّاك أعني واسمعي يا جارة».

ومن الآيات التي تمسّك بها المشكّكون في عصمة الأنبياء قوله تعالى مخاطباً النبيّ الأكرم (ص):

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ...﴾(٣٤).

وهذا الشخص الذي أنعم الله عليه بالهداية والإيمان وأنعم الرسول (ص) عليه بالقرب والتكريم والتبنّي هو «زيد بن حارثة» كما تقول الروايات. وكان من السائد في ذلك الزمان أن يتبنى الإنسان شخصاً آخر فتجري عليه أحكام الولد الحقيقي فيورّث مثلاً، وكذا إذا تزوج هذا المتبنى فإن زوجه تعامل معاملة زوجة الولد الحقيقي حيث يحرم على الوالد الزواج منها حتى لو طلقها الولد. وهي سنّة خاطئة في المتبنى كان الإسلام يريد تحطيمها، وقد جاء في أول هذه السورة:

﴿مَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَٱللهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ * ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللهِ﴾(٣٥).

فلكي تحطّم هذه السنّة اقتضت الحكمة الإلهيّة أن يقوم النبي (ص) بكسرها في حقّ من يتبنّاه وهو زيد حتى تسقط هذه السنّة الجاهليّة في أعين الناس. فأمر الله الرسول الكريم (ص) أن يتزوج زوجة زيد بعد طلاقها منه، وفي أحد الأيام جاء زيد إلى النبيّ (ص) وأخبره بعزمه على طلاق زوجته فأمره النبي (ص) بالإبقاء عليها فنزلت هذه الآية:

﴿إِذْ تقول للذي أنعم ٱلله عليه...﴾.

فأنت أيُّها النبي تريد أن تخفي في نفسك ما يريد الله أن يظهره من كسر هذه السنّة الخاطئة.

(٣٤) الأحزاب: ٣٧.

(٣٥) الأحزاب: ٤ و ٥.

وقد اخترع أعداء الإسلام قصّة لهذه الآية وشاعت بين بعض المسلمين بحيث صوّروها على أنها من نقاط ضعف الرسول الأكرم (ص)، فذكروا أن النبيّ في أحد الأيام وقع بصره صدفة على زوج زيد وكانت على نصيب وافر من الجمال فأعجب بها النبي ـ والعياذ بالله ـ ورغب في الزواج منها ولكنه لم يجد سبيلاً إلى ذلك، فخوفه ـ نعوذ بالله ـ كان من أن يطّلع الناس على أن فتاة قد ملكت قلبه، والله تعالى لكي يحقّق له مناه هيّأ الظروف ليطلّق زيد زوجته فيتزوجها من أُغرم بها. ويقول أعداء الإسلام إن النبي هو الذي هيّأ هذه المقدمات ونسبها لله لكي يصل إلى عشيقته. وهي مثل القصّة المنسوبة لداوود (ع) حيث تعلق بزوجة أحد أصحابه كما يقولون و... واستشهدوا بما جاء في الآية ﴿**وتخشى الناس والله احق أن تخشاه**﴾ ولا يكون الخوف من الناس إلّا إذا كان قد عمل شيئاً مخالفاً وهو عشق زوجات الآخرين.

ولكنّ الحقيقة غير هذه، فالقصّة مجعولة من قبل أعداء الإسلام، وكان خوف النبي هو ان لا يخضع الناس للأمر الإلهي بسبب رواج هذه السنّة في حياتهم، ولم يكن خائفاً من تلوّث سمعته، وإنما كان يبحث عن فرصة ملائمة تتحقّق فيها مصلحة الناس والحكمة الإلٰهيّة وينفّذ فيها أمر الله ولا يعصى. وهي من هذا الجانب تشبه مسألة الولاية:

﴿**بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾[٣٦].

فالنبي (ص) كان هناك خائفاً أيضاً من رفض الناس لحكم الله لا أنه كان يخاف على سمعته.

وهنا كذلك، فهو (ص) لم يكن يخفي في نفسه حب زوجة زيد ـ والعياذ بالله ـ، وإنما كان يخفي في نفسه ما اخبره الله به من كسر هذه السنّة ويأمر زيداً بالإبقاء على زوجته خوفاً من عدم طاعة الناس لهذا الحكم الإلٰهيّ.

(٣٦) المائدة: ٦٧.

﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾، ليس معناه أنه يقارن بين الخوف من الناس والخوف من الله وأن بينهما تعارضاً، وإنما معناه ان خوفك لا بدّ أن يكون من الله لا من الناس، فهي تسلية للنبي (ص) بأنك اتّجه إلى الله والله يصونك فلا تخفْ. ومن الواضح أن النبي (ص) أصبح معصوماً بتعليم الله وتربيته، وكل ما يتمتّع به فهو من الله وهو يحفظه من كل زلل، وعندما يقول ﴿والله أحقّ أن تخشاه﴾، فهو إلفات للنبي بان الذي يستحق أن تخاف منه هو الله وحده، والآخرون لا يستطيعون الحيلولة دون تنفيذ إرادة الله، وقد أراد الله ان تكسر هذه السنّة الخاطئة فلا تحزن من هذه الجهة. ولا يعني هذا انه كان خائفاً بالفعل، وإنما كانت الظروف تقتضي أن يحدث الخوف في نفسه بما أنه إنسان، وقد حفظه الله من الخوف بالوحي والإلهام والتربية الخاصّة.

وهناك آية أُخرى تمسّك بها المعترضون وهي قوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣٧].

لقد استغلّ أعداء الإسلام هذه الآية كسهم مسموم ضد الإسلام فقالوا إن القرآن نفسه يعترف بأن النبي (ص) قد تصرّف ـ والعياذ بالله ـ في التشريع فحلّل أُموراً وحرّم أُخرى، ووصل الأمر إلى الحدّ الذي تنزل فيه آية توبّخه على ذلك.

وبهذه الطريقة يسلبون من الناس ثقتهم بمحتوى القرآن ومضمون السنّة.

ولرفع هذه الشبهة لا بدّ أيضاً من التأمل في مضمون الآية وشأن نزولها. وهي تتعلّق بقصّة لا يمكن الظفر بها بصورة دقيقة من الروايات، فالروايات مختلفة في بيان شأن نزولها. وبعدها يأتي الحديث عن زوجات النبيّ اللاتي وبّخهن الله، و تجمع الروايات على إنهن عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر. ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا تُجعل القصص والروايات لتغيير الحقائق لكي لا يتضح أصل الموضوع من قبل التابعين للخلفاء والسائرين على نهجهم، فأهل السنة ينظرون إلى زوجات النبي جميعاً

(٣٧) التّحريم: ١.

على أنهن يتمتعن بأرقى مراتب القداسة، ولا يحبون ان تقلّل الآيات من شأن بعضهن فيحاولون جاهدين أن يبرّءوا من تورّطت منهنّ في المخالفة، إلّا ان الآيات واضحة وشديدة بحيث لا تُبقى عذراً لأحد:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إِلَى ٱللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنكُنَّ...﴾[٣٨].

ومن لهجة الآيات نفهم أن الموضوع مهمّ جداً ولهذا كان العتاب قاسياً. ولكي يُشوّش الموضوع في أذهان الناس ولا يعرفوا الحقيقة نقلوا قصصاً عجيبة غريبة، منها ما ذكروه من أن النبي(ص) كان يوماً عند إحدى زوجاته وتسمى «سودة بنت زمعة» فأعدّت له قدحاًمن شراب العسل وكانت فيه رائحة خاصّة فلما تناوله ذهب إلى بيت عائشة فتنفّرت من هذه الرائحة، فذهب إلى بيت حفصة فأظهرت له ما أظهرته سابقتها فالتفت النبي إلى أن رائحة هذا الشراب لا تعجبها فأقسم أن لا يتناوله مرة أُخرى فنزلت الآية المتقدمة الذكر، وهي تفيد أن تناول هذا الشراب حلال فلماذا حرّمته على نفسك؟ هل من أجل أن ترضي أزواجك؟!

وقد ورد شأن نزول الآية في روايات الشيعة بشكل آخر، فهي غالباً تذكر أن النبيّ(ص) كان في أحد الأيام عند احدى زوجاته وتسمى «مارية القبطيّة» وقد كانت أمة في أصلها، وحسب بعض الروايات كان رأسه (ص) في حجرها، وفي هذه اللحظات دخلت عليها عائشة أو حفصة فاستولى عليها الغم والحزن، لماذا يضع النبي(ص) رأسه في حجر أمة، وراحت تشهّر بهذا الموضوع، ثمّ اتفقتا على أن تحتجّا

(٣٨) التّحريم: ٣ ـ ٥.

عليه وتقاطعانه ولعلّهما تنويان أشياء أخرى، فأقسم النبيّ(ص) أن لا يقترب بعد إلى مارية لكي يهدئهما ويطفىء الفتنة، فنزلت هذه الآية تأمره أن لا يراعي جانبهما كثيراً، فلماذا أقسمت وحرمت نفسك مما أحلّه الله لك من الاقتراب إلى زوجك:

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ...﴾[٣٩].

هذا هو المذكور في رواياتنا وذاك هو المسطور في روايات أهل السنّة، وعلى كلا التقديرين لا يتعلّق الأمر بالتشريع أي أنه لم يضع حكمًا بالتحريم لشيء حلّله الله، بقرينة الآية الثانية من هذه السورة «**تحلّة إيمانكم**»، فهذه التحلّة في مقابل ذلك التحريم، فما حرمت منه نفسك بالقسم حلّله، فالتحليل يعود إلى القسم. وكيف يمكن أن يحرّم بالتشريع حلال الله من يقول الله سبحانه بحقّه:

﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾.

فالأمر لا يتعلق بوضع قانون يحرّم ما حلّله الله، وكل مباح يستطيع الإنسان أن يقسم على الامتناع عنه إذا كان لذلك مرجّح، وهو (ص) امتنع عن أمر حلال لصالح الآخرين، وهو من شدّة عطفه، حيث يتحمّل الآلام في سبيل راحة الآخرين، ولكنّ الله يأمره أن يحلّ يمينه لمصالح يعلمها حتى يحلّ لهما حرّمه على نفسه. ففي الآية عتاب مثل عتاب الآية **﴿لِمَ أذنت لهم﴾**، وهو في الواقع مدح في صورة عتاب.

أي صحيح أنك تراعي رغبات الآخرين، لكنّه إلى هذا الحدّ بحيث تتعب نفسك في سبيلهم؟! نحن لا نحبّ لك كل هذا العناء، فالله حلّله لك فلا تحرّمه على نفسك من أجل راحة الآخرين. فالنبي (ص) لم يرتكب خلافاً، وإنّما آثـر على نفسه الآخرين. والله يعاتبه عليه فهو مدح في الواقع لشدّة عطفه وكمال إيثاره.

وتبيّن الآية الكريمة حجم المشاكل التي كان يعاني منها النبي (ص) في بيئته العـائليّة، وتتّضح لنا أهميّة المسألة إذا تابعنا بقيّة السورة حيث يمثل الله سبحانه

(٣٩) التحريم: ٢

بامرأتي نوح ولوط وفي مقابلهما امرأة فرعون، فهي تسلية لخاطر النبي (ص) بأنك إذا ابتليت بمثل هذه الأزواج فقد ابتلي بمثلهن نوح ولوط قبلك. وهذا مما لا يمكن إنكاره أو اخفاؤه أو الاعتذار له، فهجوم القرآن على هاتين الزوجتين شديد إلى الحدّ الذي لا يمكن معه تبرير ما فعلتاه، إلاّ أنّ أهل السنّة حاولوا تفسير هذه الآيات بما يحفظ لأزواج النبي المقام الرفيع لكنها تبريرات لا تقع في نفس المنصف ولا تزيل لطخة العار تلك.

وهناك اية أُخرى تستحكم فيها الشبهة على عصمة الأنبياء وحتى في مقام إبلاغ الرسالة، ولو صحّت لكان ضررها أبلغ من الجميع، لأن الآيات السابقة كانت تتعلق بالأعمال الشخصية، وأما هذه فهي ترتبط بأصل إبلاغ الرسالة، وهو قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ ٱللهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللهُ ءَايَاتِهِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ...﴾[٤٠].

وقد ذكرت قصّة عجيبة في تفاسير أهل السنّة وكتب أحاديثهم كانت هي المنشأ لشبهة عظيمة حول عصمة النبي في مجال إبلاغ رسالته، وقد ربطوها بهذه الآية، وتلك القصّة هي:

عندما نزلت سورة النجم في مكة أخذ النبي (ص) يتلوها للناس، وحينما وصل إلى قوله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللاتَ وَٱلْعُزَّى * وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلأُخْرَى﴾[٤١]، قام الشيطان بإلقاء جملة على لسانه ليست من القرآن، فقال النبي بعد ذلك: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى.

(٤٠) الحجّ: ٥٢ ـ ٥٤.
(٤١) النّجم: ١٩ و ٢٠.

(وقد نقلها هؤلاء في روايات متعددة عن سعيد بن جبير وإبن عباس وصرّحوا بصحّة سندها، حتى السيوطي وابن حجر اعترفا بصحّتها).

ثمّ سجد النبي وسجد معه الناس، فنزل جبرئيل، وسأله عما تلاه، فأجابه النبي بأنني قرأت هذا، فقال له جبرئيل إنني لم أقل لك هذا وإنّما الشيطان ألقاه على لسانك، فأعلن النبي للناس بأن هاتين الجملتين ليستا من القرآن.

وقالوا إن «تمنّى» في الآية بمعنى تلا وقرأ، فإذا قرأ النبي ألقى الشيطان في قرائته، ثم ينسخ الله ما يلقيه الشيطان كما فعل هنا حيث أرسل جبرئيل ليلغي كلام الشيطان.

فهي بالإضافة إلى كونها شبهة حول عصمة النبي الأكرم (ص) فإنها تسلب من الإنسان الثقة بالوحي والاعتماد على الكتاب، وتصبح سيفاً بيد أعداء الإسلام للتشكيك في القرآن، فمن الذي يقول إن ما هو موجود في القرآن ليس من إلقاء الشيطان؟! وحتى لو فرضنا إن جبرئيل قد نسخ ما ألقاه الشيطان فمن الذي يضمن إن ما نسخه جبرئيل لم يسجّل في الكتاب؟ إنها طعنة مشينة للقرآن، وهذه القصّة هي من إلقاءات الشيطان، وهي بنفسها تشهد على نفسها بالكذب.

ولنفرض أنه لم يكن نبيّاً وإنما هو شخص عاديّ وقد نهض منذ البداية لتحطيم الأصنام والنضال ضد عبادتها والدعوة إلى التوحيد فكيف يعقل أن يقول عن الأصنام: وإن شفاعتهن لترتجى؟!

فهل أذن الله لهنّ بالشفاعة؟ وهل الشفاعة أمر عشوائي؟ ثمّ هل من المعقول ان يسجد للأصنام بعد كل هذه المعاناة؟ هل يصدر هذا من شخص عادي فضلاً عن كونه نبيّاً؟!

وأراد البعض أن يعتذر لهذا بأنه كان تلفظه بهاتين الجملتين من قبيل سبق اللسان ولم يكن النبي ملتفتاً إلى ما يقول وإنما اجراهما الشيطان على لسانه.

وهو عذر أقبح من الذنب، لأن سبق اللسان يكون في حرف واحد أو كلمة واحدة لا في جملتين تتضمنان نسف دعوة التوحيد من أساسها. وعلى كل حال فلا

شكّ في كون هذه القصّة كاذبة وقد اخترعها أعداء الإسلام.

والحقيقة أنَّ الآية لا علاقة لها بالتلاوة ولا بالدسّ أثناء التلاوة، والتمنّي يعني الرغبة، وإذا جاء على اللسان فهو كاشف للتمني، وهذا هو كلام الفصحاء والشعراء أمامكم، فأين استعمل التمنّي بمعنى الكلام والتلاوة؟ فما هو التمنّي؟ انّه مخطّط في ذهن الإنسان ويحبّ أن ينفّذه في الواقع. فماذا يتمنّى النبي؟ بما أنه نبيّ ورسول فهو يتمنى تحقّق رسالته في واقع الحياة، ولكنه ليس كل ما يتمنّاه النبيّ يتحقّق في الخارج وإنما يتدخّل الشيطان في هذه الأمنية فيوجد المشاكل والمصاعب أمامه بالوسوسة للناس فلا يتركهم يؤمنون به وبالتالي يحول دون تحقّق امنية النبي، والله سبحانه يزيل وساوس الشيطان هذه بأساليب مختلفة.

ومنشأ الشبهة قوله: ﴿**فينسخ الله ما يلقي الشيطان**﴾، لأن النسخ إصطلاح خاص وهو يعني تغيير حكم وإخلال حكم آخر محلّه. وهؤلاء تخيّلوا أن الشيطان هنا قد ألقى موضوعاً والله ينسخه بكلام آخر. بينما النسخ هنا بمعناه اللغوي وهو الإزالة والمحو. فللنسخ معنيان احدهما النقل من مكان إلى مكان آخر ومنه الاستنساخ، والآخر هو المحو فنسخ الحكم أيّ محوه، فالله ينسخ وساوس الشيطان وإلقاءاته ويحكم آياته وبالتالي ينتصر الأنبياء:

﴿**كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[٤٢].

وفي ذيل الآية يقول تعالى:

﴿**ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض**﴾.

ولعلّها إشارة إلى هذا الموضوع وهو صحيح أن الشيطان يوسوس للناس إلّا أنّ وجوده ووسوسته جزء من نظام هذا العالم.

وصحيح أن الله غالب في النهاية وأن رسله منتصرون:

﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ**﴾[٤٣].

لكن وجود الشيطان جزء من المصالح العامّة للعالم، فهو وسيلة للاختبار:

(٤٢) المجادلة: ٢١.

٤٣ المؤمن: ٥١ .

﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾، فالمريض قلبه،وقاسي القلب يغريه الشيطان.

وأما وساوس الشيطان بالنسبة للمؤمنين فهي لاختبارهم وتثبيتهم على الحقّ:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤٤].

أتكون العصمة في غير الأنبياء؟

لقد ذكرنا سابقاً إن الأنبياء معصومون في تلقّي الوحي وإبلاغه للناس، واثبتنا عصمتهم في مجال العمل بمقتضى الوحي، وقلنا إن الشيعة يعتقدون بعصمتهم من الخطأ والنسيان والسهو.

والآن نواجه هذا السؤال:

أتكون العصمة مختصّة بالأنبياء أم قد يكون بين غير الأنبياء من هو معصوم؟

هل تدل آيات القرآن الكريم على شيء من هذا أم لا؟

قبل الدخول إلى صميم الموضوع لا بدّ لنا من توضيح معنى العصمة:

فالمقصود منها ليس ترك الذنب فقط، ولا يكفي ان لا يصدر من الإنسان ذنب لنقول إنه معصوم، بل لا بدّ:

أوّلاً: أن يكون قابلاً لصدور المعصية منه، بمعنى أن يكون مكلّفاً. ومن المناسب أن نضيف إلى ذلك إن التكليف ليس متساوياً في الجميع، فهناك أدلّة تثبت أن بين أفراد الإنسان من أصبح مكلّفاً قبل السنّ القانونية، مثل الأئمة الطاهرين (ع) فقد كانوا مكلّفين قبل البلوغ الظاهري، وبسبب ما كانوا يتمتّعون به من كمالات فقد كلّفوا بمسؤوليات تتناسب مع مستوياتهم الرفيعة، فقد يصبح إماماً وهو في الخامسة من عمره أو أقل أو أكثر، وهذا يدل على أنه يتمتّع حينئذ بالأهليّة للنهوض بتلك

(٤٤) الحجّ: ٥٤.

المسؤولية.

وبغضّ النظر عن هذه الخصوصيات فإن العصمة لا تتحقّق لشخص إلّا إذا كان مكلّفاً، سواء اتجه إليه التكليف في السنّ المتعارفة أم لا.

ثانياً: إذا لم تتوفر للمكلّف شروط المعصية وظروفها ولم تتحقّق أرضيّة للعصيان، ولهذا لم يعص فإنه ليس معصوماً أيضاً. لأن المقصود من العصمة هو أن يكون الشخص بشكل بحيث لا تصدر منه المعصية في ظلّ أيّ ظرف من الظروف، سواء أكان خاضعاً لظروف عاديّة ومتعارفة أم ظروف استثنائيّة غير عاديّة، ولتقريب الموضوع إلى الذهن نقول: إن كل إنسان يستطيع أن يكتسب ملكات معيّنة وأحياناً قد تكون هذه الملكات طبيعيّة له، وهي تقتضي صدور أفعال معيّنة منه. فالشجاع مثلاً يتمتّع بملكة راسخة في نفسه تقتضي صدور أفعال خاصّة منه وترك أفعال أُخرى. وكذا ملكة العفّة أو ملكة السخاء والجود، وكل الملكات التي يُبحث عنها عادة في علم الأخلاق فهي بشكلٍ بحيث تكون منشأ لصدور أفعال خاصة من صاحبها في الظروف المتعارفة، إلّا أنّ تخلّفها ليس أمراً مستحيلاً. فالشجاع هو ذلك الذي لا يخاف عندما يواجه ما يحدث للناس في الظروف العاديّة، وأما إذا حدث شيء استثنائي غير متوقع فإنه قد يخاف. هذه هي حدود الملكات الخلقيّة، فهي صفات ثابتة وملكات راسخة في بعض نفوس الناس بحيث تكون منشأ لصدور أفعال خاصّة في الظروف المتعارفة.

فإذا ترسّخت تلك الحالة أكثر فإن تلك الملكة تصبح أكثر تكاملاً بحيث أينما فرضناها فإنها تكون منشأ لتلك الآثار ولو في الظروف الاستثنائيّة جدّاً، مثلاً ملكة العفة تقوى وتستحكم بحيث تحفظ الإنسان من المعصية حتى لو تعرّض لظروف الإغراء التي تعرّض لها يوسف (ع) في القصّة المشهورة، وكذا الأمر في سائر الملكات فهي تنمو وتشتدّ إلى الحدّ الذي لا يصدر منه ذنب حتّى في الظروف غير العادية.

إذا تحقّقت في نفس الإنسان مثل هذه الملكة عندئذ نستطيع أن نقول إنه معصوم.

فتعريف العصمة هو:

ملكة في نفس الإنسان تحفظه من التورّط في أيّ معصية تحت ظلّ أيّ ظرف من الظروف.

ولا يتنافى هذا القول مع القول بأن الله هو الذي يحفظه من الوقوع في المعصية، لأن مقتضى التوحيد الأفعالي هو أن ننسب كل ما للموجودات من أصل الوجود وكمالاته إلى الله تعالى أصالةً، فالله يحفظه بواسطة هذه الملكة التي تتحقّق في نفسه.

فقد اتّضح إلى حدّ ما معنى العصمة وهي أن يتعرّض الشخص لظروف المعصية ولكنّه يتمتّع بملكة تصونه من التورّط في المعصية في أيّ ظرف من الظروف.

وهنا نتساءل: هل أن هذه الملكة مختصّة بالأنبياء أم قد تكون عند غير الأنبياء؟

ويكون الموضوع مرتبطاً بمقامين أحدهما مقام الثبوت والآخر مقام الإثبات، بمعنى أنه هل من الممكن ثبوتاً أن يتمتّع شخص بمثل هذه الملكة؟

ثانياً: هل هناك دليل يثبت أن بعض الناس من غير الأنبياء قد كان يتمتع بمثل هذه الملكة (هذا هو مقام الإثبات)؟

أمّا من ناحية الثبوت فلا مانع من تحقّق مثل هذه الملكة للإنسان، ولا يلزم من ذلك أيّ مستحيل عقلي، ونستطيع أن نستظهر من بعض العمومات إنها ليست مقصورة على الأنبياء، من قبيل قوله تعالى: **﴿إلاّ عِباد الله المخلَصين﴾**، حيث لا يطمع الشيطان في إغواء عباد الله المخلَصين، ولا مانع من أن يكون بعضهم من غير الأنبياء.

ولا يوجد دليل على حصر العصمة بالأنبياء، فكل من كان مخلَصاً فهو معصوم حسب هذه الآية ولا يستطيع الشيطان أن يغريه، لكن من هم هؤلاء هل هم الأنبياء فقط أم أكثر من ذلك؟ فإنه يحتاج إلى دليل خارجي.

بل قد نستأنس ببعض الموارد التي أشار إليها القرآن ونستظهر منها إثبات

العصمة لغير الأنبياء مثل قوله تعالى بالنسبة لمريم (ع):

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ﴾[٤٥].

فإطلاق التطهير عليها يقتضي أن لا تكون ملوّثة بالكبائر ولا بالصغائر. إذن لا مانع من اثبات العصمة لغير الأنبياء بحيث لا يصدر منهم أيّ ذنب من الكبائر والصغائر طيلة حياتهم.

ويعتقد الشيعة الإثنا عشرية بأن الأئمة الإثنى عشر وفاطمة الزهراء (ع) معصومون جميعاً مع انهم ليسوا من الأنبياء فيصبح المجموع أربعة عشر معصوماً.

وهذه العصمة التي تُنسب للأئمة والزهراء (ع) هي نفس العصمة الثابتة للنبي الأكرم (ص)، بمعنى أنها عصمة عن الذنب والخطأ والسهو والنسيان، حسب القول المشهور عند الشيعة.

وهذا لا يعني أنه لا يوجد معصوم آخر من الذنوب بين هذه الأُمّة غير هؤلاء المعصومين، فقد يكون هناك أشخاص لم يرتكبوا ذنباً لأنهم عاشوا في ظروف عاديّة وكانوا يتمتّعون بملكة العدالة والتقوى التي تصونهم من الوقوع في المعصية.

وحتى أنه قد يكون غير هؤلاء المعصومين الاربعة عشر من نال أرفع مراتب التقوى بحيث إذا تعرّض للظروف غير العاديّة فإنه لا يرتكب معصية أيضاً.

والشيء المختصّ بهؤلاء الأربعة عشر من المعصومين هو أنهم يتميزون بنفس العصمة الثابتة للنبي (ص) وهي عصمة عن الخطأ والسهو والنسيان أيضاً.

والفرق بينهما أنه لو فرضنا أن سلمان الفارسي رضي الله عنه كان يتمتع بملكة تصونه عن الوقوع في الذنب وإن تعرّض لأقسى الظروف وأصعبها ولكنه قد يخطىء في تشخيصه، فالعصمة عن الخطأ في التشخيص وعن السهو والنسيان لا نستطيع إثباتها لغير هؤلاء المعصومين الأربعة عشر. ولعلّ في قول النبي (ص):

(٤٥) آل عِمْرَان: ٤٢.

(سلمان منّا أهل البيت).

اشعاراً بأن بعض ما هو ثابت لأهل البيت من الخصائص ثابت له أيضاً.

ولعلّ من بين علماء الشيعة وفقهائها من كان يتمتع بهذه المنزلة الرفيعة من العدالة والتقوى بحيث لا يقدم على المعصية في ظلّ أيّ ظرف من الظروف.

وهناك قصّة مشهورة عن السيد الرضي والسيد المرتضى رضوان الله تعالى عليهما (وهي قصّة لا أقطع بصحّتها)، فقد كانا يتمتعان بدرجة رفيعة من العدالة والتقوى بلا ريب، وتقول القصّة إنهما اجتمعا يوماً وحلّ وقت الصلاة وكان على أحدهما أن يصبح إماماً وعلى الآخر أن يكون مأموماً، فأراد السيد المرتضى ان يلّوح لأفضليّة نفسه وإنه أحقّ بالإمامة فقال: يصبح أماماً من لم يصدر منه ذنب إطلاقاً، فأجابه السيد الرضيّ (ره) بأنه يكون إماماً من لم يفكّر في الذنب اطلاقاً، وهي إشارة إلى إنني لم يخطر الذنب على بالي أصلاً.

وليس هذا ببعيد، لأن لله عباداً صالحين هم أهل لمثل هذه الدرجات الراقية، فإذا لم نكن من أهلها فلا يصحّ لنا نفيها وإنكارها.

فهناك إذن وجهان للفرق بين العصمة التي نثبتها لهؤلاء المعصومين الأربعة عشر والعصمة التي قد تكون لغيرهم:

أوّلاً: إن عصمة هؤلاء الاربعة عشر تصونهم عن الذنب والخطأ والسهو والنسيان بشكل كامل، إلاّ أن عصمة غيرهم قد تكون عن الوقوع في المعصية فقط، ولا يوجد ما يضمن لنا عدم وقوعهم في الخطأ والسهو والنسيان.

ثانياً: إن العصمة في هؤلاء الأربعة عشر يوجد عليها دليل يثبتها من الروايات وهي كثيرة، بينما عصمة غيرهم حتى لو كانت موجودة فإنها لا دليل عليها يثبتها، فلا نستطيع أن نثبت هل خَطَرَ الذنب على باله أم لا؟ هل أساء الظن بأحد أم لا؟

والآن هل تدل آيات الكتاب المجيد على عصمة هذه الذوات المقدّسة أم لا؟

هناك آيات متعددة تستفاد منها عصمتهم، نشير إلى آيتين منها، يقول عزّوجلّ:

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ

مِنكُمْ...﴾(٤٦).

وتوجد روايات عديدة منقولة عن طريق أهل السنة تنقل إن النبي(ص) فسّر «أولي الأمر» بالأئمة الاثني عشر، وأما روايات الشيعة في هذا المضمار فهي إلى ما شاء الله.

وبغضّ النظر عن الروايات، فهل نستطيع من خلال الآية الكريمة إثبات العصمة لأُولي الأمر؟ ثمّ ننظر بعد ذلك لنرى من هم هؤلاء في مقام التطبيق.

فالآية تبدأ بوجوب طاعة الله، وهي تتحقّق بتطبيق الأحكام التي أنزلها الله وعدم مخالفتها. ثمّ تأمر بطاعة الرسول وأولي الأمر. ولطاعة الرسول (ص) ناحيتان: إحداهما تتعلّق بطاعته فيمايوصله إلى الناس من الرسالة الإلهيّة، أيْ في مجال الأحكام المنزلة من الله، وطاعة النبي(ص) هنا في الواقع من جهة كونه واسطة في الإبلاغ، وفي الحقيقة هي طاعة لأمر الله ونهيه.

والثانية تتعلّق بطاعته من جهة أنّه يتمتع بمقام الولاية والحكومة.

فنحن لسنا مكلفين بطاعة النبي فيما يبيّنه لنا من الأحكام الكلية المنزلة من قبل الله فحسب، وإنما نحن مكلّفون أيضاً بطاعته في كل ما يتعلق بتدبير المجتمع، ولا بدّ من تنفيذ أوامره ونواهيه الصادرة منه بما أنه وليّ الناس وحاكمهم.

توضيح ذلك: أحياناً يتلو النبي الأكرم (ص) آية من القرآن تدل على حكم من الأحكام الإلهية، ونحن نفهم أن هذا الشيء واجب لأن الله أنزله ولا بدّ من طاعته كالصلاة والصيام وغيرهما، فتنفيذ هذه الأوامر طاعة لله وطاعة لرسوله لأنه المبلّغ لهذا الأمر. فأصل النبوّة والرسالة لا يقتضي أكثر من هذا، بمعنى أنه يقتضي التسليم بما جاء به من رسالة إلهية.

وأمّا إنّه هل تجب طاعته في كل ما يأمر به أم لا؟

فهذا مما لا يقتضيه أصل الرسالة، وإنّما يحتاج إلى دليل آخر.

(٤٦) النِّسَاء: ٥٩.

فإذا جاء في رسالته ما يدل على وجوب طاعته في كل ما يأمر به عندئذ يثبت له منصب آخر، ولا بدّ حينئذ من طاعته حتى في غير ما نزل من الله مباشرة بمقتضى هذا المنصب.

وبعد اثبات رسالة النبي الكريم (ص) نلاحظ فيها قوله عزَّ وجلّ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللهِ﴾(٤٧).

وهذا دليل نقلي يثبت وجوب طاعة أيّ رسول. ولو لم تنزل مثل هذه الآية فإن مجرّد اثبات البرهان العقلي لكون هذا نبياً لا يكفي لإثبات وجوب طاعته في كل شيء إلّا انه لّما كانت في أيدينا هذه الآية وأمثالها فإننا نقول بوجوب طاعة الرسول مطلقاً معتمدين على هذا الدليل النقلي.

إذن هناك أوامر ونواهٍ تصدر من النبيّ الأكرم (ص) تتعلّق بالحكومة وإدارة أُمور الناس لا بدّ من طاعتها من جهة كونه وليّاً للأمر، وهذامنصب آخر يتمتع به.

وكذا إذا قضى في أحد الموارد فإنه يجب التسليم لقضائه لأنه قاضٍ من قِبل الله.

وبهذا التحليل تثبت له ثلاثة مناصب: احدها منصب الحكومة بمعنى أنه ولي أمر المسلمين ومدبّر أُمورهم وسائس مجتمعهم.

الثاني هو منصب القضاء وهو الحكم بين المتخاصمين.

الثالث هو منصب الرسالة والنبوة.

ولكل منها أدلّته الخاصّة به ولسنا الآن بصدد بيانها:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللهُ﴾(٤٨).

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾(٤٩).

(٤٧) النِّساء: ٦٤.
(٤٨) النِّساء: ١٠٥
(٤٩) النساء: ٦٥.

فهذا هو منصب القضاء حيث يجب على المؤمنين جميعاً الاستسلام لقضاء النبيّ (ص).

وكذا بالنسبة لولاية الأمر وتدبير المجتمع فكل أمر يصدر منه (ص) للمجتمع المسلم لا بدّ من طاعته:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾[٥٠].

وتوجد آيات أُخرى تفيد هذا الأمر، من جملتها: ﴿أَطِيعوا ٱللهَ وَأَطِيعوا الرَّسولَ وأولي الأمر منكم﴾.

فقد تكرر فعل الأمر «أطيعوا» واختصّ احدهما بالله وكان الثاني شاملاً للرسول ولأولي الأمر. ويستظهر من هذا (أي من جمع الرسول وأولي الأمر في طاعة واحدة) شأن أولي الأمر ما هو؟ ومن الواضح أن اولي الأمر هم الذين يتمتعون بحق حكم الناس وإدارة أُمورهم، وما دام الأمر بوجوب طاعة النبي واولي الأمر واحداً إذن يفهم من هذا أن وجوب طاعتهم يتعلّق بولاية الأمر وتدبير شؤون المجتمع. فالرسول وأولوا الأمر مشتركون في هذه الجهة وهي وجوب طاعتهم من قِبل الله.

فهل هناك قيد أو شرط آخر أم لا؟

ان الآية مطلقة فكما أنها لا تقيّد وجوب طاعة الله بشيء فإنها لا تقيّد وجوب طاعة الرسول وأولي الأمر بأيّ قيد.

ان هذه الآية تدل من ناحيتين على كون وجوب طاعة اولي الأمر مطلقاً:

احداهما إطلاق أطيعوا وعدم تقييدها بشيء، والثانية اقتران طاعة اولي الأمر بطاعة الرسول، وطاعة هذين بطاعة الله تعالى، فيفهم من هذا كله إن كل ما يأمر به هؤلاء وينهون عنه فهو واجب الطاعة مطلقاً. فلو كان هؤلاء ممن يحتمل صدور المعصية منهم ولم يكونوا معصومين فلعلّ أمرهم أو نهيهم يتعلق بمعصية ويخالف الحكم الإلهي، وعندئذ لا يصحّ أن تكون طاعة الله واجبة وطاعتهم أيضاً. فمقتضى «أطيعوا الله» هو

(٥٠) الأحزاب: ٦.

وجوب طاعته في كل ما يأمر به حتى وإن كان أمر الآخرين ونهيهم بخلافه، وكذا «أطيعوا الرسول وأولي الأمر»، فإنها تقتضي وجوب طاعتهم مطلقاً. فلو كان أمر هؤلاء ونهيهم مخالفاً لأمر الله ونهيه فمقتضى الاطلاق إنه يجب طاعته أيضاً، وعندئذ يلزم ان يكون عندنا أمران متناقضان في مورد واحد، كما لو فرضنا ان النبيّ الأكرم (ص) قد أمر بمعصية ـ والعياذ بالله ـ، فمقتضى «أطيعوا الرسول» هو وجوب ارتكابها، فقد تعلّق تكليفان متضادّان بشيء واحد، وهو غير ممكن.

إذن في الآية دلالة على ضمان من الله جلّ وعلا بأن أوامر الرسول وأولي الأمر لا تتنافى اطلاقاً مع الأوامر الإلهية، ومعنى هذا إنهم معصومون.

قد يتخيّل أحد أن هذا اطلاق وهو قابل للتقييد أو عام قابل للتخصيص، فيصبح المعنى: أطيعوا الرسول واولي الأمر منكم إلّا فيما خالف الله.

ويتمّ تقريب هذه الشبهة بهذه الصورة وهي أننا نلاحظ في القرآن كثيراً من المطلقات والعمومات وقد خُصّصت أو قيّدت بأدّلة أُخرى عقلية أو نقليّة. ويوجد دليل نقلي يقول:

«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

فيكون هذا مخصّصاً لذلك العام.

وهناك دليل عقلي وقرينة لبيّة على أن مخالفة الخالق عزّ وجلّ ليست جائزة في أيّ حال من الأحوال، فيكون مقيّداً لذلك الاطلاق أو مخصّصاً لذلك العام، فالآية لا تدلّ إذن على عصمتهم.

إلّا انّ هذا فرض ذهنّي وليس حقيقة خارجيّة، فنحن أحياناً نفرض في أذهاننا أنّ العام قابل للتخصيص والمطلق قابل للتقييد، لكننا في بعض الأحيان ننظر إلى عام أو مطلق في الخارج فنجده بصورة تأبى التخصيص والتقييد، ولو قمنا بتخصيصه أو تقييده لاستهجنه العرف. ولهذا يقول فقهاؤنا رضوان الله عليهم إن بعض العمومات يأبى التخصيص مع اعترافهم بأن ما من عام إلّا وقد خصّ. أيّ أن العرف يفهم منه عموماً بحيث لو قمنا بتخصيصه لعدّ ذلك مناقضاً له وليس مخصّصاً.

وما نحن فيه هو من هذا القبيل، فالآية تعلن:

﴿وما أرسلنا من رسول إلاّ ليطاع بإذن الله﴾.

ويفهم منها ان كل ما يقوله الرسول لا بدّ من طاعته. فلو قال بعد ذلك: «لا تطع الرسول فيما يخالف أمر الله».

فإن العـرف يجد تناقضاً بين هذين النصّين لأنه يفهم من الآية عدم جواز مخالفته مطلقاً.

وبالإضافة إلى ذلك فإن دأب القرآن الكريم في المجالات المهمّة التي هي مورد شبهة إذا أراد التخصيص أو التقييد فإنه يصرّح به.

فنجده في بعض الموارد التي هي أقل اهميّة مما نحن فيه بكثير، عندما يلاحظ لقرآن أن العموم فيها قد يُساء استغلاله فإنه يصرّح بالتخصيص.

مثلاً في مجال برّ الوالدين فإن الآيات تجعله إلى جانب عبادة الله:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[٥١].

ولّما كان هذا النص قد يوقع الإنسان في الشبهة فلا يدري ماذا يعمل لو أمره والـداه بالكفّ عن الـواجب الشرعي أو بارتكاب المحرّم شرعاً فإنه تعالى يكمل الموضوع بقوله:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا...﴾[٥٢].

وكذا ما نحن فيه فلا ريب أن هناك أُناساً سوف يستغلّون الوضع ويفرضون آراءهم على الناس بعنوان انهم من اولي الأمر، ومن المعروف أن من يصل إلى السلطة فهـو يحبّ أن يفرض نظرياته على الناس ويبحث عن مصالحه ومنافعه، فإذا قال القرآن بصورة مطلقة: اطيعوا اولي الأمر منكم، من دون أيّ قيد أوشرط فان ذلك يكون من غير دأب القرآن وطبيعته.

(٥١) الإسْرَاء: ٢٣.

(٥٢) العنكبوت: ٨.

ويعتبر هذا الموضوع واضحاً إلى الحدّ الذي لم يشكّك فيه الفخر الرازي الملقّب بـ «إمام المشكّكين»، فهو يعترف بدلالة الآية الكريمة على عصمة أولي الأمر ويقول:ان الآية لا تنسجم إلاّ مع عصمتهم، ولكنّه يخطىء في تطبيق اولي الأمر وتعيين مصداق هذا العنوان حيث يقول:إن المقصود من اولي الأمر هم أهل الحلّ والعقد في المجتمع الإسلامي.

وهذا دليل على حجّيّة الإجماع وإنه كلّما أجمع أهل الحلّ والعقد على أمر فهو معصوم عن الخطأ وموافق للواقع قطعاً.

ثمّ يذكر شبهات على كون المقصود من أولي الأمر أشخاصاً بعينهم، وقد تعرّض لها المرحوم العلاّمة الطباطبائي في تفسير الميزان وأجاب عليها، ونحن لا نطيل البحث فيها. ونعيد الراغب إلى تفسير الميزان وكتاب «الإمامة والولاية في القرآن الكريم».

وعلى كل حال فالآية دليل على عصمة أفراد من هذه الأمّة وهم الذين يسمّيهم القرآن بـ «أولي الأمر». ويعود تعيين مصداق هذا العنوان إلى النبيّ الأكرم (ص) حيث نأخذ منه تفاصيل جميع الأحكام.

وقد كان في زمان الأئمة الطاهرين (ع) بعض المخالفين يشيعون بعض الشبهات فيقولون مثلًا: لو كان الأئمة الاثنا عشر قد نصّبهم الله وطاعتهم واجبة فلماذا لم تذكر أسماؤهم في القرآن؟

وترد هذه الشبهة على ألسنة بعض المعاصرين أيضاً.

والإمام المعصوم (ع) يعلّم الناس كيف يجيبون عليها فيقول:

لقد جاء في القرآن الأمر بالصلاة، لكنّ هل عيّن عدد ركعات كل صلاة؟ فممّن يسأل الناس ذلك؟ أليس من واجبهم أن يسألوا النبيّ عنه:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٥٣].

(٥٣) النّحل: ٤٤.

فالنبيّ (ص) هوالمبيّن لتفاصيل الأحكام. وقد شرّعت الزكاة، فهل في القرآن ما يدل على أن في كل أربعين درهماً يوجد درهم واحد يُدفع بعنوان أنه زكاة لها؟ كلّا، وإنما الروايات عن النبيّ (ص) هي التي تعيّن مقدار الزكاة. وكذا في الحجّ فهل في القرآن ما يدل على عدد أشواط الطواف أم لا بدّ من معرفة عددها من النبي (ص)؟

ونفس الشيء جارٍ في هذه الآية فهي تصرح بوجوب طاعة اولي الأمر لكنّ تعيينهم يكون على عاتق النبيّ الأكرم (ص) وقد سألوه فعيّنهم، وفي روايات أهل السنة أيضاً كما عن الحمويني أن الرسول (ص) قد فسّر هذه الآية بالأئمة الاثني عشر وسماهم واحداً واحداً[٥٤].

وفي القرآن الكريم آية أُخرى تدل على عصمة أهل البيت (ع) وهي قوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٥٥].

ويكون الاستدلال بهذه الآية بهذا الشكل وهو أنها خطاب لفئة تسمّيها الآية بأهل البيت، والله يريد تطهيرها وذلك أمر منحصر بها، وصحيح أن الله يريد تطهير جميع الناس لكن هذه الإرادة تشريعيّة ولا تلازم التحقّق. ففي مجال الغسل والوضوء يقول تعالى:

﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ...﴾[٥٦].

وهي إرادة تشريعيّة لا يوجد ضمان لتحقّقها حتمًا.

إذن لو كانت تلك الإرادة الواردة في سورة الاحزاب إرادة تشريعيّة للتطهير لما كانت مقصورة على فئة معيّنة وانما كانت شاملة للجميع، فهذه الإرادة المختصّة بمجموعة معينة إذن إرادة تكوينيّة وهي لا تنفك عن التحقّق اطلاقاً. فالله أراد بالإرادة التكوينيّة أن تكون فئة من هذه الأُمّة (أهل البيت) طاهرة ولا بدّ أن تتحقق

(٥٤) غاية المرام ب ٥٨: ٤/٢٦٤.

(٥٥) الأحزاب: ٣٣.

(٥٦) المائدة: ٦.

فيهم الطهارة المطلقة، ﴿ويطهّركم تطهيراً﴾، كلام دال على المبالغة في التطهير. فمن هم هؤلاء؟

تخيّل بعض أهل السنة وحتى بعض المنتسبين للتشيع أن المقصود منهم أزواج النبي (ص)، بقرينة الجمل السابقة لأنها خطاب إلى نساء النبي (ص)، فالإرادة إذن تشريعيّة لأنه لا يدّعي أحد عصمتهنّ، والقرآن يصرح بعدم عصمتهنّ وحتى أن بعضهنّ قد آذى النبيّ (ص) وقد هدّد القرآن من يؤذيه منهنّ، فلا دلالة في الآية على عصمة أحد.

الجـواب: أوّلاً: أن سياق نفس الآية يدل على أن الخـطاب ليس لنساء النبي (ص) لأن الجمل السابقة كانت الضمائر فيها مؤنثة، وفي هذه الجملة فحسب يقول: ﴿ليذهب عنكم﴾، ولو كان الخطاب لنساء النبي فلا وجه لتغيير الضمير.

وبغضّ النـظر عن هذا فإن هناك أكثر من سبعين رواية عن طريق السنّة والشيعة، وكثير منها صحيح السند تقول إن الآية مختصّة بالخمسة الطيّبين (ع)، وقد نزلت هذه الجملة مستقلّة عن سابقاتها. إذن لا يرتاب المنصف في دلالتها على طهارتهم بالـذات عن الذنوب الصغيرة والكبيرة لأنها مقتضى الإرادة الإلهية التي تجلّ عن التخلّف وهذا هو معنى العصمة.

ومعنى كون هذا متعلّق الإرادة التكوينيّة لله إنه سوف يتحقّـق حتماً وقد تحقّق، وليس معناه إنهم مجبرون عليه. وقد أوضحنا في باب الإرادة التكوينية لله إنها متعلّقة بكل ما يجري في العالم سواء عن طريق اختيار الفاعل المختار أم عن طريق الفاعل الـطبيعي الجبري القسري. فكل ما يتحقّق في العالم قد تعلّقت به الإرادة الإلهية التكوينية ولكن هذه الإرادة في طول إرادة الفاعل المختار.

فعندما يقول هنا قد تعلّقت الإرادة الإلهية التكوينية بتطهير أهل البيت فليس معناه أنهم مجبرون عليها، وإنما هو ضمان من الله سبحانه بأن هؤلاء سوف لا يذنبون باختيارهم فتحقّق لهم الطهارة.

وأما إدعاء أن هذه الآية نازلة بحقّ أزواج النبي فمن الطريف أن أهل السنّة

يذكرون في رواياتهم عن أم سلمة وعائشة انه عندما نزلت هذه الآية سألتا النبي: وهل نحن من أهل البيت؟ ينقل تفسير الثعلبي عن عائشة إنها سألته (ص): أنا من أهل بيتك؟ قال (ص): «تنحّي أنت على خير!» ولم يجبها بالإيجاب، فهذه الآية لا تشمل أزواجه إذن، ومع ذلك يظهر داروينيّون أشدّ من دارون ليزعموا أنها نازلة في أزواج النبي وأنها لا تدل على العصمة، نسأل الله لنا ولهم الهداية للحقّ إن كانوا حريصين عليه.

أساس الدين

يستفاد من القرآن الكريم أن تيّار النبوّة تيار واحد من جهة أن الأنبياء جميعاً مبعوثون من قِبل الله، ومن جهة أن أساس دعوتهم واحد. فمحتوى النبوّة الذي نسمّيه بالدين قائم على أصل واحد وهو ضرورة عبادة الله الأحد ووجوب طاعته، وبعبارة أخرى ضرورة التسليم المطلق والانقياد بلا قيد ولا شرط لله الواحد القهّار. فالأديان السماوية كلها تمثّل ديناً واحداً وهو الإسلام.

ومن الواضح ان هذا لا يعني عدم وجود اختلاف في محتوى الوحي لجميع الأنبياء في جميع الأزمنة والأمكنة، فقد تختلف جزئيات الأحكام في الأزمنة المتفاوتة أو الأمكنة المختلفة أو الأقوام المختلفين، إلّا أن أساس الجميع واحد وهو عبادة الواحد القهّار وطاعة أوامره ونواهيه:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللهِ ٱلإِسْلَامُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِأَيَاتِ ٱللهِ فَإِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ وَٱلْأُمِّيِّنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَٱللهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ﴾[1].

فروح دعوة الأنبياء جميعاً هو هذا الإسلام:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ

(١) آل عمران: ١٩ و ٢٠.

وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَى لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٢].

إذن حقيقة الإسلام هي قبول أوامر الله مهما كانت. ولكن هل إن أوامره بشكل واحد دائماً أم هي مختلفة؟ تلك مسألة أخرى، ففي الدين الواحد قد تتفاوت الأحكام من زمان إلى زمان آخر، ففي الدين الإسلامي كان المسلمون يصلّون إلى بيت المقدس في البدء ثمّ غيّر الله قبلتهم إلى الكعبة الشريفة، فلم يتغيّر الدين ولكن تغير الأمر الإلهي فالإسلام الآن هو هذا لأنه طاعة أوامره، فقد تختلف التفاصيل ولكن الأسس واحدة:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى﴾[٣].

وبناءً على هذا نقول إن روح دعوة جميع الأنبياء هو الإستسلام لله عزَّ وجلّ وهو ما تقتضيه فطرة الإنسان السليم، حتى ينسجم مع جميع الموجودات، فهي مستسلمة لله كرهاً لكن الإنسان يستسلم لله طوعاً وبإرادته:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذَلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[٤].

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ...﴾[٥].

وبناءً على هذا فإنه يجب على الإنسان الإستسلام لما ينزله الله من آيات ولمن

(٢) البَقَرَة: ١٣٠ ـ ١٣٣.

(٣) لقمان: ٢٢.

(٤) الرُّوم: ٣٠.

(٥) الرُّوم: ٤٣.

يبعثه الله من الرسل، ولا يجوز أن نفرّق بين نبي ونبي آخر، بين كتاب وكتاب آخر، بين شريعة إلهية وشريعة أخرى. فإذا كنّا مستسلمين لله فكل ما ينزله لا بدّ من طاعته.

وقد بيّن القرآن الكريم هذا الموضوع بهذه الصورة وهي ان الله عندما يوحي إلى الأنبياء فإنه يأخذ منهم ميثاقاً في تأييد الأنبياء الآخرين، وكل نبي لاحق لا بدّ أن يؤمن بالنبي السابق عليه. وكذا المؤمنون لا بدّ أن يصدّقوا بمحتوى الوحي المنزل على الأنبياء الماضين:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّنَ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ ءَامَنَّا بِٱللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾[٦].

﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٧].

إن الدين تيّار واحد من نوح (ع) إلى محمّد (ص) وهو تنفيذ أوامر الله في الحياة من دون إدخال الأذواق الشخصيّة فيه حتى لا يكون اختلاف، وأمّا الذين

(٦) آل عمران: ٨١ ـ ٨٥.
(٧) الشورى: ١٣.

اختلفوا بعد ذلك وتفرّقوا إلى فئات ومذاهب فقد أثّرت عليهم عوامل نفسيّة خاصّة، ولم يكن الاختلاف بسبب الله ولا بفعل الأنبياء وأنما هو ناشىء من البغي والظلم:

﴿وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ...﴾[٨].

وفي الآية اللاحقة يواصل تعالى قوله:

﴿... وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ ٱللهُ مِن كِتَابٍ...﴾[٩].

فلا تعارض بين الكتب الموحى بها من قِبل الله فهي دعوة واحدة.

ويقول سبحانه في وصف المتقين:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[١٠].

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِٱللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ* فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١١].

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ..﴾[١٢].

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾[١٣].

(٨) الشورى: ١٤.

(٩) الشورى: ١٥.

(١٠) البَقَرَة: ٤.

(١١) البَقَرَة: ١٣٦ و١٣٧.

(١٢) البَقَرَة: ٢٨٥.

(١٣) النِّسَاء: ١٣٦.

إذن من لا يتمتّع بهذا الإيمان والتسليم المطلق بلا قيد ولا شرط فإن إيمانه لن يُقبل منه. وقد ذكرنا في موضوع التوحيد أن المؤمن الموحّد لا بدّ أن يعتقد بالتوحيد في الخالقية والربوبية التكوينيّة والربوبيّة التشريعيّة، فمن سلّم بالتوحيد في الخالقية لكنه لم يسلّم بالتوحيد في الربوبية فكانه لم يوّحد اطلاقاً، ولن يقبل منه توحيده. فيجب أن يقبل بهذا المركب، ومن الواضح انه ليس مركّباً في الواقع، وأنّما يحصل من تحليله إلى هذه المفاهيم المختلفة، فالإيمان بالله عندما نحلّله نظفر بهذه الأمور. ومثلنا هناك بالشيطان حيث أنه كان مؤمناً بالله لكنه أحطّ من جميع الكفّار والمشركين لأن إيمانه لم يصل إلى الحدّ الأدنى المطلوب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقّاً وَٱعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[١٤].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِٱللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾[١٥].

ولا يكتفي القرآن بهذا المقدار في وصف أهل التفرقة في الدين والتفرقة بين الكتب والرسل، وإنما هو يعدّ التفرقة شركاً:

﴿... وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[١٦].

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[١٧].

(١٤) النِّساء: ١٥٠ ـ ١٥٢.

(١٥) المائدة: ٥٩.

(١٦) الرُّوم: ٣١ و٣٢.

(١٧) الأنعام: ١٥٣.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[١٨].

وهذا يلقي الضوء على مفهوم هذه الآية الشريفة:

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ...﴾[١٩].

أيّ التفرّق عن دين الله وسبيله، فهو المؤدّي إلى الاختلاف، والذي يؤدّي إلى الوحدة هو الكون في سبيل واحدة والاتجاه نحو هدف واحد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[٢٠].

وبناءً على هذا فان مقتضى الإسلام هو قبول كل ما أنزل الله على جميع الأنبياء في مختلف الأزمنة. وهذا بنفسه شاهد على أنه لا تناقض ولا تعارض في محتوى ما جاء به الأنبياء (ع). ولو كان قبول دعوة أحدهم يؤدّي إلى إنكار دعوة الآخر لما كان من الممكن قبولها جميعاً، فإذا كُلّفنا بقبولها جميعاً فمعنى ذلك أنه لا اختلاف بينها اطلاقاً. وإذا لاحظنا بينها اختلافاً في الأحكام الجزئية فإن معنى ذلك أن هذا الحكم كان ساري المفعول إلى هذه المدّة أو أنه مختصّ بفئة معيّنة. والآخرون يقبلون أن هذا الحكم مختص بهؤلاء، فالإيمان بالتوراة الآن مثلاً لا يعني وجوب العمل بها في الوقت الراهن، وإنما معناه أن ما نزل على بني إسرائيل في التوراة وهو مختص بهم صحيح وحقّ، وهو يتعلّق بهم ولا بدّ لهم من تنفيذه، وأمّا عملنا بالأوامر الإلهيّة فهو يقتضي أن ننظر ماذا يريد الله منّا في هذا الزمان.

فالإيمان بأيّ نبي يقتضي الإيمان بسائر الأنبياء أيضاً، فهو تيّار واحد ليس أكثر. فالمؤمن حقّاً بموسى (ع) أو عيسى (ع) أو إبراهيم (ع) لا بدّ أن يؤمن أيضاً بسائر الأنبياء. ألم يبشّر موسى بالنبي الذي يلحقه؟ أمَا بشّر عيسى (ع) بمحمّد (ص)، فكيف يؤمن شخص بعيسى (ع) لكنه لا يؤمن بالنبي اللاحق الذي بشّر به عيسى؟ إن الإيمان بهذا هو في الواقع إيمان بعيسى، وتكذيبه تكذيب

(١٨) يس: ٦١.

(١٩) آل عمران: ١٠٣.

(٢٠) الأنعام: ١٥٩.

لعيسى (ع). إذن من كان في زماننا هذا تابعاً لنبي من الأنبياء السابقين إذا تمت الحجّة عليه وأثبتت له نبوة رسول الإسلام (ص) فإن مقتضى إيمانه بالنبي السابق أن يؤمن بالنبي اللاحق محمّد (ص). فاليهودي الواقعي في زماننا هو المسلم الحقيقي، لأن مقتضى كونه يهودياً هو أن يقبل كل ما جاء به موسى (ع) وقد أمر بالإيمان بعيسى (ع) بعده، ومن جملة دعوة عيسى (ع):

﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٢١].

فالمسيحي الحقيقي في عصرنا هو من يقبل بنبوّة محمّد (ص). إنه الإسلام والتسليم المطلق لله.

ولكن هذا لا يعني أننا في هذا الزمان أحرار في إتباع اليهودية أو المسيحيّة أو الإسلام، لأن معنى هذا قبول بعض ما أراده الله، والإسلام هو قبول كل ما يقوله الله من دون قيد ولا شرط، وحينئذ لا يكون أيّ اختلاف، لأن موسى (ع) نبي ولا بدّ من طاعته إلى الفترة المعينة من قِبل الله. فإذا تغيّرت بعض الأحكام في الزمان اللاحق له فلا بدّ من طاعة الأحكام الجديدة، وهكذا فالاختلافات الجزئية لا تجعل الدين الواحد أدياناً متضاربة.

ويؤكّد القرآن في أكثر من آية على أن الاختلاف في الدين يوجد بسبب البغي وليس بسبب أن الأديان مختلفة، فالأهواء النفسية والأغراض الشخصيّة هي المؤدّية إلى الاختلافات وعلماء أهل الكتاب يعلمون ذلك:

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ...﴾[٢٢].

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾[٢٣].

(٢١) الصَّف: ٦.
(٢٢) البَقَرَة: ٢١٣.
(٢٣) آل عِمْرَان: ١٩.

﴿وَءَاتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾(٢٤).

﴿وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾(٢٥).

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾(٢٦).

فالحجّة لله تامّة على الناس حيث رسم للناس خطّاً واحداً وكلّفهم بدين واحد وأرسل الأنبياء متلاحقين يدعون إلى ذلك الدين وليس هناك اختلاف من قبل الله ولا من ناحية الأنبياء، وانما تحدث الاختلافات بيد الناس ولا سيّما أهل الكتاب بسبب عصيانهم وطغيانهم.

وبالالتفات إلى هذا الموضوع يظهر الجواب على الشبهة التي تُتوهّم من بعض الآيات، فهناك مثلاً آية تقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّبِئُونَ وَٱلنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلأَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢٧).

وتوهّم البعض من هذه الآية أن الله يقبل من الإنسان في هذا الزمان أيّ دين من الأديان.

ولكن هذا غير صحيح، لأنه لو ثبت لإنسان صحّة الدين اللاحق (وأما إذا لم تثبت له فهو مستضعف وتلك مسألة أُخرى) ولم يقبله:

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٢٨).

لأنه كان يعلم أنه دين الله فرفضه ولم يطع أوامره، فإنكار بعض الأنبياء بمنزلة إنكار الجميع. فالإسلام الذي يأمر بالإيمان بجميع الأنبياء ويرى أن استثناء واحد

(٢٤) الجاثية: ١٧.

(٢٥) الشورى: ١٤.

(٢٦) البيّنة: ٤.

(٢٧) المائدة: ٦٩.

(٢٨) آل عمران: ٨٥.

منهم يعني إنكار الجميع، لا معنى لأن يقول لا مانع من بقاء اليهودي على دينه السابق، لأنه تناقض، ولا يقرّ الإسلام المسيحيّة واليهودية في هذا الزمان. نعم إذا عمل إنسان بدين في زمانه فهو مقبول منه، وكذا في هذا الزمان إذا وجد مستضعفون يعملون بما تمّت الحجّة به عليهم فإنهم معذورون عن بقية الأحكام، وأما إذا تمت الحجّة على شخص أو قصّر في مجال المعرفة فإنه حتى لو طبّق الدين السابق حرفيّاً ﴿فلن يقبل منه﴾.

وتمسّك المتوهّمون بآية أخرى أيضاً:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ والصَّبِئِينَ وَٱلنَّصَارَى وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ إِنَّ ٱللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[(٢٩)].

إلّا أنّ من الواضح كون هذه الآية غير مؤيّدة لهم، لأنها تذكر «الذين أشركوا» ضمن المذكورين فيها، فهي تريد أن تؤكّد على أن هؤلاء مختلفون ولا يقبلون الآن الحقّ، فسوف يأتي يوم يحكم فيه الله بينهم ويعطي كلّاً منهم جزاءه. وليس في الآية ما يفيد تأييدهم، لأن معهم المشركين، والله يقول:

﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[(٣٠)].

وكذا في الآية السابقة فهي تريد أن تبيّن أن إتخاذ اسم اليهودية أو النصرانية ليس ملاكاً للفوز عند الله، وأنما المعيار هو الإيمان بالله والعمل على ضوء أوامر الله مهما كان الاسم الذي يتخذونه لأنفسهم، والإيمان بالله يعني الإيمان بكل ما أنزله الله وإلّا فهو الكفر به وبآياته. ولو فرضنا وجود إبهام في هذه الآية فهي من المتشابهات ويمكن حلّ تشابهها بالرجوع إلى المحكمات. ولكننا نرى أن التعمّق في نفس الآية يفيد أن هذه العناوين والتكتّلات ليست مقياساً للسعادة أو الشقاء، فالله سبحانه لا

(٢٩) الحجّ: ١٧.

(٣٠) النّساء: ٤٨.

ينظر إلى الأسماء وأنما ينظر إلى إيمان الإنسان بالله واليوم الآخر وينظر إلى عمله الصالح وهو ما يأمر به الله، والعمل الصالح في كل زمان هو ما يطابق أوامر الخالق عزّ وجلّ لذلك الزمان (ومن الواضح أن هذا لمن تمّت الحجّة عليه).

وبالإضافة إلى هذا فإن القرآن الكريم لا يكتفي بفرض النضال ضد الكفار والمشركين المنكرين للأديان وانما يأمر أيضاً بقتال أهل الكتاب حتى يسلّموا بالدين الحق أو يعطوا الجزية وحينئذ تكون لهم حقوق من يعيش في ظل الدولة الإسلامية، ولكنّ هذا لا يعني أنّـه يضمن لهم السعـادة الأخروية، ولو كان دينهم مقبولاً عند الإسلام الآن فلماذا يأمر بقتالهم:

﴿قَـاتِلُوا ٱلَّـذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٣١].

وعند الشيعة روايات تؤكّد على كون هذا الحكم مختصّاً بذلك الزمان، ثمّ أعقبه حكم يرفض قبول الجزية منهم، وهو من جملة الأحكام التي سيبيّنها وينفّذها الإمام المهدي (ع) فهو سيتعامل معهم معاملة الكفّار.

وعلى كل حال لا شك أن سائر الأديان ليست مقبولة في هذا الزمان من وجهة نظر القرآن، لأن الدين الحق هو الذي يقبل جميع الأنبياء ويسلّم بصحّة جميع الكتب الإلهية.

والآن هل جُعلت الأديان في الواقع مختلفة من قبل الله أم لا؟

فهنا عدّة مسائل:

احـداهـا: هل هذه الإختـلافـات الموجودة اليوم بين الأديان في الأحكام والشرائع كلها من قِبل الله أم لا؟

والجواب هو أن كثيراً من المواضيع المدرجة في سائر الأديان محرّفة، والقرآن

(٣١) التّوبة: ٢٩.

يصرّح بأن علماء أهل الكتاب قد وضعوا أشياء من أنفسهم ثمّ نسبوها إلى الله وكتبوها بأيديهم وقالوا هذا كتاب الله. وهذا ثابت حتّى من الناحية التاريخية، وتوجد شواهد عديدة تؤيد ذلك، من جملتها التناقضات الموجودة بينها، ولّما كان منهجنا لا يتطرّق للتحقيق التاريخي لذا نحيل الراغب في التوسع إلى الكتب المتخصصة في هذا المجال، ومن أروعها كتاب «الهدى إلى دين المصطفى» تأليف المرحوم العلّامة الشيخ محمّد جواد البلاغي رضوان الله عليه.

وفي القرآن الكريم آيات تدل على أن أهل الكتاب قد حرّفوا كلام الله:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَه مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣٢].

وقد يكون هذا التحريف لفظياً، ويحتمل أيضاً أن يكون معنوياً، بمعنى أنهم يحفظون صورة الكلام لكنهم يفسّرونه بآرائهم ويقسرونه على معاني منحرفة. ومن جملة الآيات التي تفيد التحريف اللفظي قوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[٣٣].

فالهدف من وراء هذا التحريف هو الظفر بمصالح ماديّة، ويحتمل أن هناك حكّاماً كانوا يبذلون الأموال لعلماء من أهل الكتاب ليضعوا لهم أحكاماً حسب ما تهوى أنفسهم ويقدّموها للمجتمع بعنوان انها أحكام الله.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِٱلْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣٤].

(٣٢) البَقَرَة: ٧٥.
(٣٣) البَقَرَة: ٧٩.
(٣٤) آل عِمْرَان: ٧٨.

إذن من وجهة نظر القرآن لا شكّ في تحريف كتب اليهود والنصارى، فما يوجد اليوم في أيديهم ليست هي الكتب الْمُنـزلة من قِبل الله. وهذا الأمر واضح جدّاً في الإنجيل. ولا بأس بالإشارة إلى نموذجين في هذا المضمار فقد جاء في التوراة أن موسى(ع) قد انتقل إلى جوار ربه في العام الكذائي.

وهنا نتساءل: لو كان هذا كتاباً منزلاً على موسى من قِبل الله فكيف يرد فيه هذا الخبر بهذه الصورة؟

وأمّا الإنجيل فالمسيحيون أنفسهم لا يدّعون أنه كتاب الله فهناك أربعة أناجيل الآن وقد كانت في السابق أكثر من هذه، وكل واحد منها باسم شخص. وتشيع فيها قصص من قبيل أن عيسى(ع) جاء في اليوم الكذائي واجتمع بتلامذته وتحدّث لهم عن الموضوع الفلاني ثم ذهب إلى مكان معيّن و... فهي تشبه كتب التاريخ. وغاية ما يدّعونه أن تلامذة عيسى بعد ذلك تفرّغوا لتنظيم الإنجيل بهذه الصور المعروفة. وكل من يمرّ بهذه الأناجيل مرور الكرام فسوف يتّضح له أنها كتب تاريخ وليست هي من كتب الله.

وما دامت هذه الكتب محرّفة فلا قيمة لها.

فأغلب الاختلافات الموجودة بين الأديان تعود إلى ما أدخلوه من تحريفات عليها. ولكنّ هذا لا يعني أن الأديان جميعاً كانت متّحدة في جميع الأحكام الجزئية، وفي هذا المجال يؤكد القرآن الكريم:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ...﴾[٣٥].

ظاهر الآية أن الأنبياء لم تكن لهم شريعة واحدة، فالحكمة الإلهية تقتضي إنزال أحكام مختلفة على الأمم المتفاوتة ليتمّ بذلك اختبارهم.

وتوجد في هذا الصدد آية أُخرى:

(٣٥) المائدة: ٤٨.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[٣٦].

فلكل أمة جعلنا طريقاً للعبادة فلا يجوز لهم أن يعارضوك على طريقتك. إذن جزئيات الأحكام لم تكن واحدة في جميع الأمم، فنحن مثلاً نصلي باللغة العربية فهل كان بنو إسرائيل يصلّون بها؟ لم يدّع أحد ذلك. وهل كُلّف هؤلاء بالصلاة إلى الكعبة المشرّفة؟ كلا. وفترة الصيام وعدد أيامه و... هناك روايات عديدة تشرح وجوه الاختلاف بين الأديان في مثل هذه المجالات. فالشريعة واحدة في أساس الأحكام، إلّا أن أشكال التطبيق وكيفياته فهي تختلف من دين إلى آخر.

فالقرآن ينقل عن عيسى(ع) عندما بعث إلى بني إسرائيل قوله:

﴿... وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ...﴾[٣٧].

ويتحدث الله عزَّ وجلّ عن النبيّ الأكرم (ص) فيقول:

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ...﴾[٣٨].

وفي الجملة يوجد تحليل وتحريم ونسخ في الأديان، ولا يعني هذا تكذيب بعضها لبعض، فكل منها حقّ في زمانه. وجميعها يمثّل ديناً واحداً وهو الإسلام ولا بدّ أن يؤمن به الجميع.

وتحسن الإشارة هنا إلى أن الإنسان عندما يقبل ديناً من الأديان فلا بدّ أن يسلّم بأحكامه جميعاً، وإنكار بعضها هو بمنزلة إنكار جميع أحكام الدين وجميع الأنبياء، يقول الله تعالى في توبيخ أهل الكتاب:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾[٣٩].

(٣٦) الحجّ: ٦٧.
(٣٧) آل عِمْرَان: ٥٠.
(٣٨) الأعْرَاف: ١٥٧.
(٣٩) البَقَرَة: ٨٥.

ويؤيّد هذا الموضوع أن المرتدّ يصبح كافراً بانكاره ضرورياً من ضروريات الإسلام، فيغدو دمه مهدوراً في هذه الدنيا، وفي الآخرة يُحشر مع الكافرين.

إذن لا بدّ أن نسلّم بدعوة جميع الأنبياء وبكل مضمونها، ويعدّ إنكار حكم من أحكامها بمنزلة إنكار الجميع ان كان المنكر عالماً عامداً.

معرفة الدليل

الأنبياء

لقد كان من فضل الله علينا أن وفقنا لبحث أربعة مواضيع من هذه الدراسة لحدّ الآن وهي: ١ـ معرفة الله. ٢ـ معرفة العالم. ٣ـ معرفة الإنسان. ٤ـ معرفة السبيل.

وهـذا هو الموضوع الخامس يأتي بعدها ويتناول معرفة الدليل وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين.

وفي القـرآن الكـريم آيات عديدة تدور حول الأنبياء، وهي تشكّل القسم الأعظم من تأريخ القرآن.

وتوجد هنا ملاحظة مهمّة ينبغي الالتفات إليها وهي أن الباحثين في التاريخ ـ سواء منهم الـذين يسجّلون وقائع التاريخ وحوادثه أو الذين يقومون بدراسات تحليليّة حول التاريخ ـ يجعلون الشؤون المادية للإنسان محوراً لبحوثهم.

فالـذين يسجّلون الحوادث التاريخية يجعلون السلاطين والحكام عادة محوراً للتاريخ، ويدرسونه حسب أحوال الحكام وما يلحقها من أوضاع المجتمعات والأمم. ويمكن القول أن محورِ هذه الدراسات هو موضوع الحكومة.

وأما الذين يقومون بدراسات تحليلية للتاريخ فهم يؤكّدون على أهّمية الناس والأمم في هذا المضمار.

فبعضهم يتّخذ الاقتصاد محوراً ـ كالماركسيين ـ ويحلل الأحداث التاريخية من خلال علاقتها بالاقتصاد، مدّعياً أنه العامل المحرّك للتاريخ، وأن التحوّلات الجارية

في المجتمع البشري تدور حول هذا المحور وتكون تابعة لوسائل الانتاج.

وهناك محلّلون للتاريخ آخرون يهتمون أيضاً بعوامل أُخرى، إلّا أنّ اهتمامهم جميعاً ينصبّ على الشؤون المادية للإنسان وكل ما يتعلق بحياته الدنيوية والحيوانية.

بينما القرآن الكريم يختصّ بهذه الميزة وهي أنه يجعل محور التاريخ أمراً معنويّاً، فعندما نتأمل في القصص التاريخية للقرآن نجد أنها مثل سائر المباحث القرآنية تدور حول محور التوحيد، وأبطال هذه القصص هم الأنبياء (ع). فدعوتهم وتأثيرها في المجتمع تكون أيضاً عن طريق طرح التوحيد وعبادة الله وطاعته وسائر الأمور المعنويّة.

وهذه ملاحظة مهمّة يعلمنا إياها القرآن حتى لا نكون اتباعاً مقلّدين للغير.

ففي الواقع تكون إنسانية الإنسان بما له من جهات معنوية، وحتى حياته الاجتماعيّة لا تغدو إنسانية إلّا من خلال علاقتها بالأُمور المعنوية.

فإذاحاول الباحث أن يتناول بالدراسة تاريخ الإنسان والمجتمعات البشريّة من زاوية بُعدها الإنساني فإن هذا يرتبط ـ شئنا أم أبينا ـ بعبادة الله جلّ وعلا.

والمواضيع التي يطرحها القرآن الكريم فيما يتعلّق بالأنبياء (ع) وأممهم يمكن تقسيمها إلى ثلاث فئات رئيسيّة، وكل فئة منها يمكن تقسيمها إلى قسمين أيضاً.

فالفئة الأُولى هي: تلك المواضيع التي تدور حول الأنبياء أنفسهم بغضّ النظر عن العلاقات القائمة بينهم وبين الناس.

والفئة الثانية: هي تلك الأُمور الدائرة حول علاقة الأنبياء بالناس، من قبيل التساؤل عن سلوك الناس إزاء الأنبياء وعن كيفية تصرّف الأنبياء مع الناس.

الفئة الثالثة هي: تلك المسائل التي تتعلّق بالأمم أنفسهم، فإلى أين انتهى أمر حياتهم؟ وما هي التحوّلات الطارئة عليها؟

ومن الواضح أن هذه الأُمور لا تكون منبتّة الصلة بدعوة الأنبياء إلّا أن الباحث هنا لا يلتفت إلى العلاقة المباشرة القائمة بين الأمم والأنبياء.

وتنقسم كل فئة من هذه الثلاثة إلى قسمين: أحدهما يتعلّق بالأحوال العامّة،

والآخر يرتبط بالأوضاع الخاصّة.

فالفئة الأولى وهي الدائرة حول الأنبياء تنقسم إلى قسمين: احدهما مشترك بين جميع الأنبياء، والآخر يتناول الأحوال المختصّة بكل نبي أو رسول على حدة.

وكذا الفئة الثانية وهي الدائرة حول علاقة الأنبياء بأممهم فلها قسمان: احدهما يتناول العلاقات المتبادلة بين جميع الأنبياء وأممهم، والآخر يتناول السلوك الخاص لكل أمة مع من بُعث إليها.

والفئة الثالثة: ـ وهي الدائرة حول مصير الأمم انفسها والتحوّلات الطارئة على حياتهاـ كذلك فإن لها قسمين: احدهما يتعلق بالناحية العامة لجميع الأمم، والآخر يتناول الجوانب الخاصّة لكل أمة على حدة.

ولو حاولنا دراسة هذه الأقسام الستة بشكل مفصّل لامتدّ البحث وطال، ولا يتناسب هذا مع دراستنا الحاليّة. ومن هنا فنحن نكتفي الآن بدراسة الناحية العامة في كل فئة من هذه الفئات، فندرس الناحية العامّة فيما يتعلّق بالأنبياء، والناحية العامّة فيما يتعلّق بأممهم.

فالقرآن الكريم يبيّن في آيات كثيرة منه أن الله قد بعث إلى الناس رُسلاً وهم كثيرون، وهو تارة يطلق على بعضهم اسم «النبي»، وأخرى اسم «الرسول»، وثالثة اسم «النذير»، ويصفهم بصفات أخرى إلّا أنها لا تعمّهم جميعاً، وحتى لو كانت عامّة فإنها لا تكفي وحدها لتعريف النبي. فهو مثلاً يطلق على النبي اسم «البشير»، ولكنه لم يعبّر عن النبي بالبشير وحده اطلاقاً، وأنما عبّر عنه بـ «النذير» وحده أحياناً. فمع أن البشير والنذير وصفان متقارنان في كثير من الآيات:

﴿فَبَعَثَ ٱللهُ ٱلنَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[2].

إلّا أن بعض الآيات تذكر النبي بعنوان أنه «نذير» فحسب:

(١) البَقَرَة: ٢١٣.

(٢) سَبَأ: ٢٨.

﴿وَإِن مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٣].
﴿إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَاْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[٤].

ولا توجد آية واحدة تصف المبعوث من الله بأنه «بشير» فحسب. ولهذا سرّ يتعلّق بالمجال النفسي التربوي، فهو يدلّ على أن الإنذار أهمّ من التبشير في مجال التربية الإنسانية، وبعبارة أخرى فإن لعامل «الخوف» تأثيراً أكبر في نفس الإنسان من عامل «الأمل»، ولا سيّما إذا أردنا إيجاد تغيير في حياته بحيث يكفّ عن سلوكه السابق بإرادته ويختار ما يقترحه عليه المربّي. فالإنذار مؤثّر أكثر من التبشير.

ولعلّ هذه الملاحظة هي وراء ذكر القرآن «النذير» وحده صفة للمبعوث من قبل الله، دون أن يفعل ذلك في «البشير».

وعلى أيّ حال فهناك ثلاثة أسماء عامّة (لا تختصّ بنبيّ معيّن) يطلقها القرآن على المرسلين هي: النبيّ، الرسول، النذير.

ومفهوم هذه الكلمات واضح إلى حدّ ما، فالنذير بمعنى المخوّف، لأنّ كل مرسل لهداية الإنسان وتربيته تكون دعوته مقرونة بـ «الإنذار»، أي انه المخيف الناس من عواقب عقائدهم السيّئة حتى يحول دون وقوعها، أو يخوفهم من عواقب عقائدهم وأفكارهم المنحرفة حتى يصحّحوها

والرسول هو من يحمل رسالة من شخص إلى آخر، ولا شكّ ان كثيراً من الأنبياء (وهو القدر المتيقّن) يحملون رسالة إلى الناس، فالله مرسِل، والنبي مرسَل أو رسول، والناس مرسَل إليهم.

وأما مفهوم «النبي» فهو يحتاج إلى توضيح: هناك اختلافات حول الجذر الذي اشتقّت منه هذه الكلمة، فبعض يقول إنها مشتقّة من«النَبْوَة» بمعنى المرتفع، وبعض يقول إنها من مادة «النبأ» بمعنى الخبر. ولعلّ الاحتمال الثاني أقوى، فمقام الوساطة بين الله والناس حينما يسمى بالنبوّة لا يتناسب مع معنى الرفعة، وان كان للأنبياء مقام

(٣) فاطر: ٢٤.
(٤) ص: ٧٠.

رفيع عند الله أو أنهم يحتلّون صدارة المجتمع الإنساني في المعنويات والجدارة الإنسانية، لكن هذا الوصف لا يتناسب في مجال وساطتهم بين الله والإنسان، ولهذا نرجّح ان النبي مأخوذ من مادة النبأ لأن لديه أخباراً لا يتمتع بها الآخرون وهي الأُمور الغيبيّة.

إذن نستطيع ان نفسّر معنى النبي بأنه المطّلع على الغيب ويتميّز بأخبار غيبيّة.

ثمّ ما هي العلاقة بين النبوّة والرسالة؟

ما هي العلاقة بين هذين المفهومين؟

وما هي العلاقة بين مصداق النبي ومصداق الرسول؟

فإذا كان بين مفهوم النبوة ومفهوم الرسالة نسبة العموم والخصوص المطلق فسوف تكون بين مصداقيها نفس النسبة، ولكنه بالالتفات إلى المعنى اللغوي لهذين المفهومين يتّضح أنه لا اشتراك بين هذين المفهومين، فالنبوة بمعنى الارتفاع أو بمعنى التمتّع بالأخبار لا تعنى مفهوم الرسالة، وكذا العكس.

نعم يلزم من الرسالة التي هي حمل تكليف من الله إلى الناس أن يكون المرسَل عالماً بهذا الخبر لكن ذلك ليس داخلاً في مفهوم الرسالة.

وأما إذا التفتنا إلى اللوازم فلا مانع من أن نقول إن مفهوم النبوة أعمّ من مفهوم الرسالة.

وأما من حيث المصداق فيستفاد من بعض الآيات أن بين النبوة والرسالة نسبة العموم والخصوص المطلق. ومع ذلك تبقى أُمور تحتاج إلى توضيح، منها إذا كان بين النبوة والرسالة ـ من حيث المفهوم ـ جهة اشتراك فإن هذا لا ينسجم مع ظاهر بعض الآيات من قبيل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾[٥].

فلو كان مفهوم النبي أعمّ من الرسول لاقتضت القاعدة أن يقول: وما ارسلنا من قبلك من نبي ولا رسول، إذا تعلقت العناية بخاصة في الرسول، والاّ فلا داعي إلى ذكره بعد شمول النبي له. ويكون هذا شبيهاً بقولنا ما ارسلت إنساناً ولا ارسلت

(٥) الحج: ٥٢.

رجلًا. فهذا غير مقبول من الناحية البلاغية.

أو يقول تعالى عن بعض الأنبياء:

﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾[٦].

فيكون من قبيل ذكر العام بعد الخاص وهو غير مقبول، وهو مثل أن نقول فلان أعلم الفقهاء وهو فقيه أيضاً.

إنها نقاط إبهام في موارد استعمال القرآن لهذين المفهومين إذا التزمنا بهذا التفسير.

والوجه الذي نراه مناسباً للمعنى اللغوي لهاتين الكلمتين ويرفع هذه الإبهامات هو ما يستفاد من أحاديث المرحوم العلّامة الطباطبائي رضوان الله عليه في عدة موارد في تفسيره القيّم «الميزان» وهو:

إن النبي والرسول مفهومان متباينان، وإن كانت الرسالة تستلزم النبوة أيضاً، إلّا أن مفهوم النبوة ليس مستبطناً في مفهوم الرسالة. فهما اثنان من الناحية المفهوميّة، فمفهوم الرسول يعني الواسطة في حمل شيء من شخص إلى آخر. وأما مفهوم النبي فهو يعني من عنده أخبار مهمّة وغيبيّة. فهما مختلفان في المفهوم. وإذا كان احدهما أخص من الآخر في المصداق فان ذلك لا يعني أن بين المفهومين توجد جهة اشتراك ليكون بينهما عموم وخصوص بحسب المفهوم.

إذن ما الفرق بينهما؟

يقول الأستاذ رحمه الله: الرسول من بين الأنبياء هو من يحمل رسالة خاصّة. أيّ أن الأنبياء أحياناً يتمتعون بدعوة عامّة لعبادة الله وطاعته وسلوك سبيل الحقّ، إلّا أنّ بعضهم يتمتع برسالة خاصّة من الله للإنسان بفعل شيء أو ترك أمر، فهذا هو الرسول، ومن جهة دعوته إلى سبيل الحق يسمى بـ «النبي» أيضاً.

وعندئذ لا يتّجه الإشكال السابق على قوله: ﴿وكان رسولاً نبياً﴾، فهو

(٦) مريم: ٥١.

رسول لأنه يحمل رسالة خاصة إلى قومه وهو نبي لأنه يعلم الاخبار الغيبيّة، فالمفهومان متباينان ولا مانع من ذكر احدهما بعد الآخر.

وكذا قوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي**﴾.

فهي إشارة إلى منصبين قد يجتمعان في شخص وقد لا يجتمعان، فنفس الالتفات إلى المفهوم لا يقتضي أن يكون كل رسول نبيّاً، فهو تعالى يتحدّث عمّن لهم مقام الرسالة وعمن لهم مقام النبوة. وأما في الخارج هل كل من له مقام الرسالة فهو يتمتع أيضاً بمقام النبوة؟

لا بدّ من اثبات ذلك بدليل آخر.

ويذكر العلاّمة رحمه الله إن الروايات تجعل بينهما فرقاً آخر من ناحية خصائص شخص النبي والرسول. وأقول إن هذه الخصائص ليست تابعة للمعنى اللغوي، فهناك دليل خارجي على أن الأنبياء كانوا بهذا الشكل وإن الرسل كانوا بهذه الصورة. وهذه الروايات مذكورة في «الكافي» تقول إن الرسول هو من يرى الملك في يقظته ويحدّثه فيها، وأما النبي فهو الذي يوحى إليه في منامه.

وأؤكّد أن هذا الفرق لا يعود إلى المعنى اللغوي لهذين المفهومين، وإنّما هي خصوصيّة خارجيّة.

كانت هذه هي التعبيرات العامّة المستعملة في مورد الأنبياء (ولا نقصد بالعموم أنها تشمل كل المبعوثين حتى يرد الإشكال بوجود دليل خارجي على ان الرسالة مختصّة ببعض الأنبياء).

وعندما نرجع إلى القرآن نجد فيه آيات كثيرة تؤكد أن الله قد أرسل عدداً كبيراً من الأنبياء ذُكرت قصص بعضهم في القرآن، فنلاحظ فيه أسماء ما يزيد على عشرين نبيّاً، إلاّ أنّه يصرّح بوجود أنبياء آخرين لم تُبيّن فيه قصصهم، ولا يستفاد من القرآن ما يحدّد عددهم. وقد أشارت الروايات إلى كثرتهم، وقليل منها ما يحدّد بالضبط، ففي بعض الروايات ان عددهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، وعدد الرسل ثلاث مئة وثلاثة عشر رسولاً.

ومن المعروف ان الخبر الواحد لا يفيد اليقين.

وأما الآيات التي تتحدّث عن الأنبياء بشكل عام فهي:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً...﴾(٧).

فما هو المقصود بالأُمّة هنا؟

للأُمة معانٍ مختلفة في اللغة، فأحياناً تطلق على مجموعة من الناس، وتارة تطلق على قدوة الناس، وأُخرى تطلق على السبيل، وأحياناً أُخرى على الزمان، يقول الله تعالى:

﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾(٨).

أيّ إلى فترة زمنية، ويقول سبحانه:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾(٩).

يحتمل أن يكون معناها الإمام والقدوة.

وأغلب ما يستعمل القرآن كلمة الأُمّة في معنى مجموعة من الناس، لكن ما هي الخصائص اللازمة لهذه المجموعة حتى تسمّى بالأُمّة ؟ ليس هذا واضحاً تماماً. فقال البعض لا بدّ أن تكون هذه المجموعة ذات هدف مشترك، أو لها منهج حياة موحّد أو ذات علاقات مشتركة كثيرة.

إلّا أن القرآن الكريم لا يتفق مع هذا التفسير، ويبدو أنه يستعمل كلمة الأُمّة في أيّ فئة وليست هي مختصة بالناس، فحتى فئات الحيوانات تسمّى بالأمم:

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾(١٠).

فالأُمة في القرآن مساوية للجماعة حسب الظاهر.

فعندما يقول الله: ﴿بعثنا في كل أُمّة رسولاً...﴾، فذلك يعني إرسال الرسول

(٧) النّحل: ٣٦.

(٨) هُود: ٨.

(٩) النّحل: ١٢٠.

(١٠) الأنعام: ٣٨.

لكل مجموعة من الناس.

فما هو الملاك الذي يعدّ به القرآن مجموعة من الناس أُمّة؟

لسنا ندري؛ إلاّ أنه لا شك إن اطلاق الأُمة الواحدة على مجموعة من الناس يكون بملاحظة أمر اعتباري، أما ما هو ملاك الاعتبار؟

فنحن مثلاً نستطيع اعتبار أفراد الصف الواحد مجموعة واحدة بملاحظة اشتراكهم في ساعات الدراسة، ونستطيع اعتبار أفراد من الجنود جيشاً واحداً بملاحظة القوانين المشتركة بينهم، فهم يتحركون معاً ويتوقفون معاً. ويمكننا عدّ مجموعة من الناس أُمة واحدة باعتبار أن لهم ديناً واحداً، فالاعتقاد الواحد يوحّد صفوفهم، فنقول أُمة موسى (ع) لأنهم يؤمنون بنبوته.

فهل يلزم أن يكونوا في عصر واحد؟ كلا، وليس من الضروري أن يعيشوا في مكان واحد، ولا يجب أن تكون بينهم علاقات اقتصادية. وقد نعدّ مجموعة من الناس أُمّة بملاحظة إنها تعيش في زمان واحد أو مكان واحد. إذن الإعتبارات مختلفة، فإذا قال القرآن: ﴿**بعثنا في كل أُمّة رسولاً**﴾. فإنه يقصد مجموعة من الناس قد اعتبر لها لوناً من الوحدة، لكن بأيّ ملاك اعتبرها أُمّة واحدة؟ لا ندري.

وكذا عندما يقول عزَّ وجلّ:

﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾[11].

فهل يقصد أنه قد أرسل نبياً لكل أُمة تعيش في زمان واحد أو مكان واحد أو لأبناء القومية الواحدة أو لأبناء اللغة الواحدة؟

ليس هذا واضحاً لدينا، ونعلم إجمالاً أن القرآن يعدّ مجموعة من الناس أُمة ويقول إننا أرسلنا رسولاً لكل أُمة، ولا نعلم ما هو ملاك الوحدة هنا. وفي آية أُخرى يقول سبحانه:

﴿**إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِم...**﴾[12].

(١١) فاطر: ٢٤.

(١٢) فُصّلت: ١٤.

ويفيد هذا كثرة الرسل حتى كأنهم قد أحاطوا بالناس:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾[١٣].

وفيها إشارة إلى ان أيّ زمان مضى فهو لم يخل من رسول.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾[١٤].

فهذه الآيات الكريمة تدل إجمالاً على أن الله سبحانه أرسل أنبياء كثيرين للأمم والأقوام المختلفة، لكن كم كان عددهم؟ وهل كان في كل زمان واحد منهم فحسب أو أكثر؟ فالآيات لا تدل على شيء من هذا، نعم توجد أدّلة خارجية تفيد تعدد الأنبياء في الزمان الواحد، ويستفاد ذلك أيضاً من بعض الآيات، فقد كان لوط مثلاً في زمان إبراهيم (ع) وتابعاً لشريعته.

أو يقول عزَّ وجلّ:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[١٥].

ولكن هذه الآيات لا تزوّدنا بمعيار نعرف به أيّ أُمّة يُبعث لها نبي وأيّ أُمة يُبعث لها رسول، وهل هناك زمان لا يوجد فيه نبي؟ ليس في الآيات ما يدل على ذلك. نعم هناك رواية تقول:

(لا تخلو الأرض من حجّة).

لكن هذه الحجّة أعمّ من أن يكون نبياً أو رسولاً أو إماماً.

ونحن نعتقد أنه بعد النبيّ الأكرم (ص) يكون الزمان خالياً من وجود نبي، ونستفيد هذا بالخصوص من الآيات الدالّة على ختم النبوّة به (ص)، لكن شيئاً لا يستفاد من القرآن إذا ما نظرنا إلى الزمان بشكل عام هل تخلو فيه مرحلة من نبي؟

ويقول تعالى:

﴿إِنَّا أَوحَيْنَا إِلَيكَ كَمَا أَوحَيْنَا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ من بَعْدِهِ وأَوْحَيْنَا إلى إبْراهيمَ

(١٣) المؤمنون: ٤٤.

(١٤) يونس: ٤٧.

(١٥) يس: ١٤.

وإسْماعيلَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ وٱلْأَسْباطِ وعِيسَى وأيُّوبَ ويُونُسَ وهَارُونَ وسُلَيْمانَ وءاتَيْنَا داوُدَ زَبُوراً * ورُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ورُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾(١٦).

ويشبهها قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ مِنْهُم مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ...﴾(١٧).

فهذه الآيات تدل على كثرة وجود الأنبياء بحيث لم تذكر قصص بعضهم ومن جملة المواضيع العامة التي يذكرها القرآن بالنسبة للأنبياء هي أن جميع الأنبياء كانوا ذكوراً:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم مِن أَهْلِ ٱلْقُرَى...﴾(١٨).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم...﴾(١٩).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾(٢٠).

فهـذه الآيات ظاهـرة بل صريحـة في كون الأنبياء جميعاً من الذكور، ومن الأحكام العامة التي يذكرها القرآن في موضوع الأنبياء إن كل نبي أو رسول قد بُعث بلغة الناس المبعوث إليهم، فللأمة العربية لم يبعث رسول فارسي، وكذا العكس. فإذا كُلّف بعض الأنبياء برسالة عامة عالميّة فمن الطبيعي أن يتحدّث بلغة واحدة وهي لغة الناس الذين يعيش بين ظهرانيهم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(٢١).

والسبب في ذلك مذكور في الآية وهو إن الرسول قد بُعث ليبيّن رسالته للناس

(١٦) النِّسَاء: ١٦٣ و١٦٤.

(١٧) المؤمن: ٧٨.

(١٨) يُوسُف: ١٠٩.

(١٩) النّحل: ٤٣.

(٢٠) الأنبياء: ٧.

(٢١) إبراهيم: ٤.

فلو كانت لغته مختلفة عن لغتهم لم يستطع القيام بتلك المهمّة فلا يتحقق الهدف من وراء رسالته. ويقول عزَّ وجلّ بالنسبة للنبيّ الأكرم (ص):

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٢٢).

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾(٢٣).

ومن الاحكام العامة في مورد الأنبياء إن عبادة الله الواحد القهّار تحتل صدر قائمة دعوتهم:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾(٢٤).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَاْ فَاعْبُدُونِ﴾(٢٥).

﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا اللهَ﴾(٢٦).

فهذه هي روح دعوة الأنبياء جميعاً.

ويمكن القول إن دعوة الأنبياء كانت تنصبّ على عبادة الله، إلّا أن لكل دعوة اطاراً خاصاً بها، فالروح واحدة والقوالب متعدّدة.

ونستطيع القول إن كل رسول بالإضافة إلى دعوته العامّة في عبادة الله كان مكلّفاً بالنضال ضدّ المفاسد الشائعة في زمانه بشكل خاص، فشعيب (ع) مثلًا يؤكّد على أن لا ينقص البائع في الوزن:

﴿فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾(٢٧).

فهو مكلّف بمقاومة هذه المفسدة الإجتماعية.

ويقاوم لوط (ع) ما كان شائعاً بين قومه من عادة سيّئة:

(٢٢) الدّخان: ٥٨.

(٢٣) الشُعَرَاء: ١٩٥.

(٢٤) النّحل: ٣٦.

(٢٥) الأنبياء: ٢٥.

(٢٦) فُصّلت: ١٤.

(٢٧) الأعْرَاف: ٨٥.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾[٢٨].

والملاحظة الأخرى هي أن الأنبياء لم يكونوا متساوين من حيث الفضيلة:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[٢٩].

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّنَ عَلَى بَعْضٍ﴾[٣٠].

فالأنبياء والرسل متفاوتون من حيث المنازل المعنوية.

ومن الخصائص المشتركة بين جميع الأنبياء أنهم لا يطالبون الناس بالأجر على هدايتهم وتعليمهم وتربيتهم، وتنقل كلمات كثيرة ذلك عن الأنبياء وان اجرهم على الله. وأوضح السور دلالة على هذا الموضوع هي سورة الشُّعَرَاء حيث تتكرر فيها هذه الآية خمس مرات بعد ذكر قصة واحد من الأنبياء:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[٣١].

وتوجد آيات من هذا القبيل نزلت في مورد النبيّ الأكرم (ص) منها قوله تعالى:

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[٣٢].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَاْ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[٣٣].

وقد بُيّن هذا الموضوع بصورة الاستفهام الاستنكاري في آيتين هما:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾[٣٤].

فلماذا يعرض هؤلاء عن دعوة الحقّ؟

وهناك آيتان تتعلّقان بالرسول الأكرم (ص) فهو بعد أن يؤكّد على عدم مطالبته بالأجر يذكر استثناء هو:

(٢٨) الشُّعَرَاء: ١٦٥.

(٢٩) البَقَرَة: ٢٥٣.

(٣٠) الإِسْرَاء: ٥٥.

(٣١) الشُّعَرَاء: ١٠٩.

(٣٢) يُوسُف: ١٠٤.

(٣٣) ص: ٨٦.

(٣٤) الطُّور: ٤٠. القَلَم: ٤٦.

﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٣٥].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾[٣٦].

وقد يوهم هذا الاستثناء أن النبيّ (ص) على العكس من سائر الأنبياء وعلى خلاف ما تذكره سائر الآيات كان يريد أجراً واحداً من الناس.

إلّا أن التأمل في الآيتين يقنع الباحث بأنه ليس هو الأجر الذي يأخذه الإنسان على عمله، فالأجر عادة يكون نفعاً يعود على آخذه من معطيه، فمن يستأجر عاملاً فالمستأجر يدفع مالاً للأجير، لكن المذكور في الآية ليس بهذه الصورة فهو استثناء ظاهري وليس حقيقياً، فلأهّمية هذا الموضوع ذكر بعنوان أنه استثناء من الأجر.

فهو (ص) يقول ان أجري هو أن تسلك الطريق الصحيح إلى الله، وفي الآية الأُخرى يقول إن أجري هو مودة القربى، والعائد في هذين لا يتعلّق بشخص النبي (ص)، فهو ـ والعياذ بالله ـ لم يكن طالب جاه ومنزلة إجتماعية لنفسه ثم لعائلته ومن يرتبط به كالسلاطين الذين يختارون لأنفسهم أولياء عهد من أقاربهم فيكون من قبيل اعطاء من لا يملك لمن لا يستحق، وإنما لأن حبّ أهل البيت (ع) هو نفسه الطريق إلى الله، فالناس يصلون إلى الله عن طريقهم.

ونستطيع أن نورد هذه الآية بعنوان أنها شاهد على الجمع:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾[٣٧].

وليس هذا الأجر لي.

هذا وجه في تفسير الآية. وهناك وجه آخر في تفسيرها وهو إن هذه الجملة تعني نفي الاجر، مثلما لو قلت: لو أردت منك أموالاً فقد منحتها لك، لأنه يقول بعدها:

﴿إن اجري إلّا على الله﴾.

(٣٥) الشّورى: ٢٣.

(٣٦) الفُرقان: ٥٧.

(٣٧) سَبَأ: ٤٧.

وقد جُمعت هذه الآيات الثلاث في دعاء الندبة بصورة رائعة:

﴿قل ما اسألكم عليه من أجر إلّا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ فكانوا هم السبيل إليك: ﴿قل لا اسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى﴾، فالمودة في القربى هي السبيل التي يتخذها الإنسان إلى ربه وهو الأجر للنبي (ص)، فالمودة في القربى هي سبيل الإنسان إلى الله.

* * *

وعندئذ نواجه هذا السؤال:

هل إن جميع الأنبياء مبعوثون لجميع الناس أم إن كل نبي قد بُعث لطائفة معينة من الناس ؟

يختلف العلماء في الجواب على هذا السؤال إلّا أنهم متفقون جميعاً على أن جميع الأنبياء لم يكونوا مبعوثين لجميع الناس، وإن النبي الأكرم (ص) كان مرسلًا للعالمين. وأما بالنسبة لسائر الأنبياء فهناك اختلافات حولهم.

ويستظهر العلامة الطباطبائي رضوان الله عليه إن من بين الأنبياء خمسة كانوا أصحاب شريعة وكتاب سماوي يتضمّن الأحكام الإجتماعيّة، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد (ص)، وهم الرسل المعروفون بأولي العزم:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[٣٨].

وقد أُرسل هؤلاء إلى كل العالم، كل واحد منهم في زمانه، فدعوة كلٍ منهم لم تكن مختصة بفريق معيّن من الناس. وأما سائر الأنبياء فلم يكونوا كذلك، وإنما كل واحد منهم مبعوث لطائفة معيّنة من الناس. ويقدّم على هذا الإدعاء شواهد من الآيات والروايات أيضاً.

ونحن لا نشك أن مجموعة من الأنبياء تسمى بالرسل أُولي العزم لأن هذا

(٣٨) الأحقاف: ٣٥.

صريح الآية المتقدمة الذكر. ولكن هل أن الرسل من أولى العزم هم الرسل أصحاب الكتب أم لا؟ هذا ما لا نملك عليه دليلاً قطعيّاً، فلعلّ أُولي العزم أعمّ منهم. ومن جهة أُخرى فهل الكتب السماويّة منحصرة بهذه الكتب الخمسة أم لا؟ ليس هناك دليل قاطع على ذلك، وصحيح أن في بعض الروايات ما يؤكد أن هؤلاء الأنبياء الخمسة كان لكل منهم كتاب وشريعة، إلّا أن هذا لا يصلح دليلاً يقينياً على انحصار الكتب السماوية فيها وقد يستظهر شخص هذا الأمر من الروايات، لكنها ليست دليلاً قطعياً لأنها لا تصل إلى حدّ التواتر، فهي دليل ظني. فلو وجدنا آية أو رواية تقول بوجود كتاب آخر غير هذه الكتب الخمسة أو أن أُولي العزم من الرسل يزيدون عن الخمسة فإنها ليس لها معارض.

وبالنسبة لهؤلاء الأنبياء المزوّدين بالكتب سواء أكانوا خمسة أم أكثر ـ سوى نبي الإسلام (ص) ـ هل كانت رسالتهم عالميّة أم كان كل منهم مرسلاً إلى قوم معينين؟

يعتقد البعض إن هؤلاء لم تكن رسالتهم عالمية فالنبي موسى(ع) والنبي عيسى(ع) قد أُرسلا إلى بني إسرائيل كما هو ظاهر بعض الآيات:

﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾[٣٩].

إذن لا دليل واضحاً على تعميم رسالتهم إلى سائر الأمم والطوائف، ولا ملازمة بين أن يكون النبي صاحب الكتاب وأن تكون رسالته عالميّة، فقد يكون مزوّداً بكتاب سماوي إلّا أن رسالته ليست عالميّة.

ويعتقد البعض الآخر إن الأنبياء من أُولي العزم وأصحاب الكتب السماوية كانت لهم دعوتان إحداهما تتضمن الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله ونفي الشرك، وهذه الدعوة عالمية ودعوة أُخرى خاصّة تتضمن الأحكام المختصّة بأممهم، فموسى(ع) قد دعا فرعون للتوحيد ونفي الشرك ولم يكن فرعون من بني إسرائيل، إذن يُعرف من

(٣٩) آل عِمْرَان: ٤٩.

هذا أن رسالة موسى(ع) تمتدّ إلى فرعون أيضاً وإلى أتباعه، إلّا أنّ الأحكام النازلة عليه تختصّ ببني إسرائيل، فهم بعد أن غادروا مصر إلى الأرض التي أمرهم الله أن يتحركوا إليها نزلت الألواح على موسى وفيها الشريعة السماوية وهي مختصّة ببني إسرائيل ولا تشمل الأقباط.

وبناءً على هذا الرأي نستطيع القول إن لجميع الأنبياء دعوة عامة لكل العالم بالتوحيد وعبادة الله، ودعوة خاصة تحمل أحكاماً معيّنة لأمة محددة يبلغهم إيّاها ويكلّفهم بالعمل على ضوئها.

هذه هي أقوال العلماء في هذا المضمار.

ونحن نأخذ الامور المتيقّنة منها ونحاول إيجاد الحلول للمشكوكات بالمقدار الذي نستطيعه وقد ذكرنا سابقاً إن جميع الشرائع السماوية هي دين واحد في الأساس، فشريعة موسى وشريعة عيسى ونوح لا اختلاف بينها في أساس الدين. وكيف يتصور الاختلاف بين الشرائع والأديان بعد أن قلنا إنها جميعاً تمثّل الإسلام؟

إن الاختلافات بين الأديان يمكن تصوّرها بعدّة أشكال: احدها أن يكون نطاق أحكام أحد الأديان أوسع من غيره. ولماذا يحدث هذا؟

لعل هذا الوجه يفسّر هذا الاختلاف وهو إن المجتمعات البشرية تختلف في علاقاتها حسب مستوى تعقّدها، فالمجتمعات البدائية البسيطة لا تحتاج إلى علاقات اجتماعية معقّدة ومتشابكة، ولا تحتاج بالتالي إلى أحكام واسعة وكثيرة، فالناس الذين يعيشون في البادية مستغنون عن الأحكام الإجتماعية المعقدة التي تحتاج إليها المجتمعات المعاصرة، فلو بعث الله إليهم نبيّاً مزوّداً بأحكام اجتماعية متشابكة فإنه سيكون أمراً زائداً على الحاجة وهو لغو. أما لو بعث الله نبياً إلى مجتمع ذي علاقات واسعة فلا بدّ أن تتناسب أحكامه مع المستوى الذي يعيشه ذلك المجتمع. إذن قلّة الأحكام وكثرتها ترتبط بمستوى الحياة الاجتماعية بالأمة المبعوث إليها ذلك النبي.

وهناك لون آخر من الاختلاف الذي يمكن فرضه بين الشرائع، وهو ان يثبت

حكم في زمان معين لأناس محددين ثمّ ينسخ في زمان آخر، مثل الأشياء التي حرّمت على بني إسرائيل في زمان موسى(ع) ثم حُلّلت لهم في زمان عيسى(ع)، فهو يقول لهم: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[٤٠].

وهذا هو نسخ الحكم، فهو ثابت إلى زمام معين ثم يرفع فيها بعد ذلك.

ويوجد لون ثالث من الاختلاف يمكن فرضه وهو يشبه هذا بحيث يكون الحكم من البدء مختصّاً بفئة معينة ولا يشمل الفئات الأخرى التي تعيش في ذلك الزمان، مثل هذا التحريم المتعلق ببني إسرائيل حيث يظهر من الآية الشريفة أنه كان مختصّاً باليهود ولا يشمل غيرهم:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾[٤١].

فظاهر الآية إن هذا التحريم مختص باليهود، فإذا فرض نبي آخر قد بعث إلى قوم آخرين فإنه لن يكون هذا الحكم، ويصبح هذا منشأ لاختلافهما في الحكم.

والفرق بين هذا الاختلاف والاختلاف الثاني ان الثاني تتفاوت فيه الأحكام بحسب الزمان، وأما هذا الاختلاف فقد يتحقق في زمان واحد حيث يختص حكم بطائفة ويكون للآخرين المعاصرين لهم حكم آخر.

وتكون هذه الاختلافات بين الشرائع بإذن الله بغضّ النظر عن تلك التحريفات والتأويلات والتشريعات التي يبتدعها الناس.

وهنا نتساءل: هل يمكن أن تحدث مثل هذه الاختلافات في حياة النبي الواحد؟

كان الاختلاف الأول متعلّقاً بكثرة الأحكام وقلّتها، ولا شك أن النبي الأكرم (ص) عندما بعث لم تنزل عليه الأحكام دفعة واحدة وإنما هي قد أنزلت عليه تدريجياً، إذن سعة الأحكام وضيقها قد يتحقق للنبيّ الواحد في أزمنة مختلفة، فهو يبدء

(٤٠) آل عِمْرَان: ٥٠.

(٤١) النِّسَاء: ١٦٠.

بمجموعة من الأحكام ثم تنزل عليه البقية تدريجياً. وهذا الاختلاف ليس اختلافاً جوهرياً في الدين، فهو الدين الأول غاية الأمر أن أحكامه قد أُضيف إليها شيء جديد، وهذا لا يوجب هنا التعدّد في الدين.

وأما النسخ، فهل من الممكن أن يجعل حكم في شريعة ثم ينسخ فيها بعد ذلك؟ نعم، وفي الإسلام قد جعلت أحكام كاتجاه القبلة ثم نسخت بعد ذلك فيه، ومنها هذه الآية:

﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤٢].

حيث يعتقد أغلب المفسرين أن هذا الحكم منسوخ. وإن كان بعض المعاصرين قد فسّرها بشكل آخر ولم يعدّ هذا حكمًا تشريعياً، إلّا أن ظاهر الآية يفيد التشريع. ومما لا ريب فيه أن هذا الحكم ليس موجوداً الآن وهو منسوخ، فالزانية المسلمة لا يحقّ لها أن تتزوّج مشركاً، ولا يجوز للزاني المسلم أن يتزوج من مشركة.

وعلى كل حال فهناك أحكام في الجملة قد نُسخت، فالنسخ في الشريعة الواحدة أمر ممكن. فلو جُعل حكم من قِبل الله ثمّ نُسخ في زمان آخر فإن ذلك لا يعني أن تلك الشريعة قد تبدّلت، فهو دين واحد إلّا أن بعض أحكامه قد نُسخت في زمان لاحق.

وأما القسم الثالث فهل من الممكن أن يجعل الله حكمًا مختصّاً بطائفة معينة من الناس ولا يشمل غيرهم؟

الظاهر أنه لا يوجد محذور عقلي من هذا الجعل في مقام الثبوت، نعم قد لا نستطيع الإتيان بمثال له في مقام الإثبات.

وبعبارة أُخرى: من الممكن أن يُرسل نبيّ برسالة خاصة إلى بعض الناس ويكلّف أيضاً برسالة عامّة إلى جميع الناس، ولا يؤدي هذا إلى تعدّد الشريعة.

إذن الاختلافات الموجودة بين الشرائع لا توجب القول إن هذه الأديان مختلفة ذاتاً وتفصل بينه الحدود، وإنّما هي تنسجم مع القول إن الجميع يشكّل ديناً واحداً غاية

(٤٧) البَقَرَة: ٣.

الأمر أن بعض أحكامه تتغيّر من زمان إلى زمان ومن أُمّة إلى أُمّة بحسب الكثرة والقلّة.

* * *

والموضوع الآخر الذي ينبغي الالفتات إليه هو:

ما المقصود من قولنا قد يُبعث النبي إلى أُمّة بعينها وقد يُرسل إلى جميع الأمم؟

إن هذا الموضوع قد يكون له عدّة معان:

منها: ان النبي لو بُعث إلى العالم بأسره لكان مكلّفاً بالاتصال بجميع الأمم بما يتيسّر له حتى يبلغهم رسالته، مثل هذا توصف رسالته بأنها عالميّة مثل رسالة النبيّ الأكرم (ص)، وإذا لم يكن مكلّفاً بهذا وأنما كانت مهمّته مقصورة على أُمّة بعينها ليبلّغهم رسالته بسبب أنه لا يمتلك الفرصة للاتصال بسائر الأمم أو لا يتيسّر له عادة الاتصال به فرسالته ليست عالميّة.

ونحن نعلم ان الارتباط بين الناس المتباعدين لم يكن سهلاً في الأزمنة الغابرة، فلو فرضنا وجود أُناس يعيشون في امريكا حينذاك فإنه من غير الممكن عادة أن يتصل بهم أُناس يعيشون في هذا الجانب من الكرة الأرضيّة، وحتى أنه لم يكن أحد يعلم بوجود أُناس في هذا الجانب من الأرض. وإذا أرادوا التعبير عن البلاد البعيدة جداً كانوا يذكرون غرب الأرض أو الصين.

إذن من الواضح حينذاك عدم إمكانية ارتباط إنسان بجميع الأمم. وبطبيعة الحال سوف لا تكون رسالة هذا النبي عالميّة بمعنى أنه ليس مكلّفاً بالذهاب إلى الأمم كافة ودعوتها إلى الله، لأن وسائل ذلك غير متوفّرة ولم يكلّفه الله به لأن الله لا يكلّف نفساً إلّا وسعها. ولكن هذا لا يتنافى مع ما لو اطّلع أُناس على هذه الشريعة فهم مكلّفون ابقبولها وإن كانت أبعاد شاسعة تفصل بينهم وابين مكان النبي أو جاءوا إلى منطقته من دون قصد فهو مكلّف بهدايتهم. ولكنه ليس مكلّفاً منذ البدء بالذهاب إلى مختلف أرجاء العالم لدعوة الناس إلى الله.

لو قلنا بهذا المعنى إن رسالة سائر الأنبياء ليست عالمية فهو أمر معقول، لأن

الاتصـال بكـل العالم لم يكن ميسوراً عادة إلّا عن طريق الإعجاز، ولم يكن هذا أسلوب الأنبياء في كل مكان، وإنما كانوا يستغلّون الطرق العاديّة في دعوتهم، ونادراً ما كانوا يحتاجون للإعجاز وذلك لاثبات دعوتهم وليس في طريق نشرها.

فبهذا المعنى يمكن القول إن رسالة الأنبياء السابقين لم تكن عالميّة، ولكن هذا لا يعني أن أحداً لو اطّلع عليها لم يجب عليه الإيمان بها.

وتتـأكّد صحّة هذا الموضوع بالالتفات إلى الأصل الذي سبق لنا ذكره في موضوع معرفة السبيل حيث قلنا هناك إن النبوة تيّار واحد، وكل مؤمن فهو مكلف بالإيمان بجميع الأنبياء **﴿لا نفرّق بين أحدٍ منهم﴾**، ومن يعلم بنبوّة شخص ثم لا يؤمن به فهو في حكم من ينكر جميع الأنبياء. والآن لو فرضنا ان شخصاً يعيش في الصين واطّلع من دون قصد على نبي اُرسل في الشرق الأوسط وثبت له انه مرسل من قِبل الله، فهل هو غير مكلّف بالإيمان به لأنه ليس مرسلًا لأهل الصين؟ صحيح أنه ليس مرسلًا لهم بمعنى أنه ليس مكلّفاً بالذهاب إليهم وإبلاغهم الدعوة إلى الله، وأما لو اطّلع شخص على الواقع، فلا بدّ أن يسلّم به، ولو آمن بنبي واحد فلا بدّ له من الإيمان بجميع الأنبياء، وحينما عرف أن هذا نبي فلا بدّ له من الإيمان به.

فإذا كان بين الأحكام اختلاف فبأيّها يعمل؟

متى يتصوّر الاختلاف بين شريعتين في زمان واحد؟

فيما إذا كانت احداهما تتضمّن حكمًا لأمة خاصّة، كما في شريعة موسى(ع) فان فيها أحكاماً مختصّة باليهود، فماذا يعمل غيرهم؟ إنهم غير مكلفين به لأن الغرض هو أن الحكم مختص باليهود ولا يشمل غيرهم، إذن من الممكن أن يؤمن شخص بنبي ولكنه لا يكلّف بتنفيذ الأحكام المختصّة بغيره مما جاء به ذلك النبي، ولكنه يلزمه الإيمان به.

والشاهد الآخر على هذا الموضوع هو ما ينقله القرآن الكريم من قول الجن بأنهم يؤمنون بموسى(ع) ومن بعده بمحمّد (ص)، مع أنه لا يوجد دليل على كون موسى مرسلًا إلى الجن، وإنما هم اطّلعوا على نزول التوراة عليه فآمنوا بها وهم

يقولون:

﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ﴾[٤٣].

وهذا يعني إيمانهم بالقرآن، ولو كانوا مؤمنين بعيسى(ع) لقالوا ـ عادةً ـ من بعد عيسى لأنه المباشر، إذن هم تابعون لموسى(ع) وآمنوا بمحمّد (ص) ثمّ دعوا قومهم إلى ما آمنوا به:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُواْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً﴾[٤٤].

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ...﴾[٤٥].

وهذا يؤيد أن أيّ مكلّف لو اطّلع على نبيّ مرسل من قِبل الله فهو مُلزم بقبول نبوّته ولو أنه ليس مرسلاً إليه، غاية الأمر أنه لا بدّ أن ينظر في محتوى دعوته هل فيها حكم مختصّ بقومه أم لا. ومن المسلّم أن معظم الأحكام التي جاءت بها الأديان والأنبياء هو واحدة كالصلاة والزكاة، نعم قد تختلف اشكالها مع أن الأساس واحد. وهناك أحكام مشتركة أُخرى بين جميع الأديان كتنظيم العلاقات العائليّة والاجتماعية وتحريم الظلم والغيبة والزنا وشرب الخمر. وتوجد أحكام مختصّة ببعض الأمم.

إذن كون بعض الأنبياء ليس مرسلاً إلى العالم كله لا يصلح عذراً لإنكارهم أو تكذيبهم، وإنما لا بدّ من الإيمان بهم لكل من يطّلع عليهم، ولا يلزم من هذا أيّ تضارب فلو فرضنا إن عدة أنبياء يحملون عدة شرائع قد بُعثوا في زمان واحد، فهذه الشرائع ليست مختلفة في الأسس، وهي مختلفة في الأمور الجزئية فحسب، وفي كل منها أحكام مختصّة بأُمّة معيّنة تلتزم بها.

فهناك مسألتان لا ينبغي الخلط بينهما أحدهما: أن يكون النبي مرسلاً إلى كل

(٤٣) الأحقاف: ٣٠.

(٤٤) الجنّ: ١.

(٤٥) الأحقاف: ٢٩.

العالم. والثانية أن كل العالم مكلّف بالإيمان بأيّ نبي تثبت لهم نبوته وإن لم يكن مرسلاً إلى العالم أجمع.

وبالنظر إلى هذا الأمر يتّضح لنا عدم صحة ما ذكره البعض من فرق بين دعوة الأنبياء حيث قال ان للأنبياء دعوتين: إحداهما الدعوة إلى التوحيد وهي عامة، والأخرى الدعوة إلى سائر الأحكام وهي خاصة.

كلّا، ليس الأمر بهذه الصورة فأصول الأحكام واحدة في جميع الشرائع وكما كان الأنبياء يدعون إلى التوحيد فإنهم يدعون الناس إلى طاعتهم:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٤٦).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٤٧).

فكل ما كان النبي يأمر به لا بدّ من طاعته من قبل جميع الناس، ولم تكن رسالة موسى(ع) لأقباط مصر مقصورة على التوحيد ولا تبيّن لهم طريق التوحيد، وإنما لجميع الأنبياء رسالة لكل الناس، والاقباط لم يكونوا مشتركين في القومية مع اليهود ولكنهم عندما واجهوا موسى(ع) كانوا مكلّفين بالإيمان به وقد دعاهم لذلك ولكنهم لسوء اختيارهم رفضوه.

نعم قد توجد موارد محدودة تكون فيها الأحكام مختصّة بفئة معينة، وهذا لا يتنافى مع كون الرسالات شاملة للجميع.

وبعبارة أُخرى: قد يكون بعض الأنبياء حاملاً رسالة معيّنة إلى أُمّةٍ خاصّة ولكن هذا لا يعني أنه لا يحمل رسالة إلى غيرهم، فإذا قلنا إن هذا النبي مرسل إلى هذه الأُمّـة فلا يعني أن يصبح الآخرون معذورين في ردّ دعوته، وإنّما جميع الناس مكلّفون بالإيمان به إذا ثبتت لهم نبوته.

وفي بعض الموارد الجزئية كانت هناك أحكام مختصّة ببعض الأمم كما في شريعة موسى(ع) حيث توجد فيها بعض الأحكام المختصة باليهود. وأما بالنسبة لسائر

(٤٦) الشُعَرَاء: ١٠٨.

(٤٧) النِّسَاء: ٦٤.

الشرائع فنحن لا ندري هل وجد فيها هذا الشيء أم لا، لكن وجوده محتمل، وهو لا يؤدّي إلى التمايز الأساسي بين كتابين أو رسالتين.

وأمّا بالنسبة للنبي الأكرم (ص) فهل رسالته عالمية أم لا؟

أن من ضروريات الإسلام عدّ الدعوة الإسلامية غير مقصورة على طائفة معينة، ولكنه لكي يكون البحث علمياً وتُقدّم عليه الأدلّة من القرآن الكريم وليتمّ الجواب على الشبهات التي يطرحها بعض المنحرفين في هذا المجال لا بأس بالإشارة إلى بعض الآيات الدالّة على عالميّة الدعوة الإسلامية وإلى بعض الآيات التي يُساء استغلالها لأغراض معوجّة للحيلولة دون الإنخداع بها.

ومن جملة الآيات الدالّة بوضوح على عالمية الرسالة الإسلامية قوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾(٤٨).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٤٩).

ووضوح دلالة هذه الآية لا يصل إلى مستوى الآية السابقة لأن كون النبي (ص) رحمة للعالمين ليس صريحاً في أنه مرسل إليهم وإنما هو ظاهر في ذلك، فالهداية لون من ألوان الرحمة.

ويقول عزَّ وجلّ:

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا ٱلْقُرْءَانُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ...﴾(٥٠)، ﴿ومن بلغ﴾ تعبير عام لا يختص بطائفة.

وهناك آيات تدل على أن الدين الإسلامي سيهيمن على كل الأديان:

﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَى وَدِينِ ٱلْحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِٱلله شَهِيداً﴾(٥١).

(٤٨) الفُرقان: ١.

(٤٩) الأنبياء: ١٠٧.

(٥٠) الأنعام: ١٩.

(٥١) الفَتح: ٢٨.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهدى وَدِينِ ٱلحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهِ ٱلْمشْرِكُونَ﴾[٥٢].

وحتى إذا كانت هذه الغلبة للدين الإسلاميّ على غيره تكوينية وخارجيّة فهي تدل ضمنياً على أن له غلبة تشريعية أيضاً. أي عندما يتغلب المسلمون ويحلّون الإسلام محل غيره من الأديان فإنه ليس عملاً خلاف القانون، فهي تدل بالضمن على جواز هذا تشريعيّاً.

وتوجد آيات تصرّح بأن النبيّ (ص) مرسل إلى الناس أو أن القرآن قد أُنزل لهداية الناس، ومنها قوله سبحانه:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٥٣].

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ...﴾[٥٤].

والناس اسم عام.

ومن جملة صفات القرآن إنه «ذكر للعالمين».

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[٥٥].

وفي مقابل هذه الآيات توجد آيات قد يتوهّم منها البعض أن القرآن أو الدعوة الإسلامية مختصة بالعرب أو بطائفة معينة من العرب، كقوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٥٦].

واستظهروا أن أُمّ القرى هي مكة، إذن إنذار النبيّ (ص) مختصّ بمكة وأطرافها. وقد ورد هذا التعبير في سورة الأنعام الآية (٩٢) أيضاً.

وهناك آيات أُخرى قد توهم مثل هذا كقوله عزّ وجلّ:

(٥٢) الصَّف: ٩. التّوبة: ٣٣.

(٥٣) إبراهيم: ١.

(٥٤) إبراهيم: ٥٢.

(٥٥) يُوسُف: ١٠٤. ص: ٨٧. التّكوير: ٢٧.

(٥٦) الشّورى: ٧.

﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾[٥٧].
﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُم مِن نَذِيرٍ مِن قَبْلِكَ﴾[٥٨].
إذن رسالته لا تشمل الأمم التي سبق ان أُرسل إليهم نذير.
وكذا قوله تعالى:
﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٥٩].

إن كل من يلتفت إلى سياق هذه الآيات يعرف أنها ليست في مقام حصر دعوة النبي بقوم معينين، وإنما هي في مقام بيان لماذا بعثناك إلى هؤلاء، لأن أيّ إنسان يُراد إرساله بالنبوّة لا بدّ أن يبعث في نقطة معينة من الأرض ولا يمكن أن يوجد في جميع أرجاء المعمورة. فأغلب هذه الآيات تريد أن تبيّن السبب في بعث النبي في منطقة الحجاز وبين الأُمة العربية، أو في مقام بيان لماذا أرسلناك إلى أُناس لم يرسل إليهم نبي من قبل. والسبب هو أنك لو لم تبعث إليهم لما آمنوا بنبي مرسل إلى غيرهم لشدة تعصّبهم.
﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ ٱلاعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾[٦٠].

وبعض منهـا يبيّن مراحل الدعوة، مثل قوله ﴿وانذر عشرتك الأقربين﴾، لبدء يكون بهم، ولا يعني هذا حصر الدعوة بهم، وشاهده تلك الآيات العامّة، وكل منصف ينظر إليها جميعاً فإنه يرفع يده عن ذلك الظهور الابتدائي إن كان قد خطر في ذهنه.

وبالإضافة إلى هذا، تلك الشواهد التأريخية المتظافرة على أن النبيّ (ص) قد دعا جميع الأمم وكتب رسائل إلى حكام ذلك الزمان يدعوهم فيها إلى الإسلام. إذن

(٥٧) يس: ٦.
(٥٨) القَصَصْ: ٤٦.

لا ريب في كون دعوة الإسلام عالمية وليست مختصة بأمّة معينة.

لكننا لا نلاحظ في الآيات تصريحاً بأن النبي (ص) هل بعث إلى الجن أيضاً أم لا. والتعبير بالناس ظاهر في أفراد الإنسان، وإن كان من المحتمل إطلاقه على الجن أيضاً:

﴿ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[٦١].

ففي قوله ﴿من الجِنَّة والنَّاس﴾، احتمالان احدهما أنه بيان للناس، والآخر أنه بيان للخنّاس. وصحيح أن الاحتمال الأول ضعيف إلاّ أنه احتمال على كل حال لأن الناس ظاهر في أفراد الإنسان.

فالآيات التي تتضمّن التعبير بالناس لا تشمل الجن بحسب الظاهر. وأما الآيات التي تعبّر بـ«العالمين» فيمكن أن يُستظهر منها جميع ذوي العقول فتصبح شاملة للجنّ أيضاً.

ويوجد في الروايات إن النبي الأكرم (ص) مبعوث إلى الثقلين، وتؤيدها الآيات السابقة الذكر من سورة الاحقاف (٢٩ ـ ٣٢):

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ ٱلْجِنِّ..﴾.

ونستطيع القول إن دعوة النبيّ (ص) كانت موجّهة إلى أفراد الإنسان لكنّ كل من يسمع بها لا بدّ أن يؤمن بمحتواها ـ كما ذكرنا ذلك بالنسبة لسائر الأنبياء ـ فالجن الذين اطّلعوا عليها مكلّفون بالإيمان بها.

وهناك آيات توهّم البعض منها شرعيّة الأديان الأُخرى في عرض الدين الإسلامي، من جملتها هذه الآية المادحة لطائفة من أهل الكتاب:

﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ ٱللهِ...﴾[٦٢].

وهي لا تدل على أن اليهود مثلاً ممدوحون وان انكروا الإسلام. أو أنها ناظرة إلى أهل الكتاب عموماً سواء أكانوا يعيشون في هذا الزمان أو في الأزمنة السابقة

(٦١) النَّاس: ٥ و٦.
(٦٢) آل عِمْرَان: ١١٣.

وتؤكّد أن فيهم الإنسان الجيّد والإنسان الرديء، ولهذا فنحن لا ندين كل أصحاب الكتاب فمنهم ﴿أُمَّة قائمة يتلون آيات الله﴾، فلعلها تنظر إلى أهل الكتاب الذين لم تصـل إليهم الدعوة الإسلامية فلم تتمّ عليهم الحجّة، ولهذا يقول تعالى بالنسبة للنصارى الذين تّمت الحجّة عليهم:

﴿وَإِذَا سَمِعُـواْ مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُم تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[٦٣].

فهؤلاء كانوا قبل إتمام الحجّة عليهم أهل عبادة وتهجّد ويتلون كتاب الله، إذن مثل هذه الآيات لا يدل على شرعية دين اليهود والنصارى وسائر أهل الكتاب بعد مجيء الإسلام وقيام الحجّة على الناس.

(٦٣) المائدة: ٨٣.

الأمم التي أُرسل الأنبياء إليها

إن دراستنا هذه تدور حول الأنبياء وامهم. وقد ذكرنا إن لهذه الدراسة أسلوبين: احدهما أن ندرس هذه الأمم كلًا منها على حده ثم نبوّب الآيات الواردة في كل منها ونستخرج النتائج اللازمة.

والاسلوب الثاني هو أن ندرس تاريخ السابقين تحت عناوين عامّة تصدق عليهم جميعاً. ومن الواضح أن الأسلوب الأول يحتاج إلى وقت طويل وجهد عظيم لا يتناسب مع هذا الكتاب، ولهذا نختار الأسلوب الثاني هنا، وقد درسنا فيما سبق موضوع الأنبياء على ضوئه، وندرس الآن ـ بعون الله ـ موضوع أممهم بنفس المنوال.

وتوجد في هذا المضمار مسائل كثيرة يتعرّض لها القرآن الكريم، منها إن جميع الأمم السابقة قد قاومت الأنبياء ولم تستسلم لدعوتهم، ويؤكّد القرآن ان كل نبي قد كذّبه قومه ووقفوا في وجه دعوته. ونلاحظ آيات كثيرة واردة في كل قوم، لكننا حاولنا اختيار أعمّها وأجمعها.

ونواجه هنا سؤالاً عن السبب في مخالفة جميع الأمم لأنبيائها ومقاومتهم لهم.

ونحن نعلم إن طريقة القرآن الكريم في تناول المسائل لا تسير على أساس تفكيك العناوين المختلفة عن بعضها، وإنما لا بدّ أن تكون الأسئلة مطروحة علينا ثم نحاول استخراج أجوبتها من خلال البيان القرآني وعندئذ يتمّ تفكيك العناوين عن بعضها.

ولـو تعمّقنـا في الآيات القرآنية بهذه الطريقة لاستنبطنا كثيراً من المعارف المتعلّقة بعلم الاجتماع وفلسفة التأريخ وعلم النفس الفردي والاجتماعي وغيرها من العلوم، بحيث يحتاج كل منها إلى فترة طويلة ودراسة مفصّلة. ونحن نبيّن هنا جانباً منها بالمقدار الذي تسمح به هذه الدراسة. وسوف ينهض الزملاء إن شاء الله بالعبء الأكبر ويفصلون المواضيع عن بعضها ويدرسونها بشكل مستفيض.

ومن جملة الأسئلة المطروحة هنا هي هذه:

١ـ هل هذه الأمم التي خالفت أنبياءها قد قاومتهم بشكل واحد أم أن هناك فئات خاصّة في المجتمع هي التي تبدأ بمخالفتهم ثمّ تؤثّر في غيرها وتجرّها وراءها؟

٢ـ سواء أكانت فئات خاصة في المجتمع هي السبّاقة إلى مخالفتهم أم كان المجتمع بأسره يندفع إلى معارضتهم فما هو الدافع إلى مقاومتهم مع أن الأنبياء كانوا يدعون الناس إلى دين الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء ومقتضى فطرة الناس ؟

٣ـ ما هي الأساليب والسبل التي يتّبعها هؤلاء في هذه المقاومة؟

٤ـ وبالتالي إلى أين انتهى بهم الأمر وماذا كانت عاقبتهم في خاتمة المطاف؟

وقـد ذكرنا إن هذه المواضيع ترتبط بعلم الاجتماع من هذه الجهة وهي أن التعمّق في الآيات القرآنية يوفّر للباحث استخراج الأجوبة على الأسئلة المطروحة في علم الاجتمـاع الذي يدرس الظواهر الاجتماعية ويحاول معرفة عللها والظواهر المعلولة لها وكيفيّة تحوّلها والنتائج المترتّبة عليها.

وتعدّ مخالفة الناس للأنبياء على طول التاريخ ظاهرة اجتماعية عجيبة، وقد كانت حالة التكذيب والكفر بالأنبياء شائعة في جميع المجتمعات، فما هي علّتها؟ وما هي نتائجها؟

على هذا الأساس نستطيع أن نشيّد علم الاجتماع الإسلامي أو القرآني بحيث ندرس هذه المواضيع من وجهة نظر القرآن.

وقلنا إنها ترتبط بعلم النفس الاجتماعي وذلك من جهة أن لهذه الظواهر عللاً نفسيّة، لأن لكـل فعل أو انفعال يوجد في المجتمع الإنساني من جهة أنه إنساني،

عوامل تتعلّق بفكر الإنسان بنحو أو بآخر. بمعنى أن العوامل الذهنيّة والنفسيّة هي منشأ الفعل الاختياري.

فإذا كانت هناك عوامل نفسيّة تؤدّي بفئة أو فئات من المجتمع للقيام بحركة اجتماعيّة معيّنة وتُوجد ظواهر خاصة فإن دراسة عللها النفسية تتعلّق في الواقع بعلم النفس الاجتماعي.

كما إننا نستطيع من زاوية أُخرى أن ندرس ما للمجتمع من تأثير على الفرد، فإذا كان الجوّ الاجتماعي بشكل خاص فما هو دور الفرد في مقابله؟ هل يستطيع الفرد أن يؤثّر في المجتمع ويغيّر مسيرته أم أن المجتمع هو المتسلط على الفرد دائماً (عادة يقصد من المجتمع هنا أكثر الأفراد)؟ إذا كان من الممكن أن يؤثر الفرد أو الأقليّة في الأكثريّة فأيّة أقليّة هي المؤثّرة على الآخرين؟

إنها مسائل تتعلق بعلم الاجتماع وسوف نتعرّض لها في مبحث «المجتمع والتاريخ في القرآن الكريم».

ونبدأ الآن بذكر بعض الآيات التي تتعرّض لمخالفة الأمم لأنبيائها بشكل عام:

﴿أَلَم يَأتِكُمْ نَبَؤاْ الَّذينَ مِن قَبْلِكُمْ قَومِ نُوحٍ وعَادٍ وثَمُودَ والَّذينَ مِن بَعدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إلَّا الله جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيدِيَهُمْ في أفوَاهِهِمْ وقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرسِلْتُم بِهِ وإِنَّا لفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إليْهِ مُريبٍ﴾[1].

وفي آيات أُخرى يسلي الله النبي (ص) الذي طالما تعرّض لتكذيب قومه بأن هذا دأب الناس مع الأنبياء السابقين أيضاً وليس أمراً غريباً:

﴿وإن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ قَبلَهُم قَومُ نُوحٍ وعَادٌ وثَمُودُ * وَقَومُ إبرَاهِيمَ وَقَومُ لُوطٍ * وأَصحَابُ مَدْيَنَ وكُذِّبَ مُوسَى فَأَملَيْتُ لِلكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ

(١) إبراهيم: ٩.

كَانَ نَكِيرِ﴾[٢].

﴿وإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ...﴾[٣].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وأَصحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وإِخْوَانُ لُوطٍ * وأَصْحَابُ الأيكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[٤].

﴿وإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلهم جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبَيِّنَاتِ وبالزُّبُرِ وبالكِتَابِ المُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[٥].

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلكِتَابِ ٱلمُنِيرِ...﴾[٦].

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[٧].

إن كان هؤلاء يكذّبونك فالسابقون أيضاً كذبوا أنبياءهم، ولا يصل هؤلاء إلى عُشر ما كان يتمتع به السابقون من قوة وقدرة، فالأقوياء ماذا كسبوا من تكذيبهم حتى يكسب هؤلاء؟!

وفي كثير من الآيات تُذكر مواقف الأمم واحدة واحدة، ومن جملتها:

الشُعَرَاء: ١٠٥ ـ ١٢٣ ـ ١٤١ ـ ٦١٠.

القَمَر: ٩ ـ ١٨ ـ ٢٣ ـ ٣٣.

إذن القرآن يؤكّد على أسلوب رائج بين الأمم السابقة في مواجة أنبيائها وهو تكذيبهم إياهم.

وهنا نتساءل:

(٢) الحجّ: ٤٢ ـ ٤٤.

(٣) فاطر: ٤.

(٤) ق: ١٢ ـ ١٤.

(٥) فاطر: ٢٥ ـ ٢٦.

(٦) آل عِمْرَان: ١٨٤.

(٧) سَبَأ: ٤٥.

من الذي كان يبدأ التكذيب؟

وهل كان المجتمع بأسره ينهض مرة واحدة لمخالفتهم أم كانت هناك فئة معيّنة من المجتمع هي التي ترفع علم العداء لهم ثمّ ينضوي الاخرون تحت لوائهم متأثّرين بعوامل مختلفة؟

نستطيع القول إن القرآن يؤكّد على ان فئة خاصّة من المجتمع هي التي تبدأ بمخالفة الأنبياء ثمّ ينشطون للحيلولة دون إيمان الآخرين بهم ويجرّونهم إلى الانحراف بأساليب متنوّعة. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الفئة بتعبيرات مختلفة وذكر لهم خصائص وميزات متعدّدة:

﴿وَمَا أرسَلْنَا في قَريَةٍ مِن نَذِيرٍ إلاَّ قَالَ مُتَرفُوهَا إنَّا بِمَا أُرسِلتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُواْ نَحنُ أكثَرُ أموَالاً وَأولاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٨].

لاحظنا في الآيات السابقة تكذيب الناس بشكلٍ عام للأنبياء، وأما في مثل هذه الآيات فإن فئة خاصةً هي التي تتولّى وتتصدّى لهذه المقاومة وهم المترفون والمرفّهون القائلون: من الذي يستطيع تعذيبنا نحن المالكون للقوة والثروة؟

ومن هنا نعرف أن ملاك القيمة في تلك المجتمعات هو كثرة الأموال والأولاد، والمجتمع العشائري بالخصوص كان يولي الأولاد أهميّة فائقة.

﴿وكَذَلِكَ مَا أرسَلْنَا مِن قَبْلِكَ في قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُقْتَدُونَ﴾[٩].

وينقل سبحانه عن قوم نوح ردّهم على دعوته:

﴿قَالَ ٱلْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إنَّا لَنَرَاكَ في ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[١٠].

وبالنسبة لقوم عاد عندما أُرسل إليهم هود يقول سبحانه:

﴿قَالَ ٱلملأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إنَّا لِنَرَاكَ فِي سَفَاهةٍ وَإنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ

(٨) سَبَأ: ٣٤ و ٣٥.

(٩) الزّخرف: ٢٣.

(١٠) الأعْرَاف: ٦٠.

ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[١١].

فهذه الفئة الخاصة هي التي تتقدّم المعارضة، ونلاحظ نفس الموقف في قصّة ثمود عندما أُرسل إليهم صالح:

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۞ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[١٢].

فالمستكبرون يرون أنفسهم أكبر من الحق، وهم يحاولون تشكيك الآخرين في مقدّساتهم.

إذن يؤكّد القرآن الكريم على أنّ الذين يتقدّمون حركة المعارضة للأنبياء هم أصحاب القوّة والثروة والجاه في المجتمع.

وعندئذ نواجه هذا السؤال:

ما الذي يدفع هؤلاء المستكبرين والملأ لهذه المخالفة؟

توجد في القرآن ملاحظات مهمّة في هذا المضمار، ولو دقّق الباحث فيها لاستخرج منها دراسة نفسيّة للفرد والمجتمع، وذلك لأن دوافع المخالفة من المواضيع النفسيّة، فمن الناحية الفردية لماذا كان هؤلاء يخالفونهم؟ ومن الناحية الطبقيّة لماذا كانت طبقة الملأ والمترفين تتصدّر قائمة المخالفين؟

والذي يُستفاد من الآيات بصورة إجماليّة هو أن هناك عدّة عوامل نفسيّة ـ ولعلها ترجع إلى اثنين أو ثلاثة ـ تكون المنشأ لمخالفتهم:

١ـ الكبر: حيث يعيش بعض الناس وضعاً اجتماعياً متميزاً إكتسبوا به روحاً متكبّراً مغروراً يمنعهم من قبول كلام أحد آخر. فهم لا يحبّون أن يكونوا تابعين لأحد

(١١) الأعْرَاف: ٦٦.

(١٢) الأعْرَاف: ٧٥ و ٧٦.

وإنما يرغبون في أن يجعلوا الآخرين تابعين لهم، ويأنفون من قبول ما يقوله الأخرون، ويسعون لجعل ما يقبلونه من ايديولوجية ـ ولا يهمّهم على أيّ أساس اتخذوها ـ هي المتبعة بين الناس، ويرون من العار عليهم أن يصبحوا تابعين لأحد. إن روح الكبر هذا هو المانع من قبول دعوة الأنبياء (ع).

ولعلّ التعبير الوارد في القرآن بـ «الاستكبار» يُشعر بهذا المعنى، فهو يعني الشعور بالكبر. وتعليق الحكم على موضوع يشعر بالعليّة، فاستكبارهم هو الذي أدّى إلى كفرهم، وأساسه هي حالة التكبّر الموجودة في أعماق أنفسهم. وقد ذكر في بعض الموارد بصورة المفعول المطلق كقوله تعالى:

﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَاراً﴾ [(١٣)].

ويقول عزّ وجلّ في مورد فرعون وقومه:

﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾[(١٤)].

أي كانوا يرون أنفسهم كباراً، وهذا يمنعهم من الإستماع إلى كلامه، فالاستكبار هو علّة مخالفتهم لموسى(ع).

﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ﴾[(١٥)].

وفي هذه الآية إشارة إلى عامل آخر يشبه الكبر وهو طلب العلو في المجتمع، ولو قبلوا دعوة الأنبياء لتخلّوا عن هذا. ويشبه هذه قوله تعالى:

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً...﴾[(١٦)].

لحد الآن لاحظنا أربعة عوامل للمخالفة هي:

١ـ الكبر والاستكبار. ٢ـ العلو. ٣ـ الإجرام. ٤ـ الظلم.

يقول سبحانه:

(١٣) نوح: ٧.
(١٤) الأعْرَاف: ١٣٣. يونس: ٧٥.
(١٥) المؤمنون: ٤٦.
(١٦) النّمل: ١٤.

﴿... إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾[١٧].

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[١٨].

لعلّ معنى العزّة هنا التمنّع بصلابة، فإن كانت العمليّة فهي نفس الجحود، وإن كانت حالة العزّة النفسية فهي الغرور، بمعنى انهم كانوا يرون التبعيّة للأنبياء ذُلّاً لأنفسهم.

ويقول تعالى:

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ...﴾[١٩].

وينقل سبحانه عن قول نوح:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِأَيَاتِ ٱللهِ فَعَلَى ٱللهِ تَوَكَّلْتُ...﴾[٢٠].

وبالنسبة لبني إسرائيل يقول عزّ وجلّ:

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[٢١].

ونلاحظ في هذه الآيةعاملاً جديداً للمخالفة وهو عدم انسجام ما جاء به الأنبياء مع أهوائهم، وهذا ما حدا بهم إلى معارضتهم. ومن الواضح أن هوى النفس أمر عام يشمل الظلم والعلو والكبر...

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾[٢٢].

ثم يعلّل هذا الموقف فيقول:

(١٧) المؤمن: ٥٦.

(١٨) ص: ٢.

(١٩) الشّورى: ١٣.

(٢٠) يونس: ٧١.

(٢١) البَقَرة: ٨٧.

(٢٢) فاطر: ٤٢.

﴿اَسْتِكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[٢٣].

ويذكر الاستكبار هنا بصورة المفعول له، أيّ بسبب الاستكبار والمكر، فالمكر من أساليب المخالفة لكنه يحصل نتيجة لاستكبارهم:

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا ٱللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٢٤].

فنفس فكرة التوحيد في العبادة لا تبعث في النفوس استكباراً، وإنما عندما كان يقال لهم إن تفكيركم ليس صحيحاً وأنتم ضالّون، وفي الحقيقة فإن الله واحد، فإن هذا الكلام كان ثقيلاً عليهم، ومن الصعب عليهم أن يغسلوا أيديهم من عادات عاشوا عليها سنين طويلة ويسلّموا بقول النبي، فهم يستكبرون ويرفضونه، لا لأن التوحيد ليس عليه دليل ولا لأن الحق غير واضح في عقولهم، وإنما هذا العامل النفسي هو الذي كان يحول دون قبولهم التوحيد:

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُنكِرَةٌ وَهُم مُسْتَكْبِرُونَ﴾[٢٥].

وفي مقابل هذا نلاحظ أن القرآن يثني على بعض علماء النصارى ورهبانهم بأنهم عندما يستمعون إلى الحقّ يقبلونه ثم يعلل ذلك في قوله:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٢٦].

وتشير بعض الآيات إلى أن الله تعالى يخاطب أهل النار يوم القيامة:

﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾[٢٧].

وفي هذه الآية يذكر عامل جديد وهو الإجرام وارتكاب الذنوب، وأي أن من

(٢٣) فاطر: ٤٣.
(٢٤) الصّافات: ٣٥.
(٢٥) النّحل: ٢٢.
(٢٦) المائدة: ٨٢.
(٢٧) الجاثية: ٣١.

يتعوّد على الذنب فإن هذا يدفعه للفرار من الحق، وهذه علاقة بين العمل والملكات النفسانية:

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أعقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾(٢٨).

فقد كنتم تسمرون الليالي في الاستهزاء بالآيات والأنبياء، وهذا هجران وليس نقداً علميّاً.

وتبيّن بعض الآيات مسألة الاستغراق في الذنوب بهذه الصورة:

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾(٢٩).

فهذه هي العلة النفسية للتكذيب بيوم القيامة. وذلك لأن الإنسان عندما يكرّر الذنب فإنه يتعلّق تدريجياً بنتائج الذنب ويحبّها، ولا يستطيع أن يستمر في ذلك إلاّ إذا أزال الموانع عن طريقه، ويعدّ الإيمان بيوم القيامة والحساب من أهم الموانع، فهو الذي ينغّص عيشه، ولهذا فهو ينكره حتى يوفّر لنفسه فرصة التورّط في الذنوب مطمئن البال، وهذا هو ما تشير إليه هذه الآية أيضاً:

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلإنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾(٣٠).

فالـذي يؤدّي به إلى إنكـار يوم القيامة ليس هو اعتقاده بأن الله تعالى لا يستطيع إحياءه مرة أخرى، وإنّما هذا العامل النفسي هو الذي يقوده إلى الإنكار.

ثم نلاحظ عاملاً آخر في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ الإنسَانَ لِيَطْغَى * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَى﴾(٣١).

فالإنسان عندما يشعر أنه ليس محتاجاً إلى أحد فإن هذا يصبح منشأ لظهور روح التكبّر والاستكبار العملي فيه.

(٢٨) المؤمنون: ٦٦ و ٦٧.
(٢٩) المطفّفين: ١٢.
(٣٠) القيامَة: ٥.
(٣١) العَلق: ٦ و ٧.

وإذا تأملنا في هذه العوامل التي يذكرها القرآن وجدناها شبكة مترابطة فيما بينها، فبعضها يتّسم بالترابط الطولي، بمعنى أن عاملاً يصبح منشأ لعامل آخر و..، وبعضها يتّصف بعلاقات متبادلة، فالحالات النفسيّة توثّر في الأعمال، والأعمال بدورها توثّر في الحالات وتقوّيها، وتحتاج دراسة هذه الألوان من التأثير والتأثّر إلى بحوث نفسيّة مستفيضة.

إلى هنا عرفنا أن السبب في مخالفة الملأ والمستكبرين للأنبياء هي مجموعة من الحالات والملكات النفسيّة والتعلّقات الماديّة والأهواء الشخصيّة، فهي التي تدفعهم لمخالفتهم.

وفي بعض الأحيان يشير القرآن الكريم إلى مظاهر هذه الأُمور، أي كيف كان يخالف هؤلاء؟ فبأشكال متنوّعة يشير الكتاب المعجز إلى تجلّيات هذه الحالات النفسية. فأحياناً يقول إن هؤلاء يتعجّبون من أن إنساناً ينهض من بينهم ويقول أنا نبي الله وعلكيم أن تتبعوني، ففي هذه الآية ينقل الله سبحانه عن نوح وهود قولهما لقومهما:

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِن رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ...﴾[٣٢].

ولعلّ الشيء الذي أثار حفيظتهم هو كونه ﴿على رجل منكم﴾، وإلاّ فإنّه لا مجال للتعجب من إنسان يعتقد بوجود الله ويؤمن بضرورة هدايته له، وإنما التعجب ينصب على كونه رجلاً منهم، وكان الأنبياء (ع) ملتفتين إلى هذه الحالة عند الناس ويؤكّدون لهم أنه لا عجب في هذا و:

﴿ٱللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٣٣].

وبالنسبة لأمّة آخر الزمان يقول عزّ و جلّ:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَن أَنذِرِ ٱلنَّاسَ...﴾[٣٤].

(٣٢) الأعراف: ٦٣ ـ ٦٩.

(٣٣) الأنعام: ١٢٤.

(٣٤) يونس: ٢.

ولو لم يكن هذا العامل موجوداً لما أشار إليه القرآن، فهو شائع بين الناس وخطير أيضاً، فالله سبحانه يبدأ هذه السورة بالإشارة إليه. وفي مكان آخر يقول سبحانه:

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُنذِرٌ مِنْهُمْ...﴾[٣٥].

انها تجليات لتلك الحالة النفسية تقودهم إلى اتخاد الذرائع المختلفة مثل هذه الذريعة:

﴿وقَالَ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا ٱللهُ أو تَأتِينَا ءَايَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الذِينَ مِن قَبْلِهِم مِثْلَ قَوْلِهِمْ...﴾[٣٦].

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ ٱللهِ﴾[٣٧].

وفي آية أخرى يقول عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدْ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾[٣٨].

ما أشدّ هذا الغرور الذي يقودهم إلى توقّع أن يصبحوا أنبياء!؟

ولذا يواجهون الأنبياء بهذا القول وهو: لأنكم بشر فنحن لا نؤمن بكم، كما في هذه الآية الكريمة:

﴿قَالَوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا...﴾[٣٩].

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ ٱللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾[٤٠].

إنها تجلّيات لروح الاستكبار التي تحمل الإنسان على أن لا يخضع لمثله، ويقول لو كان هناك موجود أرفع مني لقبلت كلامه وأما أنت أيها النبي فإنك إنسان

(٣٥) ص: ٤.

(٣٦) البَقَرَة: ١١٨.

(٣٧) الأنعام: ١٢٤.

(٣٨) الفُرقان: ٢١.

(٣٩) إبراهيم: ١٠.

(٤٠) الإسْرَاء: ٩٤.

مثلي فلماذا أقبل كلامك؟ بل عليك أنت أن تقبل كلامي:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّواْ...﴾[٤١].

ونواجه عندئذ هذا السؤال:

ما هي الأساليب التي يستخدمها هؤلاء في معارضتهم للأنبياء؟

ذكر القرآن الكريم أساليب مختلفة لهم، بعضها عام وبعضها لا يتميز بذلك الشمول، وسوف ندرس هذا الموضوع ـ بعون الله ـ في البحوث اللاحقة.

(٤١) التغابن: ٦.

المستكبر والمستضعف

لقد مرّ علينا أن القرآن الكريم يصرّح بأن جميع الأمم قد خالفت الأنبياء واستكبرت على دعوتهم. ثمّ لاحظنا انه يشير إلى أن فئة معينة من المجتمع هي التي تسبق إلى هذه المخالفة وهي طائفة الملأ والمترفين والمستكبرين ثمّ تجرّ وراءها المستضعفين.

ومن هنا رأينا من المناسب أن ندرس المستكبر والمستضعف من وجهة نظر القرآن المجيد. ويعدّ هذا الموضوع مهمّاً بالالتفات إلى المكانة التي يحتلّها اليوم في ثقافتنا العامّة.

ونبدأ أوّلاً بالإشارة إلى المفهوم اللغوي لكلمتي الاستكبار والاستضعاف ثمّ نستعرض موارد استعمالها في القرآن الكريم لنعرف أيّ معنى هو المقصود منهما.

فكلمة «الاستكبار» وكلمة «الاستضعاف» من باب الاستفعال. ومادة الاستكبار هي «الكبر» أيّ العلو، والاستكبار يعني إظهار العلو أو اعتبار النفس عالية. فإذا أراد الإنسان أن يعتبر إنساناً آخر أو شيئاً من الأشياء كبيراً فإنه لابدّ ان يذكر مفعول الفعل، وأما في الموارد التي لا يذكر فيها المفعُول مثل «أبى واستكبر» فإن المقصود بها أنه يعدّ نفسه كبيراً.

والملاحظة الأُخرى التي ينبغي الالتفات إليها في هذا المضمار إن كلمة

الاستكبار قد يُضمّن معناه أو يشرب بمعنى آخر، ولهذا فهي تُعدّى بحرف جرّ خاص يتناسب مع ذلك المعنى، كأن نقول: استكبر عن الحقّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾[١].

فالفعل متعدّ بـ «عن»، ووجود حرف الجرّ هذا في الجملة علامة على أن الفعل قد أُشرب معنى آخر.

وقد يُعدّى بـ «على» فيقال استكبر عليه، وهذا يدّل على الإشراب والتضمين أيضاً.

فإذا عُدّي بـ «عن» فغالباً ما يكون قد أُشرب معنى الإضراب، وإذا عُدّي بـ «على» فعادة ما يكون قد ضُمِّن معنى التعدّي والتجاوز والبغي. فاستكبر عنه يعني أنه رأى نفسه كبيراً، وأدّى به ذلك إلى الإعراض عن ذلك الشيء. واستكبر عليه يعني أنه رأى نفسه كبيراً، وقاده ذلك إلى صبّ الظلم على ذلك الشيء. هذا ما يتعلّق بمفهوم الإستكبار.

وأما مفهوم الإستضعاف، فمادته الأوليّة هي الضعف في مقابل القوة والقدرة. وأما هيئة الاستفعال المأخوذة منها فقد يكون لها أحد معنين: الأوّل، استضعفه أي رآه ضعيفاً أو عدّه ضعيفاً.

الثاني، استضعفه بمعنى أنه أدّى به إلى الضعف وجرّه إليه أو حمله عليه. وهو يشبه معنى استخفّه. فتارة يستعمل القرآن الكريم كلمة الإستضعاف وأُخرى يستعمل الإستخفاف. فبالنسبة لفرعون الذي استضعف قومه واستخفّهم يقول تعالى:

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾[٢].

يُتصوّر فيها هذان المعنيان: أي عدّهم خفافاً أو حملهم على الخفّة.

ويتُصوّر هذا المعنيان أيضاً في قولنا إستضعف الرجل، أي عدّه ضعيفاً أو حمله على الضعف. هذا هو المعنى اللغوي للمستضعف.

١) المؤمن: ٦٠.

(٢) الزّخرف: ٥٤.

ونحاول الآن دراسة موارد الاستعمال في القرآن الكريم حتى نعرف بأيّ معنى أستعمل فيه الاستضعاف؟

ونذكر في البدء تلك الآيات التي تجعل الاستضعاف في مقابل الاستكبار، وكأنه ينظر إلى المجتمع بهذه الرؤية، وهي أن فيه فئتين إحداهما فئة المستكبرين والأُخرى فئة المستضعفين، ثم نتناول الآيات الاخرى، وبعد ذلك نستخرج النتيجة حول معنى الاستضعاف في القرآن ما هو؟ وهل يوجد لون واحد من الاستضعاف أم هناك ألوان متعدّدة له؟

ففي قصّة صالح وقومه يذكر سبحانه:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِٱلَّذِي ءَامَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[٣].

وفي بعض موارد من القرآن الكريم يصوّر الله سبحانه لوحة المستضعفين والمستكبرين في العالم الآخر حيث يواجه بعضهم بعضاً ويحتدّ النقاش بينهم، ففي ثلاثة موارد من القرآن المجيد يبين الله سبحانه ان المستضعفين والمستكبرين يتناقشون في جهنم يوم القيامة:

﴿وَلَوْ ترَى إِذِ الظالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ القَوْلَ يقُولُ الذِينَ استُضْعِفُوا للَّذِينَ استَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الذِينَ استَكْبَرُوا للَّذِينَ استُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الذِينَ استُضْعِفُوا للَّذِينَ استَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تأمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِآللهِ ونَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً...﴾[٤].

والملاحظة المهمّة في الآية الكريمة الأُولى أن الله سبحانه يعدّ هؤلاء

(٣) الأعْرَاف: ٧٥ و٧٦.

(٤) سَبَأ: ٣١ ـ ٣٣.

المستضعفين والمستكبرين جميعاً من الظالمين ﴿إذ الظالمون﴾، وهم جميعاً في جهنم، فهذا الاستضعاف لم يكن منشأ للقيمة.

وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿وَبَرَزُوا لله جَميعاً فَقَالَ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱستَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبعاً فَهَلْ أنتُم مُغْنُونَ عنّا مِنْ عَذَابِ ٱللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا ٱللهُ لَهَدَيْنَاكُم سَوَاءٌ عَلَيْنَا أجزِعْنَا أمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِن مَحِيصٍ﴾(٥).

ففي هذه الآية استعمل الضعفاء مكان المستضعفين في الآية السابقة وتدّل القرائن على أنهم نفس تلك الفئة، والنقاش هو النقاش. ويجيب المستكبرون **﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾**، والمفسرون مختلفون في معنى هذه الجملة، هل المقصود منها لو هدانا الله في الدنيا لهديناكم؟ أو المقصود منها لو هدانا الله في الآخرة للجنّة لاصطحبناكم معنا؟

وعلى كل حال فهو إظهار للعجزوأنه قد انتهى الأمر وليس في أيدينا شيء الآن فصبرنا الآن وعدمه سواء فلا مفرّ لنا ولكم من جهنّم.

ويقول عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ في ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبعاً فَهَلْ أَنتُم مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ ٱللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾(٦).

ونلاحظ في هذه الآيات الكريمة إن المستضعفين والمستكبرين فيها مقصّرون، ولا يستطيع أحد منهم تحمّل وزر الآخر. نعم إن الضلال قد بدأ من المستكبرين فهم الذين دعوا الآخرين للكفر لكنهم لم يجبروهم، ولو لم يشأ المستضعفون ذلك لرفضوه،

(٥) إبراهيم: ٢١.
(٦) المؤمن: ٤٧ و ٤٨.

فهم لم يكونوا مجبرين حتى تسقط عنهم المسؤولية.

فما المقصود هنا بالمستضعف والضعفاء؟

هناك مجموعة من الناس عندما يواجهون دعوة الأنبياء فإنهم يرون أنفسهم كباراً، وهذا الكبر أما أن يكون بحسب الجسم وهو بعيد جدّاً، أيّ أنهم كانوا أقوياء من حيث الجسم، أطول أو أصحّ من غيرهم. وأما أن يكون من حيث المال فقد كانوا يعدّونه معياراً للقيمة. وأما أن يكون من ناحية المنزلة الاجتماعية والسياسية. وهذا الاحتمال ـ وهو أن يكون الكبر من حيث الثروة والمنزلة الاجتماعية ـ أقوى من الاحتمال الأول. بمعنى أن هؤلاء كانوا يرون أنفسهم كباراً بسبب ما كانوا يعيشونه من قيم ماديّة سائدة في مجتمعاتهم. فالذي كان يتمتّع بالثروة يعتبر كبيراً حسب قيم ذلك المجتمع، وأما الذين فرغت أيديهم من المال أو لم تكن لهم عشيرة أو قبيلة فانهم ضعفاء. وهذا الكبر هو الذي كان يجعل كلامهم مؤثّراً في الآخرين، وهو الذي يجعلهم يبادرون إلى مخالفة الأنبياء، وهو الذي يؤدّي إلى جرّهم الآخرين وراءهم. فالآخرون كانوا تابعين لهم: ﴿**إنّا كنّا لكم تبعاً**﴾، ومن الواضح أن هناك عوامل نفسيّة خاصّة توجب تبعيّة بعض الناس للبعض الآخر، وذلك لأن هؤلاء مسلمون بأفضلية أولئك عليهم حسب القيم الرائجة في ذلك المجتمع، فالضعفاء معترفون بكبر أولئك، وهذا هو المنشأ الذي يؤدّي إلى تأثير كلام المستكبرين في المستضعفين، ولكن هذا لا يعني إنهم يجبرونهم أو يسدّون تماماً طريق معرفة الحقّ في وجوههم، ومن المسلّم لو لم يكن هؤلاء مجرمين وكانوا قاصرين فحسب لما أصبحوا من أهل جهنم، فالله أكرم وأرحم من ان يورّط شيخاً قاصراً بعذاب قد أعدّه للمستكبرين والمعاندين ﴿**إن الله قد حكم بين العباد**﴾ وأرسل الطائفتين معاً إلى جهنّم، إذن كلتاهما مقصّرة وقد نالت الجزاء الذي تستحقه.

فهؤلاء كانوا يعانون من ضعف واقعي ولذا عبّر عنهم القرآن في موردين بالضعفاء أيضاً.

فهل هذا الضعف يقتصر على المنزلة الاجتماعية والمال والثروة أم هو يمتدّ إلى مجال العقل أيضاً فهم ضعفاء في العقل والمعرفة؟

ولو كان متعلّقاً بالمجال الاجتماعي فحسب فهو أمر اعتباري يتمّ الاتفاق عليه وليس له قيمة واقعيّة، ولا يؤدي إلى فرق في العذاب المسلّط عليهم. وأمّا لو قلنا بأنهم كانوا يعانون من ضعف في العقل فلا بدّ أن يصبح عذابهم أقل من عذاب غيرهم لأن كل من كان عقله أضعف فمسؤوليته أقلّ وبالتالي يغدو عذابه أقلّ أيضاً.

لعلّ الباحث يستأنس من ظاهر الآيات إن هؤلاء لم يكونوا مصابين بضعف العقل ولهذا لم تكن مسؤوليتهم ولا عذابهم أقل، وإنّما كان هذا العامل النفسي مؤثّراً فيهم، وهو أنّ أصحاب الثروة عندما يسلكون طريقاً فإننا لا بدّ أن نسلكه بذاته، إنها روح التقليد الأعمى التي تجعلهم تابعين لكل عمل يفعله الكبار، وهي روح موجودة بنحو أو بآخر في المجتمعات التي لم تخضع لتربية إلٰهيّة صحيحة.

ولا يغيب عن ذاكرتنا ما كان عليه أكثر الناس تحت ظلّ نظام الشاه المقبور حيث كانوا تابعين للكبار سواء في مجتمعهم أم في المجتمعات الأخرى، فكل ما يفعله الاوربيّون يقلّده هؤلاء.

وكذا في مورد الآية فقد كان في ذلك المجتمع فريقان: احدهما يتمتّع بالامتيازات حسب القيم السائدة فيه، والآخر صفر اليدين من هذه الامتيازات. وهؤلاء بمقتضى العامل النفسي يقلدون كبارهم، وقد أدّى بهم هذا إلى أن يذوق الفريقان العذاب.

وهكذا نلاحظ إن مصداق الضعيف والمستضعف هنا واحد، فهؤلاء مستضعفون يقفون في مقابل المستكبرين وهم في الواقع ضعفاء أيضاً، إمّا من ناحية المنزلة الاجتماعية فحسب، وإما من ناحية العقل والإدراك أيضاً.

وفي بعض الموارد يُذكر الاستضعاف في القرآن ولكنّه ليس في مقابل المستكبرين، فهل كان له مقابل ولم يُذكر أم ليس له مقابل أصلًا؟

يقول عزّ وجلّ:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٧).

والظاهر إنّها إشارة إلى وضع المسلمين في مكة قبل الهجرة حيث كان عددهم قليلاً ويعيشون تحت ضغط المشركين وكأنهم فريسة لصقر يريد أن يتخطّفهم فاستنقذهم الله بالهجرة إلى المدينة.

فالمسلمون في مكّة كانوا مستضعفين، فماذا يعني هذا الاستضعاف؟

لا شكّ أنه مقام المقارنة بالمشركين الذين كانوا أقوياء حينئذ، وكان عدد المسلمين قليلاً في مقابل العدد الكثير للمشركين. وكذا قوة أولئك تعدّ قليلة بالنسبة لقوة هؤلاء، فهي إشارة إلى الوضع الاجتماعي الذي كان يعيشه المسلمون آنذاك ولا يستطيعون فيه أخذ حقّهم، فهم في الواقع كانوا ضعفاء أمام المشركين، لا أنّ المشركين كانوا يعدّونهم ضعفاء فحسب، فهنا يكون مصداق المستضعف هو الضعيف الواقعي، فلماذا يُوصفون بأنهم مستضعفون؟ لأن الآخرين كانوا يعلمون بضعفهم ولهذا كانوا يعدّونهم ضعفاء.

من أيّ ناحية؟

من المقطوع به أن المقصود هنا ليس هو الضعف العقلي لأن النضج العقلي الذي يتمتّع به المسلمون أعظم بكثير ممّا كان لدى الكفّار، فلأنّ معرفتهم أدق وإدراكهم أقوى فقد اختاروا الحقّ، وإنما الاستضعاف هنا من جهة المنزلة الاجتماعية.

ومن الموارد التي ذكر فيها الاستضعاف قصّة هارون(ع) عندما ذهب موسى بن عمران(ع) إلى الطور لمناجاة ربه فاندفع بنو إسرائيل لعباده العجل فلّما عاد موسى(ع) ووجدهم على هذه الحال:

(٧) الأنفال: ٢٦.

﴿وألقى الألواحَ وأخذَ برأسِ أخيهِ يجُرُّهُ إليهِ قالَ ابنَ أُمَّ إنَّ القَومَ استَضْعَفوني وكَادُوا يَقتُلونَني﴾[٨].

فقدَ عدّني الناس ضعَيفاً فهمّوا بقتلي لأني كنت شخصاً واحداً في مقابل هذه الأمّة ولم أستطع أن أحول بينهم وبين ما يرغبون، وهو في الواقع كان أيضاً ضعيفاً، فالضعف نسبي أيّ في مقابل قدرة أولئك فالاستضعاف هنا ليس مفهوماً قيميّاً.

ويؤيّد هذا ما ورد في قصّة شعيب(ع) عندما بُعث إلى مدين:

﴿وإلَى مَدْيَنَ أخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَومِ اعبدُوا اللهَ مَالَكُم مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ... قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وإنَّا لَنرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً لَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ومَا أنتَ عَلَينَا بِعَزِيزٍ﴾[٩].

فهنا يرونه ضعيفاً وهو نفس الاستضعاف السابق، أيَ شخص في مقابل أُمّة.

وفي بعض الموارد يعبّر سبحانه بالمستضعفين، وفسّر بالأفراد الضعفاء في المجتمع:

﴿ومَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ والوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أخرِجْنَا مِن هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أهلُهَا واجعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً واجعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً﴾[١٠].

فالله سبحانه يحثّ المسلمين على الجهاد لإنقاذ المستضعفين الذين كانوا في مكّة تحت قبضة الكفار وهم يتمنون النجاة منهم. فمصداق المستضعفين هنا من كان ضعيفاً في مقابل المجتمع الكافر ولا يستطيعون أن يبدوا أيّة مقاومة كالنساء والأطفال والشيوخ ولا يجرأون على الهجرة أيضاً، فالله يكلّف المسلمين بالجهاد من أجل إنقاذ هؤلاء المستضعفين الطالبين من الله أن ينقذهم.

﴿إنَّ الَّذِينَ توفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أنفُسِهِمْ قالُوا فيمَ كُنتُمْ قالُوا كُنَّا

(٨) الأعْرَاف: ١٥٠.

(٩) هود: ٨٤ ـ ٩١.

(١٠) النّساء: ٧٥.

مُستَضعَفِينَ فِي الأرضِ قالُوا ألَم تكُنْ أرضُ آللهِ واسِعَةً فتُهَاجِرُوا فيهَا فأُولَئِكَ مأوَاهُمْ جهَنَّمُ وساءَتْ مصِيراً * إلاَّ المُستَضعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والولْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ولاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فأُولَئِكَ عسَى آللهُ أن يعْفُوَ عنْهُمْ وكَانَ آللهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾[١١].

هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالبعد عن الحق يسألهم الملائكة عند الموت: لماذا لم تؤمنوا بالحق ولم تسلكوا سبيل الهدى؟ فيعتذرون بأنهم كانوا مستضعفين في الأرض. فيقطع عليهم الملائكة هذا العذر بأن أرض الله واسعة وكان بإمكانكم أن تهاجروا إلى موطن آخر، ولهذا فإن هؤلاء المستضعفين يستحقون جهنم وساءت مصيراً لأنهم مقصّرون حيث لم يهاجروا، ثم يستثني من هذا الحكم جماعة من المستضعفين الذين ما كانت لهم القدرة على الهجرة أيضاً. فللمستضعفين هنا مصداقان، أحدهما قادر وليس معذوراً، والآخر معذور لعجزه عن معرفة الحق أو عن العمل به.

﴿ومَا يُتْلَى علَيكُمْ في الكِتَابِ في يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَتي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بالقِسْطِ...﴾[١٢].

وتبدأ سورة النساء بالحثّ على تكفّل اليتامى من البنات وعلى السلوك العادل معهنّ ثم الترغيب في الزواج منهن، وأن لا يؤدّي يتمهنّ إلى الإعراض عنهن والبحث عن الأسماء اللامعة المشهورة، ثم يوصي بالعدل مع الأشخاص الأضعف وعدم ظلمهم، ويعبّر في هذا المجال بالمستضعفين وهم ضعفاء حقّاً من أطفال ويتامى، فهم لا يستطيعون الدفاع عن حقوقهم فلا يجوز الظلم لهم.

إلى هنا نحن لم نصادف مورداً يستعمل فيه الاستضعاف بمعنى أن أحداً جعل الآخر ضعيفاً وأدّى به إلى الضعف، فالأطفال ضعفاء في الواقع، وكذا النساء في

(١١) النِّساء: ٩٧ ـ ٩٩.
(١٢) النِّساء: ١٢٧.

المجتمع ولاسيّما في المجتمعات الغابرة فانهنّ ضعيفات لا يقدرن على الدفاع عن أنفسهنّ، وكذا الشيوخ. والآخرون يعدّون هؤلاء ضعفاء لأنهم يعانون من الضعف الواقعي، ولم يجعلهم أحد من الناس في هذا الموقع.

فهل يوجد مورد يجرّ فيه شخص شخصاً آخر إلى الضعف، وبهذه الصورة يصبح مستضعفاً؟

نعم في بعض الموارد يوجد مثل هذا الاحتمال، ومن جملتها قوله سبحانه:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلأرضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾(١٣).

فلكي يحقق فرعون هذا العلوّ أثار الخلافات بين الناس وقسّمهم إلى فئات، وأخذ يستضعف فئة منها، فالاستضعاف هنا قد يكون أنه يعدّها ضعيفة، ولعلّ الاحتمال الأقوى هو أنه يجرّها إلى الضعف، فبعد أن قسّمهم إلى طوائف فإنه يختص بطائفة منها يجعلها حاشية له وفي بلاطه وهي الطبقة الراقية، وأما سائر الطوائف فهو يخطّط لكي لا تصل إلى القوة، فهو يستضعفهم بمعنى أنه يحملهم على الضعف. وهذا يشبه الاحتمال الذي ذكرناه في قوله:

﴿استخف قومه فأطاعوه﴾، أي حملهم على الخفّة لا أنه اعتبرهم خِفافاً. ومن الواضح أن هذا محتمل أيضاً إلّا أن ما ذكرناه أقوى منه.

ثم يقول تعالى:

﴿ونُرِيدُ أَن نَّمُنَّ على الذينَ ٱسْتُضْعِفُوا في ٱلأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أئمَّةً ونَجْعَلَهُمُ ٱلوَارِثِينَ﴾(١٤).

وظاهر الآية ينصرف إلى المستضعفين من بني إسرائيل، إلّا أن الروايات الواردة تذكر بطناً من بطون القرآن فتؤكّد موضوع ظهور الإمام المهدي(ع) ففي

(١٣) القَصَصْ: ٤.

(١٤) القَصَصْ: ٥.

زمانه عجّل الله فرجه يمنح الله القوّة لمن كانوا ضعفاء في عيون الآخرين أو أن الضعف فُرض عليهم فيوصلهم إلى مقام القيادة والإمامة.

ويقول عزَّ وجلّ في آية أُخرى متحدثاً عن بني إسرائيل:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾[١٥].

كان هذا استعراضاً للآيات التي تذكر الاستضعاف، وبعضها يذكر في مقابله الاستكبار.

والآن نتساءل: ما معنى جعل الاستضعاف في مقابل الاستكبار في هذه الآيات؟

هل معناه تقسيم المجتمع إلى طبقتين مستكبرة ومستضعفة أم لا؟

ثانياً: هل يعني هذا أن المستضعفين معذورون؟ وهل من المحتمل أن تكون لهم قيمة إيجابية أيضاً؟

إن الاستكبار والاستضعاف قد لوحظ فيهما معنى مقارن، فإذا رأى نفسه كبيراً فإنه يراها كذلك في مقام المقارنة بالآخرين، وإلّا إذا نظر إلى نفسه وحدها فإنه لا معنى للمقارنة من الكبر والصغر، فهؤلاء يرون أنفسهم كباراً والآخرين صغاراً، وليس هذا الكبر والصغر في الجسم وإنما هو في المنزلة الاجتماعية، فالذين يرون أنفسهم كباراً في المجتمع فإنهم ينظرون إلى الآخرين باعتبار أنهم ضعفاء. والمقابلة الموجودة في الآيات بين الاستكبار والاستضعاف تدل على أن نظرتهم هذه لأنفسهم ناشئة من القوة التي يجدونها عندهم، يرون الآخرين ضعفاء لأنهم فاقدون لتلك القوّة. فما هي تلك القوة؟ قد تكون هي القوّة الفيزيائيّة، ولكن الأقوى هو إنها القوّة الاجتماعية أيّ أنهم ذووا مراكز قوية. والآخرون ضعفاء أو أنّ عددهم قليل. وهذا ليس عاماً لأن أكثرية الأُمة عادة من المستضعفين، وأما الملأ والمستكبرون فإنهم فئة محدودة. وفي

(١٥) الأعراف: ١٣٧.

بعض الموارد قد تكون قلّة الأفراد مؤدية إلى استضعافها، مثل المسلمين في مكة قبل الهجرة: ﴿إذ أنتم قليل مستضعفون...﴾، ولعل بعضهم يتمتّع بقوة بدنية أو ماليّة كبيرة، ولكن لّما كان عددهم قليلاً، وما عندهم من ثروة ومركز اجتماعي لا يساوي شيئاً في مقابل ثروة ومراكز الأعداء، لهذا كانوا مستضعفين. وأغلب الموارد لاتؤكّد على قلّة الأفراد ولا على القوى الجسميّة ولا ضعف العقل، وإنّما هي تشير إلى المراكز الاجتماعية التي يكون ملاكها أحياناً الثروة وقد تضاف إليها عوامل أُخرى في بعض الأحيان مثل الحسب والنسب. وعلى كل حال فقد كان هؤلاء كبار المجتمع وأن كانوا قليلين من حيث العدد وهم المستكبرون، وأما المستضعفون في مقابلهم فهم الضعفاء سواء من حيث العدد ـ وهو في موارد قليلة ـ أو من حيث الثروة أو المركز الاجتماعي.

فأيّ شيء كان ملاك الكبر لدى المستكبرين فإن فقدان الآخرين له يجعلهم من المستضعفين وهم ضعفاء في الواقع ضعفاً نسبياً في مقابل أولئك.

وتحسن الإشارة هنا إلى أن مفهوم الاستكبار (لأن معناه إظهار الكبر وليس الإحساس بالكبر فقط وإنما هو فرض كبر الذات على الآخرين) يتميّز بقيمة خلقيّة سلبيّة، بخلاف الاستضعاف فإنها صفة يتّصف بها هؤلاء في مقابل الآخرين، فالآخرون عدُّوهم ضعفاء فهم «استُضعفوا» ولم يظهروا الضعف وإن كانوا في الواقع أيضاً ضعفاء.

فالاستكبار بعنوان أنه أمر خلقي فهو مذموم ويتّصف بقيمة سالبة، ولكن الاستكبار لا يعني التمتّع بالثروة، وهذه الآيات الكريمة لا تذمّ أصحاب الثروة مطلقاً لأن من أكبر الأثرياء في العالم هو النبي سليمان(ع):

﴿قالَ رَبِ ٱغْفِرْ لي وهَبْ لي مُلْكاً لا يَنبَغِي لِأحَدٍ مِن بَعْدِي﴾[١٦].

فلديه الثروة والمركز الاجتماعي الرفيع لكن هل هو من المستكبرين؟

كلا، لأن معيار الاستكبار هو التعدّي على الآخرين، وهذا هو المذموم خلقياً.

(١٦) ص: ٣٥.

ونفس الثـروة والمنـزلـة الاجتـماعية ليست مذمومة بذاتها، وإلّا لغدا المستضعفون مذمومين عندما يصبحون أئمة، والله سبحانه يقول:

﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾.

فالمراكز الاجتماعية لهم والثروة بأيديهم، والله يمنّ عليهم بها:

﴿وأورثنا الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ .

فهل غدوا مستكبرين؟

إذن نفس التمتّع بالثروة أو المكانة الاجتماعية أو العقل والفهم والعلم والذكاء ليس أمراً مذموماً في حدّ ذاته، والشيء المذموم هو عدّها ملاكاً ومعياراً للكبر، ومن ثمّ استخدامها للتعدّي على الآخرين.

موقف الناس من الأنبياء

قلنا إن الآيات الكريمة تشير إلى أن جميع الأمم قد كذّبت الأنبياء (ع)، ولاحظنا في آيات أُخرى أن هذا التكذيب يبدأ من فئة خاصّة ثمّ يمتد إلى الآخرين أما بنشاط من أولئك أو بتبعيّة وتقليد من هؤلاء، ويسمي القرآن الكريم أُولئك بالمستكبرين وهم شخصيّات في المجتمع يتمتّعون بالنفوذ الاجتماعي على أساس القيم الكاذبة الرائجة في ذلك المجتمع، وهذه الأهّمية الاجتماعية هي التي تصبح منشأ لتبعيّة الآخرين لهم. وعندئذ نواجه هذا السؤال:

ما هي الأساليب التي كان يستخدمها هؤلاء للحيلولة دون انتشار دعوة الأنبياء؟

في القرآن الكريم إشارات إلى هذا الموضوع. وأعمّ الأساليب التي كانوا يستخدمونها لهذا الغرض هي:

١ـ الاستهزاء والتحقير وتضعيف المعنويات: ويعدّ هذا من أبسط الأعمال التي

يقوم بها الإنسان في مقابل العدّو من دون أن يجشّم نفسه أيّ عناء، فهو يسخر من خصمه ليسقطه من عيون الناس،يقول عزّ وجلّ:

﴿يا حَسْرَةً علىٰ ٱلعِبَادِ مَا يَأتِيهم من رَسُولٍ إلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُنَ﴾[١].

﴿وما يَأْتِيهِم مِن نَّبِيٍّ إلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُنَ﴾[٢].

﴿ومَا يَأتِيهِم من رَسُولٍ إلاَّ كَانُوا بِهِ يِسْتَهْزِءُنَ﴾[٣].

فهذه الآيات عامّة في مورد الأنبياء والرسل جميعاً.

وأما أنه بأيّ شكل كان يتمّ هذا الاستهزاء؟

ففي القرآن الكريم آيات توضح هذا الأمر، ومن جملتها هذه الآية التي تتحدّث عن النبيّ الأكرم (ص):

﴿وإذَا رَءاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذونَكَ إلاَّ هُزُواً أهذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءالِهَتَكُمْ﴾[٤].

فهذا لون من ألوان الاستهزاء به (ص).

﴿وإذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللهُ رَسُولاً﴾[٥].

وهذا نموذج آخر من الاستهزاء.

﴿إِنَّ الَّـذينَ أجرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءامنُوا يَضْحَكُونَ * وإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوا إِلَى أَهْـلِهِمُ ٱنقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤلاَءِ لَضَالُّونَ﴾[٦].

فهؤلاء كانوا يستهزؤن بأشكال المؤمنين وأقوالهم. ولو كان الأنبياء معتمدين

(١) يس: ٣٠.
(٢) الزّخرُف: ٧.
(٣) الحِجْر: ١١.
(٤) الأنبياء: ٣٦.
(٥) الفُرقان: ٤١.
(٦) المطفّفين: ٢٩ ـ ٣٢.

على قواهم الشخصية لأدّى بهم هذا السلوك إلى الهزيمة، لأن أيّ فرد إذا استهزأت به الأمة وضحكت عليه فمن العسير عليه جداً أن يصمد ويقاوم، وإذا كان عاقلاً جدّاً فإنه سيرحل عن ذلك المجتمع. إلّا أن الأنبياء يحملون رسالة لا بدّ أن يصبروا عليها ويثبتوا وعندما يرى الكفّار أن هذا الفعل لم يؤدّ إلى النتيجة المطلوبة وان الاستهزاء لم يُهزم الأنبياء فإنهم يستخدمون أسلوباً آخر هو ما نسمّيه اليوم باغتيال الشخصيّة، فيتّهمونهم وينسبون إليهم أشياء لا تليق بهم حتى يحطّموا شخصياتهم في المجتمع فلا يميل الناس إليهم ولا يتعلّقون بهم

ومن الاتهامات الشائعة بالنسبة للأنبياء ينقل القرآن الكريم تهمة الجنون وتهمة السحر والكذب والافتراء.

فهناك آية تقول بشكل عام:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِن رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَو مَجْنُونٌ * أتوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[٧].

كأنّها مؤامرة مدبّرة بين جميع الأمم ضد الأنبياء حتى يتّهموهم، ولكنّها لم تكن مؤامرة مدبرة في الواقع وإنما كان هذا الأسلوب في التعامل شائعاً بينهم وعامّاً بحيث يخيّل للإنسان أنه تواطؤ، ولم يكن كذلك وانما طغيانهم يدفعهم إلى موقف واحد.

وتوجد آيات تشير إلى موارد خاصّة نُسب فيها الجنون إلى أنبياء معينين، ومن جملتها هذه الآية التي تشرح وضع نوح(ع):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَآزْدُجِرَ﴾[٨].

وينقل سبحانه ما قاله قوم نوح عن نبيّهم نوح(ع):

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾[٩].

(٧) الذّاريات: ٥٢ و٥٣.

(٨) القَمَر: ٩.

(٩) المؤمنون: ٢٥.

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١٠).

وصحيح إن تعبير قوم نوح هنا ليس فيه التصريح بنسبة الجنون إليه، ولكنّه شيء يشبه الجنون.

وقد وردت آيات تتحدّث عمّا نُسب لموسى(ع)، ومن جملتها هذه الآية التي تنقل قول فرعون:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾(١١).

إنه حديث ساخر، لأنه لا يؤمن برسالته، فقوله «رسولكم» استهزاء به، أي هذا الذي يدّعي النبوة.

وهذه الآية أيضاً تنقل قول فرعون:

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾(١٢).

لّما دعاه موسى(ع) إلى الله أشاح بوجهه عنه مستهزئاً به ومتّهماً إيّاه بالسحر أو الجنون.

وكذا هود(ع) فقد نسبوا إليه السفاهة كما ينقل عنهم تعالى:

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾(١٣).

وفي عدّة آيات ينقل القرآن الكريم إن ذلك قد نُسب للنبيّ الأكرم (ص) أيضاً:

﴿وقَالُوا يا أَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(١٤).

وهذا القول سخرية أيضاً بمعنى أيها المدّعي لنزول القرآن عليه لست إلّا مجنوناً مع تأكيد الجملة الإسمية بانّ ولام والتأكيد.

(١٠) الأعْرَاف: ٦٠.
(١١) الشُعَرَاء: ٢٧.
(١٢) الذّاريات: ٣٩.
(١٣) الأعْرَاف: ٦٦.
(١٤) الحِجْر: ٦.

﴿ويقولون أئنّا لتاركوا ءالهتنا لشاعرٍ مجنونٍ﴾[١٥].
﴿ويقولون إنّه لمجنونٌ﴾[١٦].
﴿ثمّ تولّوا عنه وقالوا معلّم مجنونٌ﴾[١٧].
﴿أفترى على الله كذباً أم به جنّةٌ﴾[١٨].

ويستفاد من بعض الموارد إنهم يصوّرون النبي بصورة شاعر مهرّج، فعندما يرون كلاماً بليغاً يصدر من النبي فإنهم يصفونه بالشعر:

﴿بل قالوا أضغاث أحلامٍ بل افتراه بل هو شاعرٌ﴾[١٩]. فهو يزعم أن جبرئيل ينزل عليه، إن هذا حلم بل هو كذب لأنه ليس كلام الله وانما هو شعر قاله هو:

﴿أم يقولون شاعرٌ نتربّص به ريب المنون﴾[٢٠].

ونلاحظ بعض الآيات التي تتصدّى لنفي هذه التهم عن النبي:

﴿وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون﴾[٢١].
﴿وما علّمناه الشّعر وما ينبغي له...﴾[٢٢].

ويشير سبحانه في آيتين إلى انّهم نسبوا الكهانة إليه (ص):

﴿فذكّر فما أنت بنعمت ربّك بكاهنٍ ولا مجنونٍ﴾[٢٣].
﴿ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تذكّرون﴾[٢٤].

(١٥) الصّافات: ٣٦.
(١٦) القلم: ٥١.
(١٧) الدّخان: ١٤.
(١٨) سبأ: ٨.
(١٩) الأنبياء: ٥.
(٢٠) الطّور: ٣٠.
(٢١) الحاقّة: ٤١.
(٢٢) يس: ٦٩.
(٢٣) الطّور: ٢٩.
(٢٤) الحاقّة: ٤٢.

عندما وجدوا أن هذه التهم لم تصمد في مقابل عظمة القرآن ولم يستطيعوا القول إنه كلام عادي فإنّهم لجأوا إلى القول انه كاهن يتّصل بالجنّ ويتعلم منهم وليس هذا فعلًا إنسانياً.

وهناك اتهامات أُخرى للأنبياء إلّا انها ليست عامة ولهذا فإننا لا نذكرها.

والأمر الشائع بين جميع الأمم هو أنهم بعد استخدامهم لكل هذه الأساليب من استهزاء ونسبة الجنون والسحر إليهم ولا سيّما بعد اظهار المعاجز منهم، ويلاحظون إن هذه لم تنجح في تحجيمهم فهم يلجأون إلى مجادلتهم ومناقشتهم فيقترحون عليهم أُموراً ليعجزّوهم. وندرس فيما يأتي الآيات العامة في هذا المضمار:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٢٥].

لو كان القرآن آية نازلة عليه فلماذا لا تنزل علينا نحن آية أيضاً؟!

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ ٱللهِ...﴾[٢٦].

إنه طلب يتكرّر على ألسنتهم من الأنبياء بأن الله إذا أراد أن نؤمن فليُنزل علينا كما أُنزل عليكم وليحدّثنا كما حدّثكم...

ومن الذرائع التي كانوا يتذرّعون بها لعدم إيمانهم هي أنّ النبي لا ينبغي أن يكون من البشر، وقد مرت علينا الآيات الواردة في هذا المعنى. وهناك ذريعة أُخرى يصرّحون بها في هذا المجال:

﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾[٢٧].

(٢٥) البَقَرَة: ١١٨.

(٢٦) الأنعام: ١٢٣ و ١٢٤.

(٢٧) البَقَرَة: ١٧٠.

﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾[٢٨].

﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[٢٩].

وبالنسبة للنبيّ الأكرم (ص) بالذات يتعرّض القرآن الكريم بالتفصيل لهذه الذرائع،كيف يقترحونها عليه ويتعلّلون بها في رفضهم لدعوته:

﴿...لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا...﴾[٣٠].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ...﴾[٣١].

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَائِكَةِ...﴾[٣٢].

وفي عدّة موارد نجد هذا التعبير الذي ينقله القرآن الكريم عنهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِن رَّبِّه﴾[٣٣].

ويمكن تفسير هذا التعبير بشكلين: احدهما إنهم يريدون أن يخيّلوا للآخرين إن القرآن ليس معجزة ولا قيمة له، فالنبي لا يتمتّع بعلامة تدل على كونه مرسلاً من قِبل الله، ولو كان نبيّاً لزُوّد بأيّة تدل على صدق دعواه. والثاني أن يكون مقصودهم هو لماذا لم يُزوّد بآية تؤديّ إلى إجبار الناس على الإيمان به، وهو نظير ما جاء في قوله تعالى:

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ ٱلسَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[٣٤].

وهذه ذريعة أُخرى:

﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾[٣٥].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ...﴾[٣٦].

(٢٨) المائدة: ١٠٤.

(٢٩) الزّخرُف: ٢٢.

(٣٠) الفُرقان: ٢١.

(٣١) الأنعام: ٨.

(٣٢) الحِجْر: ٧.

(٣٣) الأنعام: ٣٧. العنكبوت: ٥٠. طه: ١٣٣. الرعد: ٧ ـ ٢٧.

(٣٤) الشُعَرَاء: ٤.

(٣٥) هُود: ١٢.

(٣٦) يونس: ١٥.

إن هذا من الأساليب الخبيثة التي كانوا يستخدمونها فقد طالبوه بضمّ كتاب آخر إلى القرآن أو الاتيان بكتاب آخر يحلّ محلّه. فلو فرضنا إنه فعل ما أرادوه لقالوا إذن هو بيده ولو لم يفعل لأنه ليس من حقّه ذلك لقالوا إنك رفضت اقتراحنا ونحن نرفض الإيمان بك.

ومن السبل التي كانوا يسلكونها لتكذيب النبي ما ورد في قوله عزَّ وجلّ:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾(٣٧).

أو يقولون لو كان هذا القرآن كلام الله حقيقةً لكان شيئاً عظيماً ويتناسب مع شخص عظيم ينزل عليه، وهذا النبي شخص عاديّ ولا يتمتع بمركز اجتماعي مهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٣٨).

وتارة يقولون إن هذا الكلام قد تعلّمه من الآخرين:

﴿معلَّمٌ مجنونٌ﴾.

﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾(٣٩).

ومن التهم التي كان يلصقها الكفّار بالأنبياء السابقين والنبي الأكرم (ص) تهمة السحر، فتارة يقولون إنه ساحر، وأُخرى يزعمون إنه مسحور أيّ سحره الآخرون فأصبح شارد الذهن:

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً﴾(٤٠).

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِن رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ...﴾(٤١).

ومن الآيات التي تنقل عدداً من ذرائع الكفّار قوله سبحانه:

﴿وقَالُوا لن نُّؤمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلأَرْضِ يَنبُوعاً * أو تَكُونَ لَكَ

(٣٧) الفُرقان: ٣٢.

(٣٨) الزّخرُف: ٣١.

(٣٩) النّحل: ١٠٣.

(٤٠) الإسْرَاء: ٤٧.

(٤١) الذّاريات: ٥٢.

جَنَّةٌ مِن نَخيلٍ وَعِنَبٍ فتُفَجِّرَ ٱلأنْهارَ خِلالَها تفْجيراً * أو تُسْقِطَ ٱلسَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلِيْنَا كِسَفاً أو تأْتي بٱلله وَٱلملائكة قَبيلاً * أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى في ٱلسَّماءِ ولَن نُّؤمِنَ لِرُقيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَّقرَؤُهُ...﴾[٤٢].

﴿وقَالُوا مَالِ هذا الرَّسُولِ يَأكُلُ الطَّعَامَ ويَمْشي في ٱلأسوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إليْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أو يُلْقَىٰ إليْهِ كَنْزٌ أو تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يأكُلُ مِنْهَا...﴾[٤٣].

وبالتالي فإن مّما كان يتعلق به بعض أهل الكتاب لرفض دعوة النبي ما ينقله الله سبحانه عنهم في هذه الآية:

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ عَهِدَ إلينَا ألاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأتِينَا بِقُرْبَانٍ تأكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾[٤٤].

﴿يَسْأَلكَ أهلُ ٱلكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ ٱلسَّماءِ فَقَدْ سَألُوا مُوسَى أكبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أرِنَا ٱللهَ جَهْرَةً فَأخذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهم...﴾[٤٥].

إنها الأعذار التي كان يتمسّك بها الكفّار والمشركون في مقابل دعوة الأنبياء، وعندما يجدون الأنبياء صامدين ولا ينصرفون عن رسالتهم ولا يملّون من الصبر فان الأعداء يبدأون بالتهديد والوعيد:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أرضِنَا أو لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا فَأَوحَى إليْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّالِمِينَ﴾[٤٦].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأحْزَابُ مِن بَعْدِهِم وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِٱلْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بهِ ٱلحَقَّ فأخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[٤٧].

(٤٢) الإسْراء: ٩٠ ـ ٩٣.
(٤٣) الفُرقان: ٧ و ٨.
(٤٤) آل عِمْرَان: ١٨٣.
(٤٥) النِّسَاء: ١٥٣.
(٤٦) إبراهيم: ١٣.
(٤٧) المؤمن: ٥.

إن تكذيب الأنبياء لا يقتصر على قومك أيّها الرسول وإنّما هو موقف شائع بين جميع الأمم ازاء أنبيائها، فهم يحاولون اعتقال الرسل ويجادلوهم ليهزموا بباطلهم الحقّ الذي جاء به الأنبياء ولكنّ الله بالمرصاد ولن يتركهم من دون عقاب.

هذا ما ورد بشكل عام حول جميع الأنبياء.

وأما بالنسبة لكل واحد من الأنبياء فقد نقل القرآن الكريم أُموراً في هذا المجال، منها ما ورد في حقّ النبيّ الأكرم (ص):

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَـكَ مِنَ الأرضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وإذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَن قَدْ أرسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ولا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[٤٨].

فهذه سنة إلٓهية وهي إذا بُعث نبي لهداية مجتمع فدعاهم إلى الله وصبر على ما يواجهه حتى انتهى الأمر بهم إلى العزم على تصفيته وطرده بحيث يبقى وجه الحقّ بعد ذلك مخفيّاً وتنسدّ طرق الهداية أمام الناس فإن عذاب الله حينئذ ينصبّ عليهم. فهذه سنّة نافذة في جميع الأمم وتستعمل «السنّة» في الآيات الكريمة عادةً في مثل هذه الموارد. ولست أدعي الحصر، وإنّما أقول إلى الحدّ الذي استقرأت فيه الآيات الوارد فيها ذكر «سنّة ٱلله» فإنّني وجدتها مستعملة في هذا المورد وهو أن أمم الأنبياء عندما تندفع إلى غاية المخالفة لأنبيائها ولا يعودون مستعدّين لطاعتهم فإن العذاب ينزل عليهم.

ومن الواضح أن هذا لا ينفي وجود سنن أُخرى، وإنما يعني أن لفظ السنة الوارد في القرآن مستعمل غالباً في هذا المورد.

ويُطرح عندئذ هذا السؤال:

إذا كانت هذه السنّـة نافذة فلا بدّ أن لا يُقتل أيّ واحد من الأنبياء لأن الأنبياء سيستمـرون في صمـودهم ومقـاومتهم فإذا وصـل الأمر إلى حدّ قتلهم أو

(٤٨) الإسْرَاء: ٧٦ و٧٧.

إخراجهم فإن العذاب سينزل على الظالمين. وبناءً على هذافكيف يخبر القرآن عن بعض الأمم إنها قتلت الأنبياء:

﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾(٤٩).

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ ٱللَّهِ﴾(٥٠).

وقد وردت كلتاهما في حقّ بني إسرائيل.

فإذا انتهى الأمر إلى حدّ قتلهم فلماذا لم ينزل العذاب لو كانت تلك السنّة الإلهيّة نافذة؟

نستطيع أن نذكر وجهاً للجمع بين هذين (ولم ألاحظ تصريحاً في الآيات ولا في الروايات بذلك) وهو أن المخالفة للأنبياء تتمّ بإحدى صورتين: فتارةً يكون مجتمع من الناس خالياً من أيّ كتاب أو شريعة إلهية فيبعث الله إليه نبيّاً ليخرجهم من الكفر والشرك ويتمّ عليهم الحجّة ويبقى بين أظهرهم وسيلة لهداية من أحب الاهتداء. وفي مثل هذا الوضع لو أقدم الناس على قتله فسيصبح ذلك نقضاً للغرض الإلهي، لأنه سوف لن تبقى واسطة لهداية الناس في المجتمع، فعندئذ إذا تّمت الحجّة عليهم ولم يبدوا استعداداً للقبول فإن العذاب ينزل عليهم ويستنقذ الله النبي والمؤمنين منه.

وتارة أُخرى يكون كتاب الله موجوداً بينهم وكل من يجب أن يعرف طريق الحقّ فإنــه يستطيع ذلك، ويُبعث الأنبياء لإرشاد الناس وتعليمهم، فهم كالعلماء في زماننا. ويستفاد من الآيات الروايات إن كثيراً من أنبياء بني إسرائيل كانوا بهذه الصـورة، ففي الزمان الواحد يوجد عدد منهم، وهم يدعون إلى كتاب موسى(ع) وشريعته، وطريق الهداية مفتوح أمام الناس، فلو لم يكن احدهم فإن الحق لا ينمحي والمجتمع الإنساني لا يضلّ، ففي مثل هذا الوضع قد يُقتل بعضهم ولا ينزل العذاب على الظالمين لأن سبيل الهداية لم ينسدّ تماماً.

فقد ذكرنا لحدّ الآن إنّ الله يرسل الأنبياء لهداية الناس،وقد لاحظنا كيف

(٤٩) النِّسَاء: ١٥٥.
(٥٠) البَقَرَة: ٩١.

يتصرّف الناس مع أنبيائهم، ونتساءل هنا عن فعل الله مع هؤلاء، وهو ما سنتناوله بالبحث في الفصل القادم بإذن الله تعالى.

كيف يعامل الله الناس ؟

قلنا إن المواضيع المطروحة في القرآن حول أمم الأنبياء يمكن تقسيمها إلى عدّة فئات، فئة منها مرّت دراستها وهي التي تتناول بيان كيفيّة سلوك الناس ازاء الأنبياء. وهناك فئة أُخرى تستفاد من الآيات وهي التي تبيّن كيفيّة تعامل الله تعالى مع الناس.

وتـوجـد آيات متعدّدة تشرح موضوع تعامل الله مع الناس بعد أن يرسل الأنبياء إليهم وبعد أن يلاحظ ردود فعلهم على ذلك، ومن جملتها هاتان الآيتان المتشابهتان:

﴿وَمَا أرسَلْنَا في قَرْيَةٍ مِن نَبيّ إلاّ أخذْنَا أهلَهَا بِٱلبَأساءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُم يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيّئَةِ ٱلحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[1].

(١) الأعْرَاف: ٩٤.

فالله لم يرسل نبيّاً إلى أمّة إلاّ وعاملها بهذا الشكل وهو أن يبتليها بالمصاعب والمشاكل بصورة مقارنة لبعثته وذلك من أجل أن تتضرّع الأمّة لله وتتّجه إليه. وبعد فترة من الزمن يتغيّر هذا التعامل فتتبدل المشاكل والمصاعب إلى رفاه وراحة للناس ويستمر هذا الوضع حتّى تعمّ الغفلة الناس، ويعدّون هذا أمراً طبيعيّاً فتارةً يعيش الإنسان الصعوبة وأُخرى يستريح في حياته ﴿**حتى عفوا**﴾، قال المفسرون: أيّ طالت المدة وكثرت، مثل عفى النبات أيّ طال ونما، ومثله ما ورد في الروايات من الأمر باعفاء اللحية، أي إطالة شعرها. فهذه الجملة تعني أنهم عاشوا الراحة والرفاه فازداد عددهم، وتبدّل وضع البأساء والضراء الذي كانوا يعيشونه إلى وضع العافية والسعادة حيث تخلّص الناس من كثير من ألوان العسر والمرض والموت. وقالوا هذه ظاهرة طبيعيّة وليست مقصورة علينا فآباؤنا أيضاً قد مرّت عليهم ظروف صعبة قاسية وظروف سعيدة مريحة، وبدل أن يتضرّعوا لله استغرقوا في غفلة شاملة. فتأتي عندئذ المرحلة الثالثة: ﴿**فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون**﴾ حيث العذاب المفاجيء ينتظرهم.

ويشبهها قوله تعالى:

﴿**ولَقَدْ أرسَلْنَا إلى أمَمٍ من قَبْلِكَ فَأخَذْنَاهُم بالبَأسَاءِ والضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلاَ إذ جَاءَهُم بَأسنَا تَضَرَّعُوا ولَكِن قَسْتَ قُلُوبُهُمْ وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ***﴿ (هذه هي المرحلة الأولى) **فَلَمَا نَسُواْ مَا ذُكِّرُوا بِه** (فهذه الصعوبات من أجل أن يتذكروا ويعودوا إلى رشدهم) **فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أبوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أوتُوا** (بهذا انتهت المرحلة الثانية وتبدأ حينئذ المرحلة الثالثة) **أخذْنَاهُم بَغْتَةً فَإذا هُمْ مُّبْلِسُونَ *** (أي ساكتون لحيرة وانقطاع حجّة) **فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**﴾[٢].

هذه الآيات ـ كما تلاحظون ـ تشتمل على بيان ثلاث سنن إلهية تُنفّذ في الحياة

(٢) الأنعام: ٤٢ ـ ٤٥.

بصورة متعاقبة. وتُستنبط منها ملاحظات كثيرة تتعلّق بعلم النفس وعلم الاجتماع الإسلامي وفلسفة التاريخ.

الملاحظة الأُولى تتعلق بعلم النفس، وهي أساساً فرديّة لكنّها لّما كان من الممكن أن تمتدّ إلى أكثريّة الناس في المجتمع فهي تصبح من هذه الناحية اجتماعيّة. ومضمونها هو كما أن الإنسان يصاب بالغرور والاستكبار والطغيان في حالة النعمة والترف والوفرة والاستغناء:

﴿إِنَّ ٱلإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَى﴾[٣]. فهو في المقابل يعيش حالة التواضع والخضوع عندما يواجه الشدّة والعسر. فهذا الوضع يوفّر الأرضيّة لخروج الإنسان من حالة السكر والغرور والاستكبار وعودته إلى رشده ولجوئه إلى خالقه. فالملاحظة النفسيّة هنا هي أن الصعوبة والعسر في الحياة تجعل الإنسان أكثر تواضعاً، وذلك في مقابل تلك الآيات التي تجعل الرفاه والاستغناء في الحياة مؤدّياً إلى الطغيان والاستكبار. ولا بدّ من الالتفات إلى أن هذه الأُمور ليست علّة تامّة لتلك النتائج وإنما هي مقتضية ومعدّة لها، فقد يعيش شخص حياة النعمة والوفرة ومع ذلك لا يغفل عن ذكر الله ولا يُبتلى بالاستكبار، وقد تُسلب من شخص نعمته ويُمتحن بألوان الصعوبات ولكنّه مع ذلك لا توجد في نفسه حالة الخضوع والتضرّع كما يقول سبحانه: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم..﴾.

وتستفاد ملاحظة نفسيّة أُخرى من آية سورة الأنعام وهي أن الإنسان نتيجةً لتعوده على الحياة المرفّهة وعلى الذنوب تظهر في نفسه حالة تسمى بقسوة القلب، وهي تماماً في مقابل حالة خضوع القلب وخشوعه:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٤].

فهذا الخشوع فيه حالة اللطافة والليونة بخلاف القسوة فإنها تعني الصعوبة والشدة. وقد تظهر أحدى هاتين الحالتين في البُعد العاطفي من روح الإنسان، فأحياناً

(٣) العَلق: ٦ و٧.

(٤) المؤمنون: ١.

يلين قلب الإنسـان بسرعة أمام الحوادث المثيرة للرقّة فيُجهش في البكاء، وأحياناً يكون صعباً لايرفّ قلبه لها، وتغدوا القلوب ﴿كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[٥].

والملاحظة الأُخرى التي تستفاد من الآية هي أن حالة القسوة توفّر الأرضيّة الصالحة لوسوسة الشيطان، فالشيطان يعين أصحابها ويزين لهم أعمالهم.

ويعتبر هذا الموضوع ـ وهو إن الله سبحانه عندما يبعث الأنبياء إلى الناس فهو يبتليهم بالصعوبات والمشاكل ـ مصداقاً لسنّة أعمّ وأشمل.

فالقرآن الكريم يذكر ضوابط للفعل الإلهي فتسمى بالسنن الإلهية. ويصرّح في بعض الموارد بتسميتها بالسنّة كما سوف نشير إليها فيما بعد إن شاء الله وهي غالباً مستعملة في مورد العذاب النازل على الأمم السابقة. إلّا أن مفهوم السنّة قابل للتعميم إلى مجالات أُخرى أيضاً. فالأسلوب الإلهي في التعامل مع الناس إذا كان عامّاً فإنه يمكن تسميته بالسنّة الإلهيّة.

ومن جملة هذه السنن الإلهيّة[٦] إن الله يهدي الإنسـان بجميع أفراده وعلى طوال التأريخ إلى طريق الحقّ والخير. فقسم من هذه الهداية مشترك بين جميع الموجودات:

﴿رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[٧].

وقسم منها يتمّ بفضل ما زوّد الله به الإنسان من قوى وإدراكات:

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٨].

وقسم منها يتمّ بفضل الأنبياء. وهداية الأنبياء نفسها واحدة من السنن الإلهية. فبالإضافة إلى أنهم يبيّنون للناس طريق الخير والاستقامة فان هناك سنّة أُخرى تتحقّق من خلال بعثتهم وهي أنهم يهيئون عوامل البيئة لقبول الحقّ، لأنّه كما استفدنا

(٥) البَقَرَة: ٧٤.
(٦) لعلّنا نستطيع فيما بعد التحدّث بإجمال عن هذه السنن المستفادة من القرآن الكريم.
(٧) طه: ٥٠.
(٨) النّحل: ٧٨.

من هذه الآية الشريفة فإن روح الإنسان تكون بشكلٍ بحيث إذاتورّطت في الصعوبة والعسر تظهر فيها حالة من الليونة والرقّة وتتنازل عن غرورها وكبريائها.والله سبحانه يهيّىء ظروف البيئة لقبول دعوة الأنبياء، كما لو فرضنا قلّة هطول الأمطار وضيق الأرزاق و حدوث الزلازل، فهذه عوامل تؤدّي إلى تذكّرالإنسان وخروجه من حالة الغرور وعودته إلى رشده. يتمّ هذان بصورة متقارنة، حيث تحصل له الهداية في بعد المعرفة وتنبعث من أعماقه تارة بواسطة العقل وأُخرى بفضل الأنبياء، فعندما يُبعث الأنبياء فإنهم ينمّون بُعد المعرفة في الإنسان. إلّا انّ هذا ليس كافياً وإنّما لا بدّ من تربية بُعده العاطفي، ولهذا فهو يُعدّ الأرضيّة العاطفية أيضاً بواسطة عوامل البيئة، فالظروف الطبيعيّة والجويّة وأُمور أُخرى تؤدّي إلى ظهور حالة الرقّة في الإنسان. فبانضمام هذين إلى بعضهما تتوفّر أرضيّة الهداية وانتخاب الطريق المستقيم.

ثمّ نصل إلى المرحلة الثانية فعندما تتوفّر ظروف قبول الحقّ في الإنسان فهو عادةً يختار الطريق الصحيح ويسلّم بدعوة الأنبياء، إلّا أننا قد نبّهنا على أن المعرفة وظروف البيئة والوضع النفسي ليست علّة تامّة لانتخاب الإنسان فهي لا تجبره، وإنما لا يزال سبيل الاختيار والانتخاب مفتوحاً أمامه، ولا سيّما إذا كانت قد توفّرت من قبل أرضيّة أُخرى وموانع حتى تحول دون تأثير هذه العوامل والمقتضيات.

فإذا كان هناك أُناس قد ابتلوا بقسوة القلب نتيجة لأعمالهم السيئة الماضية فإن هذه القسوة تصبح مانعاً في وجه هذا المقتضي. وتارة تكون هذه الموانع باطنية مثل قسوة القلب هذه، وتارة خارجية تحصل خارج النفس وهي تزيين الشيطان. فهذه تتظافر ولا تترك ذلك المقتضي يؤثّر أثره. وعندما تنعدم أرضيّة تلك السنّة الأُولى، أيّ أن علة ظهور البأساء والضرّاء في حياتهم وهو دفعهم للتضرّع إلى الله والاتجاه إليه، لكنّ هؤلاء الناس ابتلوا بقسوة القلب وتعاملوا مع الشيطان فأدّى ذلك إلى حجب هذا العامل عن التأثير، وحينئذ أصبحوا مجرى لسنّة أُخرى وهي أن تزداد عندهم النعم الماديّة لتتضاعف غفلتهم، وهذا هو ما تسمّيه الآيات بـ «الإملاء»

و «الإستدراج»:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِأَيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِن حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[٩].

و«الإستدراج» هو سحب الشيء درجة درجة وشيئاً فشيئاً نحو مكان مّا. و«الإملاء» هو الإمهال، كقولهم أمليت للفرس أي أرخيت له العنان. فالذين يكذبون الأنبياء بعد إتمام الحجّة عليهم ومعرفتهم للحقّ ورفضهم الانصياع له نتيجة لاستكبارهم وقسوة قلوبهم الحاصلة في أعمالهم السابقة لا يتمتّعون بالأرضيّة النفسية المساعدة لقبول دعوة الأنبياء. وهؤلاء عندئذ لا يستحقّون أن يعينهم الله مرة أُخرى ويهديهم إلى الصراط المستقيم، لأن هداية الله سبحانه ليست جبرية، وقد وفّر الله المقدّمات وساعد إلى الحدّ الذي لا ينتهي إلى الجبر، فقد منحهم المعرفة السليمة ووفّر لهم الأرضيّة النفسية المناسبة، ولكن هذه جميعاً لم تؤثّر فيهم، فهم بأيديهم جعلوا أنفسهم مجرى لسنة أُخرى وهي سنّة الإملاء والاستدارج. ونشبّه هذا الإملاء والاستدارج بالصيّاد الذي يريد إيقاع الطير في الشِباك، فهو يعرف مكان الصيد وينصب شِباكه في مكان ثمّ يُلقي بالطعام المناسب على رأس كل عدّة أمتار، فإذا شاهد الصيد الطعام القريب منه دنا إليه وتناوله وعندئذ يرى الموضع الثاني للطعام فيقترب منه وهكذا يدنو تدريجياً من دون أن يلتفت إلى المصيدة المنصوبة له حتى يصل إليها ويقع فيها. هذا هو الإستدارج، فالله سبحانه يجرّ هؤلاء تدريجياً وهم فرحون حيث تزداد نعمهم يوماً بعد آخر، وأحياناً يفتخرون على الآخرين بهذه النعم وهم غافلون عن أنها حبّات في طريق الشّباك، وتنتهي إلى هذا المصير: ﴿اخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾.

وقد يسأل البعض: هل من الجائز على الله سبحانه ان يخدع الناس ويجرّهم نحو العذاب والشقاء تدريجياً؟

(٩) الأعْرَاف: ١٨٢ و١٨٣

والجواب العام وهو إن ذلك جائز بالنسبة لمن يسيء الاختيار وهو العقاب الذي يستحقونه، والكيد والمكر قبيح إذا كان لهدف باطل، وأما بالنسبة لهؤلاء فقد أتمّ الله الحجّة عليهم ومع ذلك فانهم اختاروا الكفر فهم مستحقون للعذاب، ولهذا يقول سبحانه:

﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[١٠].

وقد ورد الإملاء في آيات أُخرى منها قوله عزَّ وجلّ:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[١١].

كيف كان عقابي؟ هل كان مطلوباً حتّى يبحث عنه الآخرون أيضاً أم شيئاًغير محبوب حتّى يتقيه الآخرون؟ وإذا أرادوا حفظ أنفسهم منه فلا بدّ لهم أن لا يسلكوا تلك السبيل التي سلكها من وقع فيه. لو أن حيواناً شاهد حيواناً آخر يسلك طريقاً وينتهي به إلى الشِباك فإن ذلك الحيوان يفرّ ولا يسلك هذا الطريق، وأنتم أيها الناس تشاهدون سالك طريق تكذيب الأنبياء إلى أين ينتهي به المسير، فهل هذه النتيجة تصلح لكم؟ وكيف كان هذا العقاب؟ إن كان شيئاً مطلوباً فاسلكوا أنتم أيضاً نفس الطريق:

﴿فَذَرْني وَمَن يَكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأملي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِيْنٌ﴾[١٢].

دعني مع من يكذّب القرآن فأنا الذي أعرف كيف أتصرّف معهم، وأبدأ باستدراجهم بالنعم حيث ألقى الحبَّ أمامهم وأمهلهم إلّا أن لهذه المهلة نهاية وسوف يواجهون الشِباك التي أعددتها لهم.

ويقول سبحانه في سورة أُخرى:

(١٠) النِّسَاء: ٧٦.

(١١) الرّعد: ٣٢.

(١٢) القلَم: ٤٤ و ٤٥.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إبرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأصحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأملَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أخذْتُهُم فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾(١٣).

لقد تصرّفنا بشكل واحد مع كل هؤلاء الكافرين فبدأنا بالإمهال ثمّ العقاب، فكيف كان ردّ الفعل على العمل السيّء؟

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(١٤).

فهذا الإمهال يضيف إلى أعمارهم أياماً مليئة بالذنوب فيثقل حملهم ويسقطون فجأة في عذاب لا يترك لهم كرامة إلّا ويدوسها.

ذكرنا لحدّ الآن سنّتين، وهذه سنّة أُخرى وهي العذاب، فبعد أن تنتهي مهلة هؤلاء وتزداد ذنوبهم فإنهم يصلون إلى نقطة يجدون فيها أنفسهم وسط شِباك العذاب الإلهي. وفي جميع هذه الآيات إشارة لهذه المرحلة الثالثة، إلّا أنّ هذا الموضوع قد بيّنه القرآن بصور متنوّعة لينذر الناس ويحذّرهم من هذا المصير ولكل الأمم التي سارت في طريق التكذيب للأنبياء، حتّى يتّعظ الآخرون ويحفظوا أنفسهم من تلك النهاية الفاجعة

وتوجد آيات عديدة تحثّ الناس على التأمل في وضع السابقين. ونلاحظ في هذا المجال تعبيرات في القرآن من قبيل: ﴿**سيروا في الأرض**﴾، ﴿**أفلم يسيروا في الأرض**﴾، ولما كانت هذه الآيات مرتبطة ببعضها، ولها ارتباط بموضوع الفصل السابق لهذا نبدأ بهذه الآيات ثمّ نشير إلى الآيات ذوات الصبغة العامّة:

يقول القرآن الكريم عن أصحاب الجاهلية في الحجاز:

﴿وَأقسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أيمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أهدَى مِن إحدَى

(١٣) الحجّ: ٤٢ ـ ٤٤.

الأُمَم فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً * استكْبَاراً في الأرض وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إلاَّ بِأهلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الاوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾[١٥].

فتارة يضيف «السنّة» إلى الله وأُخرى يضيفها إلى «الأوَّلين»، ولا نحتاج في الإضافة إلاّ إلى أقل مناسبة، فهي تضاف إلى الله لأنه هو الذي ينفّذها وتضاف إلى «الأوّلين» لأنها قد نُفّذت فيهم. ثمّ يلحقها قوله عزَّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا في الأرض فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأرضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾[١٦].

وتوجد هنا ملاحظة مهمّة وهي أن هذه الآيات مترابطة، فعندما يشاهد هؤلاء الكافرين السابقين إلى أين انتهى بهم المطاف وكيف تورّطوا في العذاب فلعلّ هذا السؤال يخطر في بالهم وهو: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نُعذَّب نحن؟ فيكون الجواب من القرآن الكريم:

﴿ولَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أجلٍ مُسَمًّى فَإذا جَاءَ أجلُهُمْ فَإنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾[١٧].

ويذكر هذا الموضوع في آيات أُخرى أيضاً مع الإلفات إلى حقيقة جديدة وهي أن أصل التعذيب للمفسدين والمجرمين أمر ثابت لا يتغيّر، غاية الأمر انه يتحقّق بصور مختلفة بحسب التعيّنات التي تلحقه من السنن الأُخرى. وتلك الحقيقة هي أن لتلك السنن الإلهيّة علاقات مع بعضها:

أوّلاً: قد تكون إحدى السنن على حدّ الاقتضاء فحسب أو أنها مشروطة بشرط وجوديّ أو عدميّ، فمثلاً تعذيب الكافرين سنة لكنّها مشروطة بشرط وهو ان

(١٥) فاطر: ٤٢ و ٤٣.

(١٦) فاطر: ٤٤.

(١٧) فاطر: ٤٥.

يكون قد وصل أجلهم. وكيف يُعيّن هذا الأجل؟ بواسطة سنّة أُخرى وهي التبعية لمصالح ومفاسد خاصّة، من جملتها أن الله تعالى قد خطّط للناس أن يعيشوا على وجه الأرض ويتناسلوا لتستمر الأجيال فيولد من الجيل الخيّر جيل رديء وبالعكس. ولو أن الله يقوم بتعذيب الناس بمجرّد كفرهم فإن الهدف من خلق الإنسان لا يتحقّق، فلا بدّ أن تتواصل الأجيال. ويستمر هذا حتى يعلم الله أن هؤلاء سوف لن ينجبوا جيلاً مؤمناً مثل قوم نوح الذين يقول عنهم نوح(ع):

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾[١٨].

وهناك مصالح أُخرى لسنا نعلمها ومجموع هذه هو الذي يعيّن أجل كل قوم. فمجموع هذه المصالح والمفاسد التي تتلاقى فيها سنن عديدة هي التي تشخّص سنّة التعذيب. فتلك السنن هي التي تعيّن أجل العذاب.

ويتمّ هذا التعذيب في هذه الدنيا بإحدى صورتين:

احداهما عذاب الاستئصال حيث ينزل العذاب ويؤدّي إلى انقراض المجتمع بأكمله عدا أفراد قليلة هنا وهناك ينقذهم الله.

والثانية العذاب المحدود بفئة معينة وفي ظرف خاص أو العذاب الذي لا يؤدّي إلى الموت. ومثل هذا العذاب موجود دائماً. ولهذا اللون من العذاب ضوابط ومعايير، فقد يكون الفرد مبتلى بعذاب شخصي، وقد يبتلى صنف من المجتمع أو كل المجتمع بعذاب لا ينتهي بهم إلى الموت وإن كان بعض أفراد يموتون. ومثل هذا العذاب ليس مقابلاً بالدقة لما يعمل الناس من ذنوب وإنما هو في مقابل بعض الذنوب، فهو جانب من العقاب على الذنوب، ولو أراد الله أن يعاقب في هذه الدنيا كل مرتكب للذنب ﴿ما ترك على ظهرها من دابّة﴾ إذن هناك سنّة أُخرى تحدّد هذه السنة. فإذا لم ينالوا نصيبهم من العذاب في هذه الدنيا فهناك العذاب الأُخرويّ وهو سنّة لا تتغير.

وأما بالنسبة لبعض الأفراد في المجتمع أو لبعض الفئات فقد يعذَّبون في هذه الدنيا عذاباً بهدف تنبيههم أو لكي يتّعظ بهم الآخرون، وإذا لم يؤدّ بهم إلى الموت

(١٨) نوح: ٢٧.

فلعلّهم يثوبون إلى رشدهم ويقلعون عن المعصية.

وهذه الآيات ناظرة إلى مثل هذا الأمر:

﴿ولَوْ يُؤاخِذُ ٱللهُ النَّاسَ بظُلْمِهم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أجلٍ مُسَمّى فَإذا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخرونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[١٩].

وهناك ألوان من العذاب الجزئي الذي يلحق الناس نتيجةً لأعمالهم السيئة، ولكن لا ينبغي أن يتوهّم أحد أنه كل جزائهم وإنما هذا هو جزء من عقابهم يعذّبهم به في هذه الحياة الدنيا لتنبيههم أو إلفات غيرهم.

فالأعمال السيئة للإنسان هي منشأ المصائب:

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[٢٠].

إن كل مصيبة تحلّ في المجتمع فهي نتيجة للأعمال السيئة في ذلك المجتمع، إلاّ أن الله يعفو عن كثير منها. وهذا هو مصداق تلك الآية الكريمة:

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة﴾.

ويبيّن لنا سبحانه جانباً من آثار أعمالنا السيئة:

﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أيدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الذَّي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢١].

فهذه هي بعض نتائج أعمالنا، ويذيقنا الله إياها بهدف أن نرجع عنها ونتوب منها، ثمّ يقول سبحانه:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأرضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أكثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾[٢٢].

فلماذا قال تعالى: ﴿كان أكثرهم مشركين﴾؟

(١٩) النّحل: ٦١.
(٢٠) الشّورى: ٣٠.
(٢١) الرُّوم: ٤١.
(٢٢) الرُّوم: ٤٢.

هل المقصود منه ان أكثر السابقين قد عُذِّبوا وقد كان المعذَّبون جميعاً مشركين؟

أم المقصود هو إن أكثر المعذَّبين كانوا مشركين وهناك أقليّة في المعذَّبين لم تكن مشركة، فلماذا عُذِّب هؤلاء؟ لأنهم كانوا فسقة، فبعض الأمم الغابرة لم تكن مشركة وإنما هي موحّدة إلاّ أنها ارتكبت ألواناً من الفساد فاستحقّت العذاب الإلهي، مثل أصحاب السبت، فأنهم ما كانوا مشركين بل كانوا يحاولون تطبيق أوامر الله حسب الظاهر ولهذا لم يذهبوا إلى الصيد المباشر يوم السبت لأنه كان محرّماً عليهم، بل كانوا يصنعون أحواضاً تجتمع فيها الأسماك يوم السبت، وهم يأتون لصيدها يوم الأحد، ولكنهم استحقّوا العذاب الإلهي لانهم أرادوا اللعب بأحكام الله:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[٢٣].

وعلى كل حال فإن الأعمال السيئة إجمالاً من كفر وظلم وتكذيب للأنبياء وغيرها تستوجب العذاب الإلهي في الدنيا علاوة على ما أعدّه الله لهم من عذاب في الآخرة، ولكنّه أحياناً تحكم سنن أخرى على هذه السنّة، كأن يمهلهم الله ليأتي منهم جيل صالح أو أنهم لم يصل أجلهم الذي حدّده الله لهم:

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢٤].

وهذه الآية خطاب للمسلمين الذين ارتبكوا بعض الذنوب.

وهناك آيات تقول: ﴿لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾[٢٥].

ففي جميع هذه الآيات يصرح الجليل سبحانه بأن شيئاً يمنعنا من تعذيبكم وإلاّ فانكم مستحقون للعذاب وذلك الشيء هو: ﴿كلمة سبقت من ربك﴾ فأنتم لا تعذبون فعلاً حتى تصلوا إلى أجلكم المسمّى، ويُعيّن الأجل حسب مصالح محدّدة، فقد تعلّقت الإرادة الإلهيّة بوجودكم على الأرض فترة من الزمن ولهذا لا تعذّبون مع

(٢٣) البَقَرَة: ٦٥.

(٢٤) الأنفال: ٦٨.

(٢٥) يونس: ١٩. هُود: ١١٠. فُصّلت: ٤٥. الشّورى: ١٤. طه: ١٢٩.

استحقاكم للعذاب.

وفي إحدى الآيات يقول عزَّ وجلّ:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢٦].

فالله إذا منح إنساناً نعمة فإن كرمه يقتضي أن لا يسلبها منه إلّا إذا زال استحقاقه لها.

﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢٧].

وتفيد هذه الآية نفس ما أفادته سابقتها، إلّا أنّ بعضهم أراد أن يفهم من هذه الأخيرة الإطلاق فقال إنها أعمّ من تغيير النعمة أو النقمة. ولعلّنا نستظهر من سياق الآيات إن مفهومها واحد: وهو أن الله لا يغير نعمة منحها للناس إلا إذا فقدوا الاستحقاق لها. ولا يفهم منها أن النقمة النازلة على الناس أيضاً لا تُغيّر إلّا إذا غيّر الناس أنفسهم، فالله يقول في تلك الآية الماضية: **﴿ثمّ بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا﴾** فالله كان قد عرّض الناس لصعوبات ثمّ غيّر هذا الوضع لا أنّ وضع الناس قد تغيّر، فهم أنفسهم الذين كانوا من قبل دون تغيير ومع ذلك غيّر الله النقمة إلى نعمة.

فهذا شاهد على أن مفاد هذه الآية هو مفاد سابقتها: أي أن الله لا يغيّر النعمة إلّا إذا فقد هؤلاء الإستحقاق لها، وأما النقمة فقد يغيرها الله من دون تغيير من قبل الناس لمصالح يعلمها هو من جملتها الإملاء والاستدراج.

وقد عرفنا ضمناً إن كل صعوبة ومشكلة ليست هي عذاباً، فالعذاب هو النازل على الناس عقوبة على أعمالهم السيّئة ولكنه أحياناًقد تصيب الناس صعوبات ومشاكل إلّا أنّها رحمة في الواقع:

﴿فأخذْناهم بِٱلبأساء والضرّاء لعلّهم يتضرّعون﴾.

(٢٦) الأنفال: ٥٣.

(٢٧) الرّعد: ١١.

فهذه البأساء والضرّاء نعمة لكي ينتقلوا إلى حالة التضرّع. فالمشاكل إذن ليست دائماً عقوبة على الأعمال السابقة.

وفي بعض الأحيان قد تدخل في سنة أُخرى أعمّ وأشمل وهي سنّة الإمتحان والاختبار، فمن وجهة نظر القرآن الكريم يكون الهدف من خلق الإنسان في هذه الدنيا هو الامتحان:

﴿ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾.

ويحتاج الاختبار إلى وسائل، ووسائله تارة تكون من الخير وأُخرى من الشر:

﴿ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة﴾.

فالصعوبات قد تكون وسائل للإمتحان وليست هي عقوبة على شيء فقد يبتلى شخص بعذاب حتى يُختبر مدى صموده على الحق؛ أهُوَ يصبر عليه أم يملّ منه؟

فهذه السنّة عامة بالنسبة إلى جميع الموارد.

وهناك ملاحظات أُخرى حول السنّة سوف نشير إليها في فصل لاحق بإذن

السنن الإلهيّة

لاحظنا فيما سبق آيات يبيّن فيها الله سبحانه إنه عندما يبعث الأنبياء إلى الأمم فهو يبتلي تلك الأمم ابتداء بالمصاعب والمشاكل حتّى يعدّهم للإلتفات إلى الله تعالى ولتتوفّر فيهم الأرضيّة النفسيّة المساعدة لقبول دعوة الأنبياء.

ثم بعد أن لا ينفع معهم هذا الأسلوب ويصرّون على التكذيب فإن الله يفتح عليهم أبواب نعمه، وتكون هذه النعم في الواقع إملاءً واستدراجاً لهم حتى ينتهي الأمر إلى نزول العذاب عليهم.

وكان حديثنا في الفصل السابق عن هذه السنّة الثالثة وهي نزول العذاب على الأمم بعد أن اجتازت المراحل السابقة وأصرّت على مخالفة الأنبياء.

ولدينا آيات كريمة تبيّن هذا الموضوع بشكل عام، وهذه الآية نموذج لها:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِن قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً ءاخَرِينَ﴾[1].

(١) الأنعام: ٦. وتشبهها هذه الآيات: الأنعام: ١١، ٤٢. الأنبياء: ٤١. هُود: ١٠٢. العنكبوت: ٤٠. الأنفال: ٥٢ و٥٣. الرّعد: ٣٢. الحجْر: ١٠ ـ ١٣. الرُّوم: ٩، ٤٢، ٤٧. فاطر: ٢٥ و٢٦. المؤمن: ٢١ و٢٢. فُصّلت: ٨٢ ـ ٨٥. الزّخرُف: ٧ و٨. الحجّ: ٤٥ و٤٦. مريم: ٩٨. محمّد: ١٠ ـ ١٣. ق: ٣٦ و٣٧

كانت هذه الآية تتحدّث بشكل عام عن الأمم الماضية وإهلاكها. وهناك آيات تتحدّث عن كل أُمَّة من تلك الأمم بشكل خاص:

فبالنسبة لقوم نوح توجد هذه الآيات:

الأَعْرَاف: ٦٤.

يونس: ٧٣.

هُود: ٣٩ ـ ٤٩.

الأنبيَاء: ٧٧.

المُؤْمِنُون: ٢٧.

الفُرْقان: ٣٧.

الشُّعَرَاء: ١٢٠.

العنْكبوت: ١٤.

الصَّافات: ٨٢.

الذّارِيات: ٤٦.

القَمَر: ١١ ـ ١٥.

نوح: ٢٥.

وبالنسبة لقوم عاد نلاحظ هذه الآيات:

الأَعْرَاف: ٧٢.

هُود: ٥٩ ـ ٦٠.

المُؤْمِنُون: ٤١.

الشُّعَرَاء: ١٣٩.

فُصّلت: ١٦.

الأحْقاف: ٢١ ـ ٢٥.

الذّاريات: ٤١ و ٤٢.

القَمَر: ١٩ و ٢٠.

الحاقّة: ٧.

وهذه الآيات واردة في حق قوم ثمود:

الأعْرَاف: ٧٨.

هُود: ٦٨.

الشُّعَرَاء: ١٥٨.

النّمل: ٥١ و ٥٢.

فُصّلت: ١٧.

الذّرايات: ٤٤.

القَمَر: ٣١.

الحاقّة: ٥.

الشَّمس: ١٣ ـ ١٥.

وأما في مورد قوم إبراهيم فليس في القرآن الكريم آية تصرّح بنزول العذاب عليهم، إلّا أن هناك آية تقول:

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[2]. ولم تبيّن كيفيّة هذا الخسران.

وفي مجال قوم لوط تُلاحظ هذه الآيات:

الأعْرَاف: ٨٤.

هُود: ٨٢.

الحِجْر: ٧٣ و ٧٤.

النّمل: ٥٨.

الشُّعَرَاء: ١٧٣ و ١٧٤.

العنْكبوت: ٣٤ و ٣٥.

(٢) الأنبياء: ٧٠.

الصَّافات: ١٣٦.

الذّاريات: ٣٢ ـ ٣٧.

القَمَر: ٣٤ ـ ٣٩.

وأما قوم شعيب فتدور حولهم هذه الآيات:

الأعْرَاف: ٩١.

هُود: ٩٤ و ٩٥.

الشُّعَرَاء: ١٨٩ و ١٩٠.

العنْكبوت: ٣٧.

وبالنسبة لقوم فرعون (هناك لونان من العذاب قد صُبّا على هؤلاء احدهما من قبيل السنّة الأُولى: ﴿**فأخذناهم بالبأساء والضَّرَّاء لعلهم يتضرَّعون**﴾. فهو ليس من قبيل عذاب الإِستئصال وإِنما هو للتنبيه كالقحط، وتذكره الآيات «١٣٠ ـ ١٣٥» من سورة الأعْرَاف. والثاني من قبيل السنّة الثالثة وهو عذاب الاستئصال وتتحدّث عنه آيات كثيرة) من جملتها:

البَقَرَة: ٥٠.

الأعْرَاف: ١٣٦.

يونس: ٩١ و٩٢.

هُود: ٩٩.

الإِسْرَاء: ١٠٣.

طه: ٧٨.

المُؤْمِنُون: ٤٨.

الفُرْقان: ٣٦.

الشُّعَرَاء: ٦٦ و٦٧.

النّمل: ١٤.

القَصَصْ: ٤٠.

المُؤْمِن: ٤٥.

الزّخرُف: ٥٥ و ٥٦.

الذّاريات: ٤٠.

المُزَّمل: ١٦.

النَّازعات: ٢٥.

وهناك أمم أُخرى يتحدّث القرآن عن تعذيبها ولكنّه لم يسمّها باسم نبيّها، ومنهم:

أصحاب السبت: وهم فريق من بني إسرائيل وردت قصّتهم في السورتين:

البَقَرَة: ٦٥ و ٦٦.

الأعْرَاف: ١٦٣.

وقوم سبأ الواردة قصتهم في سورة سَبَأ: ١٥ ـ ٢٠.

وأصحاب الرّس في سورة الفُرْقان: ٣٨ و ٣٩.

وأصحاب الاخدود وذلك في سورة البُرُوج: ٤.

وأصحاب الفيل في سورة الفِيل: ١ ـ ٥.

وقد نقل القرآن قصصاً عن بعض الأشخاص مثل قارون في سورة العنكبوت: ٤٠.

وفي بعض الموارد ذكرت عدّة أُمم معاً، منها: الفَجْر: ٦ ـ ٣٦.

حيث ذكر قوم عاد وثمود وفرعون معاً.

والملاحظة التي تستحق الاهتمام في هذا المضمار ومنها تستنبط سنّة أُخرى هي أن عذاب الاستئصال عندما ينزل فهو يشمل الكافرين فحسب. وأما العذاب التنبيهي فعندما ينزل على مجتمع فإنه يشمل المؤمنين فيه أيضاً، فلو فرضنا أن مجتمعاً أُبتلي بالقحط والغلاء والجفاف فهذا العذاب يشمل المؤمن والكافر فيه، ويكون

للمؤمن امتحاناً وللكافر تنبيهاً. إلاّ أنّ عذاب الاستئصال الموجب للهلاك مختصّ بالكفّار، فلو فرضنا وجود مؤمن بين هؤلاء لأنقذه الله منه، وهذه سنّة أُخرى من سنن الله. ونلاحظ في هذا المجال آيات متنوّعة: فبشكل عام يقول هناك سنّة إلّهيّة وهي أن الأنبياء منتصرون. ولا يعني هذا النصر أنّ أيّ نبيّ لا ينال الشهادة، والمهمّ هو انتصار هدفهم. ويؤكّد سبحانه أيضاً على إنقاذ الأنبياء حين نزول عذاب الاستئصال: فالآيات العامّة هي: ﴿ولَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾[٣].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[٤].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّنَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَأَمَنَت طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسرَاءِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فأَيَّدنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فأصبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[٥].

ويستفـاد من هذه الآية الأخـيرة ان قوم عيسى(ع) قد تعرّضوا للون من العذاب وبالتالي انتصر المؤمنون عليهم.

وتوجد إشارة أُخرى إلى قوم عيسى، فبعد أن يذكر سبحانه بعثة عيسى(ع) يقول:

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[٦].

ومن الواضح أن الآية ليست صريحة في كون العذاب واقعاً في هذا العالم، إلاّ أن من المحتمل كونها مشيرة إلى يوم أليم في هذا العالم يمّر على الذين كفروا بعيسى(ع).

(٣) الصّافات: ١٧١ ـ ١٧٣.

(٤) المؤمن: ٥١.

(٥) الصّف: ١٤.

(٦) الزّخرُف: ٦٥.

ويوجد شيء آخر يشبه هذا وهو تأكيد القرآن على إنقاذ من كان مستضعفاً ـ تحت أيدي المستكبرين ـ من أتباع الأنبياء، ولعلّه يستفاد من الآية أن هذه سنّة أيضاً. فبعد أن يذكر الله سبحانه إن فرعون قد استضعف طائفة من الناس يقول تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[7].

فالتعبير بالفعل المضارع يمكن أن يستظهر منه الدلالة على الدوام والاستمرار، مع أن الآية واردة في حقّ بني إسرائيل الذين استضعفوا من قبل فرعون، وبناءً على هذا تصبح هذه سنّة إلٓهيّة أيضاً، ويؤيّد هذا ما ورد من روايات تؤكّد على أن من بطونها ما يشير إلى ظهور المهدي المنتظر عجّل الله فرجه الشريف.

ويقول عزَّ وجلّ في آية أُخرى:

﴿وعَدَ ٱللهُ الَّذِينَ ءامَنُوا منكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتُ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارتَضَى لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أمناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ومَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[8].

وهـذا الموضوع وهو أن الله ينصر الأنبياء والمؤمنين ويعدهم به وكذا بعض السنن الواردة في الكفّار يمكن أن تصبح مصداقاً لسنّة أعمّ وأشمل.

فيستفاد من آيات القرآن الكريم انَّ لله سنناً عامّة وتضمّ تحتها سنناً أخصّ منها، بمعنى إنها تتخذ شكلًا خاصّاً. فمن السنن الإلٓهيّة العامّة هذه السنّة: وهي بعد إتمام الحجّة على الناس فإن أيّ طريق ينتخبه الناس فالله يعينهم فيه، فإن كانوا قد اختاروا طريق الخير فالله يعينهم على التقدّم في طريق الخير، وإن اختاروا الشرّ فالله يعينهم

(٧) القَصَصْ: ٥ و٦.

(٨) النُور: ٥٥.

أيضاً للتقدّم فيه. ومصداق هذه السنّة (وهي أن الله يُعين من اختار طريق الشرّ للتقدم فيه) هي سنّة الإملاء والاستدراج حيث يمهل الله الكفار ويزيد عليهم نعمه ليزدادوا إثمًا.

وتستفاد هذه السنّة العامّة التي نستطيع تسميتها بسنّة «الإمداد» من قوله تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * ومَنْ أرادَ الأخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كانَ سعْيُهُم مَّشكوراً * كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاَءِ وهَؤُلاَءِ مِنْ عطَاءِ ربِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾(٩).

فهو تعالى يقسّم الناس ابتداءً إلى فئتين: فئة طالبة للدنيا وللحياة المتصرّمة الفانية، وفئة حريصة على الحياة الآخرة والسعادة الخالدة، ثم يؤكّد على أنه سبحانه يمدّ الجميع، ثمّ يكمل عزَّ وجلّ الموضوع بقوله:

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾(١٠).

فالسنّة العامّة التي هي سنّة الإمداد لها شقّان أحدهما يتعلّق بالكافرين وهي سنّة الإملاء والاستدراج، والآخر يتعلّق بالمؤمنين وهي سنّة النصرة والتأييد:

﴿مَن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الأخِرَةِ نزِدْ لَهُ فِي حرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ومَالَهُ فِي الأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾(١١).

وتختلف لهجة هاتين الجملتين بحيث تثير الانتباه، حيث يقول سبحانه عمّن يطلب الدنيا: ﴿نؤته منها﴾ بينما يقول عن طلّاب الآخرة: ﴿نزد له في حرثه﴾، وهذا دليل على اهتمام لله خاصّ بطالبي الآخرة وهو المناسب لساحة الله ورحمته لأن الهدف

(٩) الإسْرَاء: ١٨ ـ ٢٠.
(١٠) الإسْرَاء: ٢١.
(١١) الشّورى: ٢٠.

الأساسي من خلق الإنسان هو سيره التكاملي، وأمّا إذا أُعين الآخرون إعانة تؤدّي إلى الإضرار بتكاملهم فإنهم مقصودون بالتبع.

ويستفاد أيضاً: ﴿مَنْ كَان يُرِيدُ العَاجِلَةَ عجّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ إنَّه ليس من اللازم أن يُحقّق لطالبي الدنيا كل ما يريدون، وإنَّما ينالون من نِعم الدنيا بمقدار ﴿مَا نَشاءُ﴾، وأيضاً ليس لكل أحد وإنَّما ﴿لِمَنْ نُريدُ﴾، بينما المؤمن الطالب للآخرة والذي سعى لها سعيها سيكون سعيه مشكوراً حتماً ومن دون تخلّف.

ومن السنن الإلهيّة العامّة هي أن من يشكر النعمة فالله يزيدها له ومن يكفر بها فهو يقلّلها عليه. ونعم الله مختلفة بعضها مادي وبعضها معنويّ، فمن يشكر النعم المادية تزداد نعمه المادية ومن يشكر النعم المعنوية فالله يزيد نعمه المعنوية. وكذا الكفران بالنعمة.

فبالنسبة للنعم المادية يذكر القرآن الكريم نفسه مثلاً لها:

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قرية كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يأتِيها رزْقُهَا رغداً مِنْ كُلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بأنْعُمِ اللهِ فأذَاقَها الله لِبَاسَ الجُوعِ والخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(١٢).

فكفرانهم بالنعم هو الذي ابتلاهم بالفقر والخوف.

وفي مجال آخر يقول تعالى بشكل عام:

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُم إنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(١٣).

وكما قلنا فإنَّ للشكر مصاديق متعدّدة منها شكر النعم الدنيويّة ومنها شكر النعم الأُخروية، فبالنسبة للنعم الدنيوية يؤكّد الجليل:

﴿ولَوْ أنَّ أهْلَ القُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ والأرْضِ وَلَكِنْ كَذّبُوا فَأخَذْناهم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١٤).

ومن الواضح أنَّ هذا الكفران كان للنعم الدنيوية والمعنوية معاً.

(١٢) النّحل: ١١٢.

(١٣) إبراهيم: ٧.

(١٤) الأعْراف: ٩٦.

وهو يقول سبحانه ﴿لَوْ أَنَّهُمْ إِتَّقُوا﴾ «ولازم التقوى أنّهم شكروا النعم الماديّة والنعم المعنويّة» لزدنا نعمهم الدنيوية.

وبالنسبة للنعم المعنوية بالذات يقول عزّ وجلّ في أصحاب الكهف:

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾[١٥].

ويعتبر هذا مصداقاً لكبرى تذكرها الآية المباركة:

﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدوا هُدى﴾[١٦].

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدَى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[١٧].

هذا هو الإمداد الإلهي في مجال النعم المعنوية للمؤمنين، وهو مصداق للشكر أيضاً لأنَّ التمسك بالإيمان شكر للنعم الإلهية.

ويعدّ هذا في مقابل الذين اختاروا لأنفسهم الضلال فإنَّ هؤلاء أيضاً يُضاف إلى ضلالهم:

﴿في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللهُ مَرَضاً..

فالمرض الأول قد تورّطوا فيه بسوء اختيارهم، ونتيجة أنَّ الله أضاف اليه، وهذا هو الإمداد في مجال الكفر للنعم الإلهيّة المعنوية:

﴿.. فلمّا زَاغوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[١٩]

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ إتَّخَذَ إلهه هواه وأضلّه اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ..﴾[٢٠].

فهؤلاء عبدوا ذواتهم بسوء إختيارهم فابتلاهم الله بما ورد في الآية الكريمة.

وهناك آيات كثيرة تؤكّد على أن من إختار الفسق والكفر والظلم والسبيل

(١٥) الكهف: ١٣.

(١٦) مريم: ٧٦.

(١٧) محمّد: ١٧.

(١٨) البَقَرَة: ١٠.

(١٩) الصَّف: ٥.

(٢٠) الجاثية: ٢٣.

المعوجّة فإنّ الله سبحانه يضلّه:

﴿يَضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلَّا الفَاسِقِينَ﴾[٢١]

فالقرآن يؤدّي إلى هداية البعض وإلى إضلال البعض الآخر، إلَّا أنّه من هم هؤلاء الذين يضلّهم القرآن؟ إنَّهم الفاسقون أي الذين اختاروا الفسق بسوء إرادتهم فالله يدفعهم في طريق الضلال حتّى بواسطة نزول هذا القرآن الكريم:

﴿وَيُضِلّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَل الله مَا يَشَاءُ ..﴾[٢٢].

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾[٢٣].

فكلّ من يسلك طريق الإسراف ويشكّك في المواضيع العقائدية ولا يبحث عن اليقين في هذا المضمار فإنّه يضلّ تدريجيّاً حتّى ينتهي ـ والعياذ بالله ـ إلى مرحلة القطع بخلافها:

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الكَافِرِينَ﴾[٢٤].

ان هذه جميعاً مصاديق لقوله: ﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾، ومصاديق لقوله ﴿كلّا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك﴾، فلانّهم كفروا فالله يعذبهم وعذابهم يكون بإضلالهم وبزيادة الزيغ والمرض في قلوبهم العمياء.ويقارن هذا الضلال وعمى القلب زيادة في نعمهم المادية حتى يرتكسوا في الذنوب أكثر ويهيئوا لأنفسهم وسائل أكثر للعذاب الأخرويّ.

ومن جملة سنن الله في مجال بعثة الأنبياء:

﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنسِ وَالجنّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالأخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم

(٢١) البَقرَة: ٢٦.

(٢٢) إبراهيم: ٢٧.

(٢٣) المؤمن: ٣٤.

(٢٤) المؤمن: ٧٤.

مُّقْتَرِفُونَ﴾[٢٥].

ظاهر الآية الكريمة يفيد أن هناك سنّة بالنسبة لجميع الأنبياء والأمم، ففي مقابل كل نبي يُبعث إلى الناس يوجد شياطين من الأنس والجنّ، ويتمّ هذا بحسب التقدير الإلٰهي، فكما أن الله سبحانه قد وفّر وسائل الهداية للناس فهو ترك سبيل الضلالة مفتوحة أمامهم لكي يُمتحنوا، هل يسلكون هذا الطريق أم ذاك؟ وذلك لأن السنّة الحاكمة والمسيطرة هي سنّة الامتحان، وهو الهدف من خلق الإنسان في هذا العالم:

﴿ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾.

ولازم الامتحان وجود طريقين أمامه ووجود دافعين في ذاته، ووجود داعيتين له، ومن الواضح أن داعية طريق الحق هم الأنبياء، ويبقى طريق الباطل محتاجاً إلى الدعاة، ودعاته هم شياطين الإنس والجن، فوجود هؤلاء لازم أيضاً للنظام الأحسن والأروع.

ماذا يفعل أعداء الأنبياء؟

﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾.

يتحدّث بعضهم إلى بعض بكلام جميل خدّاع. إذا كان المقصود من «يوحي» الإخبار السرّي والمخفي فلعلّ مصداقه التّام وساوس الجن التي تقتحم قلوب أهل المعاصي بغير التفات منهم. وإذا كان معناه عامّاً بحيث يشمل كل حديث مخفي فلعلّه يشمل شياطين الإنس أيضاً الذين يهمس بعضهم في أذن بعض ليخدعوا الناس، وقد ذكرنا أن مصداقه الواضح هي الوساوس الشيطانيّة، وذلك لأن الوحي أساساً يعني التحدّث الخفيّ، ولّما كانت وساوس الشيطان غير علنيّة ولا يلتفت الإنسان إلى أنّ الشيطان هو الذي يوسوس له، فقد أطلق عليه «الوحي».

وتلاحظون بهذا سعة معنى الوحي بحيث يشمل وساوس الشيطان أيضاً.

(٢٥) الأنعام: ١١٢ و ١١٣.

وأذكر ذلك لتطمئنّوا بخطأ موقف من حاول تفسير الوحي للأنبياء بمعنى طبيعي يشمل الوحي إلى النحل أيضاً، وعدّوا ألوان الوحي هذه جميعاً من باب واحد. أي أنهم حاولوا تأويل الوحي في النبوة لله تأويلاً علمياً كما يزعمون بأنه إدراك غير واع يحصل للشخص. والواقع إن هذا خطأ قطعاً لأنّ الوحي في اللغة يعني التحدّث الخفي من أيّ أحد صَدَر. وقد رأينا أن حديث الشيطان لهؤلاء يُسمى وحياً، ولا يكون هذا مبرراً لعدّ هذه الألوان جميعاً من باب واحد، فللحديث المخفيّ مصاديق مختلفة تختلف حقيقتها من السماء إلى الأرض. ولا ينبغي أن يورّطنا هذا التشابه اللفظي في البعد عن الحقيقة. ومن هنا تُستفاد ملاحظة مهمّة وهي أنه لا يصحّ الاكتفاء بمعرفة الجذور اللغوية لتفسير آيات القرآن الكريم، ولا بدّ من الالتفات إلى موارد الاستعمال واكتشاف خصوصيّة المورد.

وعلى كل حال فالشياطين يتحدّثون فيما بينهم بخفاء حديثاً جميل الظاهر، والهدف من ذلك هو التغرير بالناس وخداعهم. والله يوحي بهذا الموضوع إلى النبيّ الأكرم (ص) حتّى لا يستغرب وجود مثل هذا الأمر فهو سنّة من سنن الله، وليس ضدّ مشيئة الله التكوينيّة، فقد تعلقت مشيئته التكوينيّة بوجود هذه الأشياء:

﴿**ولو شاء ربك ما فعلوه**﴾، لكنه شاء ﴿**فذرهم وما يفترون**﴾.

ثمّ يشير سبحانه إلى امتحان الكفّار: ﴿**ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾، فالذين فَضّلوا بسوء اختيارهم عدم الإيمان بالآخرة وتعلقوا بالدنيا وعبدوا الهوى لابدّ أن يزدادوا ضلالاً وهذه الشياطين وسيلة لإضلالهم، فهذه الأحاديث الخدّاعة الجميلة الظاهر التي تجري بينهم يصغي إليها أولئك الكافرون وتسحر قلوبهم فيقومون بأعمالهم السيئة حتى يواجهوا مصيرهم الحالك.

ويشبه هذه الآية قوله عزّ وجلّ:

﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً**﴾[٢٦].

(٢٦) الفُرقان: ٣١.

فالله سبحانه كافٍ للهداية والنصر إلّا أنه لا بدّ من وجود عوامل أُخرى في مقابلهما لكي يبقى طريق الامتحان مفتوحاً.

ونظير هذا ما أشرنا إليه في البحوث الماضية:

﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبّي إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّته**﴾، فكل نبي أو رسول عندما يبعث فإنه يتمنّى نشر الدعوة الإلٓهيّة بين جميع الناس حتى يهتدوا إلى الحقّ ولكن الشيطان يخلّ بهذه الخطّة ولا يدعها تُنفّذ بكاملها ﴿**فيسنخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله اياته والله عليم حكيم**﴾، لماذا لابدّ أن يقوم الشيطان بهذا الفعل؟

﴿**لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ**﴾.

فالقساة ومرضى القلوب لا بدّ أن يُمَدّوا في طريق الانحراف الذي اختاروه، وإلقاءات الشيطان وسيلة للتقدم في هذا المضمار: ﴿**وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾. ومن جهة أُخرى: ﴿**وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ**﴾، ولا بدّ أن يُمتحن المؤمنون أيضاً حتّى لا تؤثّر فيهم إلقاءات الشيطان وليعلموا أن الحقّ هو ما أُنزل عليك: ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾، فالشيطان يحبّ أن يضلّ هؤلاء أيضاً إلّا أن الله يهدي أولياءه إلى سبيل الحقّ والاستقامة[٢٧].

كانت هذه مجموعة السنن الإلٓهيّة المستفادة من آيات القرآن الكريم والدائرة حول الناس. وتوجد آيات أُخرى تتعلق بموارد خاصّة لا يسعنا أن نتعرّض لها في هذا الكتاب. وسوف نقوم ـ بإذن الله ـ في الفصل اللاحق بدراسة تحليليّة لمجموع الآيات الواردة في مجال تصرّف الناس مع أنبيائها ومعاملة الله للناس، وهي دراسة اجتماعيّة تبيّن العوامل المؤثّرة في المجتمع من وجهة نظر علم الاجتماع الإسلامي.

(٢٧) الحجّ: ٥٢ ـ ٥٤.

استخلاص النتائج

قلنا إن الآيات الشريفة الواردة في مجال تصرّف الناس مع الأنبياء ومعاملة الله للناس يمكن أن تُستنبط منها أُمور مهمّة تبيّن وجهة نظر الإسلام لعلم الاجتماع. ومن الواضح إنه ليس من الميسور دراستها بصورة كاملة في هذه الفرصة القصيرة، لكنّنا نحاول إجمال النتائج المستخلصة من الآيات الكريمة لتصبح دافعاً لدراسات مستفيضة في هذا المجال. وهذه هي خلاصة النتائج بصورة مضغوطة:

الملاحظة الأُولى هي: من الملفت للنظر إن القرآن الكريم يستخدم أسلوبه الخاص بتبيين الظواهر والتحولات في عالم الوجود لتوضيح الظواهر والتحولات الاجتماعية، أي أنه يضفي عليها جميعاً الصبغة التوحيدية ويربطها بالله ويراعي هذا الواقع وهو أن الله هو المؤثر الحقيقي في الوجود فحسب. فإذا استعرضنا هذه الآيات بصورة إجماليّة فسوف نلاحظ إنها تنسب جميع هذه الظواهر والتحولات إلى الله سبحانه. وقد أشرنا في الحلقة الأُولى من هذا الكتاب «معرفة الله» إلى أن لهذا الأسلوب القرآني الخاص هدفاً تربويّاً فهو سبحانه يبيّن ظواهر الوجود والقوانين المسيطرة عليها ويسندها جميعاً إلى إرادة الله وإذنه وتقديره وقضائه وذلك لكي يمسك بأيدي الناس ويقودهم برفق إلى التوحيد الأفعالي. وكذا الحال بالنسبة لهذا الموضوع

الذي نحن فيه فعندما يتحدّث عن انقراض الأمم فهو يقول:

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾.

وعندما يتحدث عن إيجاد أُمم جديدة فهو يقول:

﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً ءَاخَرِينَ﴾[1].

وحتى تلك العوامل المرتبطة تماماً بطائفة معيّنة من المجتمع وهي المسؤولة عنها فانه لا يراها منبتّة الصلة بالإرادة الإلٓهيّة. وهذه هي مسألة الأمر بين الأمرين التي تؤكّد أن جميع الأفعال مستندة إلى فاعلها القريب وهو المسؤول عنها، إلّا أنّها في نفس الوقت مرتبطة بالله سبحانه، وتعدّ من الأفعال الإلهيّة في مرتبة أعلى وأشرف.

الملاحظة الثانية: في التحولّات الاجتماعية لا يعفي القرآن الكريم الناس من مسؤولياتهم ازاء الأعمال التي ارتكبوها، وهو يعترف بتأثير العوامل النفسيّة والاجتماعية ولكنه لا يراها مؤدّية إلى إجبار مرتكبيها حتّى تسقط عنهم المسؤوليّة، وإنما هم بعد تأثير هذه العوامل يرتكبون أعمالهم باختيارهم ولهذا فإنهم مسؤولون عنها، يقول تعالى:

﴿.. ولاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً * وَإِذا أردْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمـرْنَـا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً... مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الأخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَشْكُوراً * كُلّاً نُّمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[2].

إذن كل إنسان يحمل وزره ويتحمّل مسؤولية أعماله، والله لا يعذّب أحداً إلّا بعد إتمام الحجّة عليه بإرسال الأنبياء.

والآية المقصودة في هذا البحث هي ﴿وإذا أردنا ان نهلك قرية﴾، (إلّا إننا

(١) الأنعام: ٦.

(٢) الإسْرَاء: ١٥ ـ ٢٠.

ذكرنا بقية الآيات ليتّضح سياقها)، فماذا نفعل؟

﴿أمرنا مترفيها﴾، وبالالتفات إلى مضمون الآيات السابقة والمعايير العامّة التي سوف يبيّنها فيما بعد من أن إرادة الله لا تتعلق جزافاً بهلاك أُناس، فلا يريد الله صبّ العذاب على أُناس إلّا إذا كان قد أتمّ الحجّة عليهم، فمن هم الذين يعذبهم؟ لاشكّ إنهم الذين أرسل الله إليهم نبيّاً وأتمّ الحجّة عليهم، ثمّ امتنعوا عن قبول الحقّ عمداً وبسوء اختيارهم، فهؤلاء أُناس يستحقون العقوبة قطعاً، ولكنّ الأمر يجري بهذه الصورة:

﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميراً﴾.

وللمفسرين وجوه مختلفة في بيان معنى «امرنا مترفيها ففسقوا فيها»، حيث قال البعض إن المقصود منها هو إننا أمرنا مترفيها بمراعاة العدالة وتنفيذ أحكام الله لكنهم خالفوا ففسقوا فيها.

وذهب البعض الآخر إلى أن معنى امرنا هنا هو أمّرنا أيّ جعلناهم أمراء وقادة فاختاروا الفسق.

ويبدو لنا أن هذين الوجهين لا ينسجمان مع ظاهر الآية، والظاهر أن هذا الأمر أمر تكويني وليس تشريعياً، بمعنى إننا عندما نريد صبّ الهلاك على قوم فإن المترفين فيهم ينشغلون بالفسق والفجور في عالم التكوين، ولّما كان فعلهم متعلقاً بالله في مرتبة أعلى وأرفع، أي أن الله سبحانه هو الذي جعل هذا النظام وأوجد المترفين وبذلك استطاعوا أن يكرّسوا جهودهم للفسق والفجور. إذن قد تعلّق الأمر الإلهي التكويني بهذا، فالنـظام الأحسن يقتضي وجود الناس للإمتحان والاختبار، وبعضهم يفضّل بسوء اختياره طريق الإنحراف. إذن هذا الأمر ليس أمراً تشريعياً حتى يلزم القول بأن أمر الله لا بدّ أن يتعلق بفعل الخير وحينئذ نؤوّل الآية مثلاً بقولنا «أمرنا مترفيها ليعدلوا أو يطيعوا..» وإنما المقصود ـ كما نحتمل ـ هو الأمر التكويني، أي أن إرادة الله تعلّقت بأن يقوم المترفون بالفسق، وهي إرادة تكوينية وليست تشريعية.

وقد نبّهنا في بحث الإرادة على أن الإرادة تنقسم إلى قسمين، فكل ما يقع في العالم من طاعة وعصيان، من كفر وإيمان فهو متعلق الأمر التكويني والقضاء والتقدير الإلهي، ولا مانع من ذلك لأنه يتحقق عن طريق اختيار الأفراد أنفسهم ولا يؤدّي إلى إجبارهم عليه.

وعلى كل حال فسواء أكان الأمر تكوينياً أم تشريعياً (وإذا كان تشريعياً فلا بدّ أن يصبح متعلّقه محذوفاً) ﴿فحقّ عليها القول﴾ أي يتحقق بالنسبة إليها قول الله، وما هو قول الله في هذا المجال؟

هو أن مرتكب الفسق والفجور يكون مورد العذاب والنقمة الإلهيين:

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَاذُكِّروا بِهِ...أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٣].

وهنا يقول: ﴿فدمرناها تدميراً﴾.

وتلاحظون في هذه الآية إنه ينسب حتى هلاك هؤلاء وفسقهم الذي كان مقدّمة لهلاكهم إلى الإرادة والأمر الإلهيّين. أي أن مراعاة الملاحظة الأُولى واضحة هنا تماماً، بمعنى أنه لا يعّد هذا الأمر خارجاً عن نطاق الإرادة والأمر التكويني الإلهيّين، فهو نظام قد جعله الله وليس فيه ما يؤدّي إلى إجبار الأفراد.

ونظيرها قوله عزَّ وجلّ:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٤].

فهذا الجعل تكويني وهو مثل الجعل في قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً﴾[٥].

ولا يعني هذا أن فعلهم كان حسناً أو أنهم ليسوا مسؤولين عن أعمالهم، وإنما هو تأكيد على أن هذا الأمر ليس خارجاً عن الإرادة الإلهيّة، وهؤلاء لم يغلبوا الله سبحانه

(٣) الأنعام: ٤٤.

(٤) الأنعام: ١٢٣.

(٥) الفُرقان: ٣١.

بهذه الأفعال، فهو الذي شاء أن يكون الناس أحراراً ويفعلوا هذه بسوء اختيارهم. ومع ذلك نجد أنه لا يسقط عنهم المسؤولية ويمهّد لهذا ابتداءً بقوله ﴿ولا تزر وازرة وزر أُخرى﴾، فهذا العذاب المنصبّ عليهم هو نتيجة أعمالهم، ولم يتحمّل أحد ثقل الآخر وإنما استحقّ هؤلاء العذاب بسوء إرادتهم.

الملاحظة الثالثة: يستفاد من هذه الآيات أمر يخالف ما ذهب إليه بعض علماء الاجتماع، فمن وجهة نظر القرآن الكريم لا تعتبر طبقات المجتمع مغلقة ومسدودة. ففي بعض الأنظمة الاجتماعية السابقة كان يوجد مثل هذا الاتجاه حيث يقسّمون المجتمع إلى فئات أو طبقات مختلفة بحيث تكون كل فئة مغلقة على نفسها، أي لا يستطيع أحد أن يخرج من طبقته ولا يستطيع أن يلتحق بطبقة أُخرى.

وما هو المعيار في هذه الطبقيّة؟

قد يكون الدم أو لون البشرة أو أيّ شيء آخر. وعلى أيّ حال فإن الإسلام لا يقرّ هذا ولم يعترف به في أيّ مجال. إذن هذه الاختلافات الموجودة بين طبقات المجتمع لا يعتبرها القرآن أمراً ثابتاً غير قابل للتغيير.

ومن الواضح أن أصل الاختلافات موجود، وهو مقصود في النظام الأحسن ولا بدّ من الاعتراف بوجوده، فهناك اختلافات قوميّة والقرآن يعترف بوجودها لكنّه لا يعدّها معياراً للتقييم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وَانثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٦].

فنتيجة للعوامل الطبيعية توجد بعض الاختلافات بين الناس وينقسمون إلى طوائف متمايزة، إلاّ أن هذا ليس مقياساً للقيمة. فهذه الاختلافات لا بدّ من وجودها، والحكمة الإلٰهيّة تقتضيها أيضاً.

وقال البعض الآخر من علماء الاجتماع بتقسيم المجتمع إلى طبقات على

(٦) الحجرات: ١٣.

أساس الاقتصاد، ولا سيّما المدرسة الماركسيّة التي تقسّم المجتمع حسب معيار اقتصادي، فكل مجتمع بما فيه من نظام خاص ينقسم إلى طبقتين إحداهما الطبقة الحاكمة والأخرى هي الطبقة المحكومة المحرومة، والمعيار في كون هذا حاكماً وذاك محكوماً هي الأمور الاقتصادية.

ومثل هذا التقسيم مرفوض أيضاً من وجهة نظر الإسلام، وقد يتوهّم البعض من مجموعة من تعبيرات القرآن الكريم إنها توحي بمثل هذا التقسيم، كما تورّطت في ذلك فئات مرقّعة تفسّر الآيات القرآنية برؤية ماركسية للمجتمع والتاريخ، مدّعين أن القرآن يعترف بوجود طبقتين في المجتمع: المستكبرة والمستضعفة، الثريّة والفقيرة، والعامل الاقتصادي هو المحرك للتاريخ وهو المحوّل والمغيّر للمجتمع، ويعتبر البنية التحتيّة لسائر المسائل الاجتماعية.

إلّا أنّه بالتعمّق في الآيات الكريمة التي تناولناها بالبحث يتّضح أن هذا الفهم لا ينسجم مع مفاد الآيات الشريفة، فقد لاحظنا أن القرآن الكريم يبيّن المستضعفين بعدّة صور، فهو تارة يذكرهم بعنوان انهم مورد حمايته ويحرّض المؤمنين على النهوض لحمايتهم:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾[٧].

فهؤلاء مستضعفون مؤمنون بالله ويحبّون الإنفصال عن مجتمعهم الظالم والالتحاق بالمجتمع المسلم، أو أنهم يحبّون تشكيل مجتمع مستقل لكنّهم لا يملكون القدرة على ذلك مثل مستضعفي مكّة قبل الهجرة حيث كانوا تحت سيطرة الكفّار ولا يستطيعون الهجرة، فهم يدعون الله لينقذهم واستجاب الله دعاءهم بأن كلّف المؤمنين بالقتال لإنقاذهم. إنهم مستضعفون إلّا أن هذا الإستضعاف لم يؤدّ إلى ذوبانهم في المجتمع بحيث يقبلون عقائده وأفكاره وسلوكه، لقد استقلّوا فكرياً وآمنوا بالله ولم

(٧) النِّسَاء: ٧٥.

يقعوا تحت تأثير الجوّ الاجتماعي وبذلوا كل جهدهم للقيام بواجباتهم، غاية الأمر إنهم لا يستطيعون أكثر من ذلك فهم أُناس يستحقون الرعاية والحماية.

ومن ناحية أُخرى نلاحظ القرآن الكريم يهاجم فئة أُخرى من المستضعفين ويحمّلها المسؤوليّة لأنها لم تبذل كل ما في وسعها:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[٨].

فهناك إذن مستضعف مسؤول ومعاقب على عدم القيام بما تقتضيه مسؤوليته.

وأوضح من هذه تلك الآيات التي تتحدث عن حوار بين المستضعفين والمستكبرين وهم جميعاً في جهنّم. وبهذا نعرف أن عنوان الإستضعاف ليس مفهوماً قيميّاً يؤيّده القرآن بحيث تصبح طبقة المستضعفين طبقة حسنة وتقدميّة يدلّلها الإسلام ويعفيها من المسؤولية.

ونستنتج من هذا أن الآيات التي تعد المستضعفين بالوصول إلى منزلة الإمامة وقيادة المجتمع ليس من جهة أنهم مستضعفون فحسب، وأنما هي من جهة أنهم مؤمنون أيضاً:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٩].

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[١٠].

فليس معنى هذا أنهم نالوا هذه المنزلة بما هم مستضعفون، وإنما الملاك في رقيّهم بحيث أصبحوا أهلًا لتعلق إرادة الله بجعلهم قادة للناس هو أنهم مؤمنون. وبعبارة

(٨) النِّساء: ٩٧.

(٩) القَصَص: ٥.

(١٠) الأعْرَاف: ١٣٧.

أخرى فـ ﴿الذين استضعفوا﴾ عنوان مشير وليس هو ملاك الحكم، ومعياره هو إيمانهم، وشاهد هذا أن الله يرسل إلى جهنم كثيراً من المستضعفين ويجعلهم في جوار المستكبرين، ولو كان عنوان الاستضعاف مطلوباً لذاته وهو ملاك للفضيلة في الدنيا فلماذا يلقى بهؤلاء في جهنم؟

فالاستضعاف ليس مفهوماً قيمياً ولا كمالاً مطلوباً، فإن كان المستضعفون مؤمنين أيضاً ومنفّذين لأوامر الله ونواهيه وباذلين كل طاقتهم في هذا السبيل فإن الله يمنّ عليهم من جهة أنهم مؤمنون منفقون ما في وسعهم.

ونواجه عندئذ هذا السؤال: لماذا قال تعالى: ﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا...﴾ ولم يقل «على الذين ءامنوا»؟

فالقاعدة تقتضي أن يكون العنوان المأخوذ في القضية علّة لثبوت المحمول، فالحكم هنا ﴿ونريد أن نمنّ﴾ محمول على عنوان «استضعفوا» فهذا العنوان إذن مشعر بالعلّيّة.

والجواب هو أن لاختيار هذا العنوان هنا سرّاً يُفهم من خلال الآية السابقة عليها:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ...﴾[١١].

ففرعون عدّ هذه الطائفة ضعيفة أو جرّها إلى الضعف. والله سبحانه يريد أن يؤكّد على أن تلك الطائفة التي عُدّت ضعيفة وكانت هي ضعيفة في الواقع أيضاً نحن نوصلها إلى الدرجات العالية ونمطرها بنِعَمِنَا ونجلسها على كرسيّ القيادة. بمعنى أن الإرادة الإلهية ليست تابعة للظروف الاقتصاديّة، والله يهاجم تلك القيم الكاذبة السائدة في المجتمع لطردها من أنفسهم. لاحظوا هؤلاء الذين قالوا عنهم أنهم ضعفاء لا يستطيعون فعل شيء، نحن نوصلهم إلى ذروة السيادة والعزّة، فهو تعالى يريد أن

(١١) القَصَصْ: ٤.

يبيّن القدرة الإلهيّة والعظمة الإلهيّة وعدم عجزه في مقابل الأسباب الطبيعيّة والاجتماعيّة، ويريد أن يحطّم القيم الموهومة المسيطرة على المجتمع. إن معيار السيادة ليست هي الثروة. وهذا هو سرّ ذكر الاستضعاف في هذه الآية والآية المشابهة لها: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾[١٢].

فهو يريد أن يؤكّد على أن الله لا يمنعه ضعف أُناس من أن يرفعهم ويمنحهم السيادة والسؤدد.

وعلى كل حال فتقسيم المجتمع إلى طبقات على أساس أقتصادي ـ فتكون طبقة مستضعفة وأُخرى مستكبرة ولكل منهما خصائص خلقية واجتماعية معيّنة ـ لا يقرّه القرآن الكريم ولا يعترف بصحّته.

كما ان اعتبار الثروة والفقر مساويين للإيمان والكفر، والحق والباطل أمر يقبله القرآن ولا يشهد بقيمته. بمعنى ان القرآن لا ينظر إلى كل ثريّ على أساس انه ذو قيمة ولا يهاجم كل فقير على أساس انه خالٍ من أيّ قيمة ولا يفعل بالعكس أيضاً، وانما قد يكون الشخص ثريّاً ومورد احترام القرآن أيضاً بحيث يقيم له وزناً، وإذا تحدّثنا بلغة الماديين قلنا: قد يكون الشخص مرتبطاً بالطبقة الحاكمة وهو مع ذلك مورد تأييد القرآن وحمايته. وكذا العكس فليس كل فقير يرعاه القرآن ويحميه،فقد رأينا في الآيات كيف يجاور بعض المستضعفين في جهنم المستكبرين. وكذا من الناحية الأُخرى فليس كل ثريّ فهو مطرود من وجهة نظر القرآن ولا كل من ينتمي إلى الطبقة الحاكمة فهو مغضوب عليه. فالقرآن يذكر أُناساً كانوا حكاماً ويتمتعون بأقصى درجات الثروة والرفاه المادي ومع ذلك كانوا يتميزون أيضاً بأرفع القيم الإلهية، فهو يتحدّث عن أنبياء جمعوا المقامات المعنوية والفضائل الإنسانية والقيادة الاجتماعيّة وكانت لهم ثروة وسلطة مثل سليمان ويوسف(ع). ولعلّه يستفاد من بعض الآيات ان بعض الأنبياء من أُولي العزم قد نشأ في أحضان الطبقة الحاكمة، فقد ولد

(١٢) الأعْرَاف: ١٣٧.

إبراهيم(ع) وسط عائلة مرتبطة بالبلاط، وقد رُبّي موسى(ع) إلى مرحلة الشباب في بلاط فرعون. إذن مجرد انتماء شخص إلى طبقة من حيث الدم أو من ناحية التربية والتمتّع بالنعم الماديّة لا يصبح مانعاً من اكتساب ذلك الفرد الفضيلة وصيرورته مقبولاً من وجهة نظر القرآن الكريم. ويذكر القرآن أفراداً كانوا متميّزين بأرفع القيم الاجتماعية بمعايير القرآن وهم مع ذلك كانوا جزءً من الطبقة الحاكمة، فأصحاب الكهف كانوا من الطبقة الحاكمة في ذلك الزمان ولكنهم فرّوا من البلاط فمنّ الله عليهم وزيّنهم بما يفتخرون به على مرّ التاريخ. وكذا «مؤمن آل فرعون» فقد كان من ذوي المناصب الرفيعة في الجهاز الفرعوني الحاكم ولكنه كان صادق الإيمان، ومن هنا سُمّيت باسمه سورة من القرآن الكريم وهي «سورة المؤمن».

وبناءً على هذا فالثروة ليست مستقبحة من وجهة نظر القرآن الكريم، ولا الفقر حسن ومطلوب، وإنما المعيار للحب والبغض هو الإيمان والكفر، الحقّ والباطل، والطاعة والعصيان. فالمؤمن سواء أكان فقيراً أم غنيّاً فهو ذو قيمة عند الله:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللهِ أَتقَاكُمْ﴾[١٣].

والكافر سواء أكان غنيّاً أم فقيراً فهو مطرود عند الله:

﴿فَإِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ﴾[١٤].

الملاحظة الرابعة: إن النعم التي يمنحها الله لفرد أو مجتمع أو طبقة في مجتمع ليست دليلًا على تكريم المُعطى له عند الله وليست دليلًا أيضاً على تحقيره وطرده من ساحة الله. فالنعم المادية تدخل تحت سنن مختلفة، فتارة تكون وسيلة للإمتحان للمؤمن أو للكافر:

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[١٥].

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ٱبتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكرَمَنِ * وَأَمَّا

(١٣) الحجرات: ١٣.
(١٤) آل عمران: ٣٢.
(١٥) الأنبياء: ٣٥.

إذا مَا ابتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أهانَنِ * كَلَّا...﴾[١٦].

فالناس يتخيلون أن من يمنحه الله النعم المادية فهو عزيز عند الله، وإن من يسلب منه نعمه فيكون ذيلاً في المجتمع فهو عند الله ذليل، إلّا ان الحقيقة ليست بهذه الصورة، إن النعم المادية ليست ملاكاً للقرب من الله، ووجود النعمة لامتحان أصحاب النعمة، والفقر أيضاً وسيلة لامتحان الآخرين. فسليمان(ع) عندما منحه الله تلك العظمة:

﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَاشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[١٧].

فالنعم الدنيوية وسائل للامتحان، وجودها لون من الابتلاء، وسلبها لون آخر منه.

ومن ناحية أخرى فقد لاحظنا في الآيات التي مرت علينا في الفصل الماضي إن الفقر والجفاف والضيق المادي قد يكون نعمة للناس من الله ليلفت انتباههم إلى الله فيهيّء الأرضيّة لقبول دعوة الأنبياء:

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[١٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[١٩].

كما أن منح النعمة للناس أحياناً يغدو نقمة، فهي في ظاهرها نعمة ولكنها في الباطن علامة على الغضب الإلهي.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[٢٠].

(١٦) الفَجر: ١٥ ـ ١٧.
(١٧) النّمل: ٤٠.
(١٨) الأنعام: ٤٢.
(١٩) الأعرَاف: ٩٤.
(٢٠) آل عِمْرَان: ١٧٨.

فالله سبحانه قد كفّ عنايته عنهم فبدأوا مسيرة الإنحطاط والسقوط ولهذا فهو يوفّر لهم وسائل لسقوط أكثر ويغدق عليهم بالمال والثروة حتّى يتزوّدوا بالذنوب ويكثروا منها.

وهناك سنّة أُخرى وهي إذا آمن المجتمع بالله واتقاه فإن الحكمة الإلهيّة تقتضي فتح أبواب الرفاه الماديّ له حتى يتمكّن من استغلال الوسائل المادية لتحقيق تكامل معنويّ أعظم:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَى ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢١].

ويقول سبحانه بالنسبة لأهل الكتاب:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم...﴾[٢٢].

أجل إذا اصطبغ المجتمع بصبغة الله واتّجه نحو الخالق فإن زيادة النعم المادية فيه تصبح علامة على التكريم الإلهي، إلاّ أن القضيّة ليست عامّة. فليس كلّما وجدت النعمة المادية في مكان كانت علامة على التكريم الإلهي، ولا كلّما وجد الفقر في مكان فإنه علامة على الذل عند الله، وليس هو تكريماً أيضاً.

الملاحظة الخامسة: يستفاد من هذه الآيات إن الأفراد والفئات والمجتمعات عوامل تؤدّي إلى رجحان كفّة على الكفّة الأُخرى. وتغلب على هذا البحث الصفة النفسية. ففي كثير من الآيات إن الإنسان إذا ازدادت نعمه الماديّة وتعلّق قلبه بها فانه سرعان ما يركبه الغرور:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا...﴾[٢٣].

فقدغرقت في النعمة والسرور حتى أصبحت حياتها كلها بطراً فاستحقّت

(٢١) الأعْرَاف: ٩٦.

(٢٢) المائدة: ٦٦.

(٢٣) القَصَصْ: ٥٨.

الهلاك:

﴿إِنَّ ٱلإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَءَاهُ ٱسْتَغْنَى﴾[٢٤].

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾[٢٥].

فهذه وغيرها شواهد على أن الإنسان بطبعه يبتلى بالغفلة عندما تزداد نعمه المادّية، وتؤدّي هذه الغفلة تدريجياً إلى الإنحراف عن الحقّ، بل وحتى تنتهي إلى العناد معه وإلى الوقوف في وجه الأنبياء. وليس معنى هذا أنهم مجبرون فلو كانوا مجبرين لما أصبحوا مسؤولين ومعاقبين. فالقرآن يعترف بتأثير هذه الحالات في النفس الإنسانيّة بحيث تجرها نحو الانحراف، وهو مع ذلك يعتبرهم مسؤولين عن أعمالهم ويعاقبهم.

وهذا يعني إن هذه العوامل ليست أصيلة ولا أساسية. والعامل الأساسي هو إرادة الإنسان واختياره، وتعتبر سائر الأمور عوامل مساعدة. وهذا هو معنى الاختبار والامتحان. فلكي يُمتحن البطل لا بدّ من تعريضه للضغط حتّى يعرفوا مدى مقاومته. فيُدفع إلى جهة خلاف رغبته ليروا هل يستطيع أن يسيطر على نفسه ويصمد أم لا. القرآن إذن يسلّم بأن النعم المادّية تؤدّي إلى الغفلة والإنحراف ولكنّها ليست عاملاً أصيلاً وإنّما هي عمل مساعد.

وللذكر هذا نفسه أثر تربويّ، فالذين منّ الله عليهم بالنعم المادّية لا بدّ أن يراقبوا أنفسهم وينتبهوا جيّداً فالنعم المادّية تقتضي مثل هذا الأمر وتوجب الإنحراف (حسب اصطلاح العرف وليس بمعنى العليّة الحقيقيّة):

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٢٦].

ويشير القرآن الكريم إلى عامل نفسي آخر، وهو بدوره مهمّ ومؤثّر لكنه لا يرفع المسؤولية عن الإنسان لأنه لا ينتهي إلى الإجبار وهو أنه توجد في المجتمع

(٢٤) العَلق: ٦ و٧.
(٢٥) الإسْرَاء: ١٦.
(٢٥) الإسْرَاء: ١٦.
(٢٦) المنَافِقون: ٩.

ـ شئنا أم أبينا ـ فئات مختلفة، وهي تتفاضل فيما بينها على أساس قيم صحيحة أو خاطئة. وغالباً ما تكون القيم الماديّة هي المسيطرة فكل من كانت ثروته أكثر (بغضّ النظر عن أنه اكتسبها عن طريق الحلال أو عن طريق الحرام) كان تمتّعه الماديّ أعظم ونال حظّاً أكبر في مجال القوى البدنيّة والذهنيّة. ولّما كانت هذه الاختلافات موجودة بين النـاس ـ بمعنى انهم ليسوا متساوين جميعاً من ناحية القوى البدنية والقوى الفكريّة والقدرة على الإبتكار والإدارة وغيرها ـ إذن لا بدّ أن توجد امتيازات لبعض الأفراد في المجتمع، وهذا أمر ملحوظ في نظام العالم، ولا يوافق القرآن على صيرورة المجتمـع متسـاوياً من جميع الجهـات، ونجـد بعض الآيات تصـرّح بكـون هذه الاختلافات ملحوظة في أصل الخلق:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكِ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِياً﴾[٢٧].

فقـد يكـون للبعض امتيازات جسميّة، ولآخرين امتيازات فكريّة، ولجماعة امتيازات عاطفيّة و...، وقد يعيش بعض الأشخاص بلا امتيازات.

وعلى أيّ حال فالاستعدادات متفاوتة، ولا بدّ أن تتفاوت بحسب نظام الخلقة وهذا تقدير إلهي وليس الله مديناً لأحد. فكما انه لا يحقّ لأحد أن يعترض ويقول لماذا خلق البعض إنساناً والآخر حيواناً آخر، فإنّه لا يحقّ لأحد أن يعترض قائلًا: لماذا أصبح بعض الناس رجالاً وبعضهم نساءً؟ لماذا كان لأحدهم ذكاء أعظم وللآخر ذكاء أقل؟ إن نظام العلم يستلزم وجود هذه الاختلافات، ولا يملك أحد حقّاً على الله. وبعد ان يمنح الله هذه الإستعدادات على اختلافها للأفراد فإنه يكلّف كل واحد منهم حسب استعداده وقدرته. ثمّ في مقابل العمل بالتكليف يجعل الله له حقّاً على نفسه فكل شخص يملك استعدادًا معيناً ثمّ يستخدم استعداده في طاعة الله فإن الله يثيبه ويجعل له حقّاً في حدود قدرته، وأمّا إذا استغلّ استعداده في طريق الباطل فإن الله

(٢٧) الزّخرُف: ٣٢.

يعاقبه. وهذا هو مجال الحقّ، وإلاّ فإنّه في أصل الخلقة لا يملك أحد حقّاً على الله. فقبل أن يُخلق لم يكن شيئاً حتّى يكون له حقّ في شيء، وبعد أن يُخلق فهو يكون كما خلقه الله. وهذا مثل من يقول: إنني ما أردت أن أُخلق فلماذا خلقني الله؟ إن هذا السؤال لا معنى له، لأنّك من أنت حتى تشاء أو لا تشاء، عندما لم تكن موجوداً ما كنت تستطيع أن تشاء أو لا تشاء؟ وعندما خُلقت فقد أصبحت كما خلقك الله، فأنت ملكه وكيفما أراد خلقك وكما تقتضي حكمته جعلك. وبعد هذه المراحل جميعاً يأتي التكليف وحينئذ يُطرح الحقّ:

﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢٨).

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾(٢٩).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِأَيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾(٣٠).

فالحق يأتي بعد الخلق.

وعلى كل حال فهذه الاختلافات ملحوظة في أصل الخلقة ولا بدّ منها:

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾(٣١).

وحتى انه ينهى الإنسان عن أن يتمنّى الأشياء التي أعطاها الله للآخرين:

﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾(٣٢).

فوجوه الامتياز الطبيعية والتكوينية التي منحها الله للبعض لا ينبغي لكم أن تتمنّوها، فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون للبعض امتيازات تكوينيّة. وكل من يرفض هذا فهو في الواقع يعترض على الله. لماذا خلق الله هذا رجلاً وتلك امرأة؟

(٢٨) الرُّوم: ٤٧.

(٢٩) البَقَرَة: ٢٥.

(٣٠) البَقَرَة: ٣٩.

(٣١) الأنعام: ١٦٥.

(٣٢) النِّساء: ٣٢.

فالرجل قد يعترض قائلاً لماذا لم أكن امرأة، وبالعكس ؟ إنه اعتراض على الأفعال والحكمة الإلهيّة، وجذور هذا لون من الكفر. وكذا بالنسبة للاختلافات الفرديّة فهناك فرد ذكي والآخر أقّل ذكاء منه، فإذا اعترض الأقل ذكاءً قائلًا: لماذا لم يجعلني الله مثل ذاك الذكي فإن منشأ هذا الاعتراض يكمن فيه لون من الكفر، فهو اعتراض على فعل الله، ومعناه أنني أفهم أفضل من الله تعالى.

فهذه الاختلافات موجودة ولها آثار ـ بطبيعة الحال ـ في الحياة الاجتماعية، فمن يتمتع بذكاء أكبر يبتكر أكثر، ومن يتميّز بقوة بدنيّة أعظم فإنه يتمتع بالمنافع الماديّة أكثر، هذا إذا لم يفضّل الكسل والخمول. فهذه الاختلافات تكوينيّة ولا مفرّ منها.

ثمّ يجري الكلام في هذه الاختلافات بعد وجودها: أتكون منشأ للتكريم عند الله أم لا؟ كلّا، فالكرامة تتحقّق للإنسان بعد انتخابه الطريق بفعله الاختياريّ، فهو تعالى يقول:

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

ولم يقل «أعقلكم» ولا «أعلمكم»، فقد يكون الشخص عالماً عظيمًا لكنّ مكانه في جهنم كالشيطان. إن هذه الأمور ليست ملاكاً، والملاك هو نتائج أعمالك الاختيارية، والتقوى هي الموجبة للكرامة.

فمجرّد التمتّع بالنعم الماديّة لا يعدّ فضيلة ولا كرامة. وفي نفس الوقت يعترف القرآن الكريم بأن أشخاصاً إذا تميزوا في المجتمع فانهم يستطيعون التأثير في الآخرين بصورة أفضل. والآخرون يتقبلون منهم بسرعة، ويتمّ هذا نتيجةً للضعف النفسي. فالناس الذين لم يظفروا بتربية راقية تقوّي في أنفسهم حالة التقليد للكبار حسب معاييرهم، فهم كالأطفال ينظرون إلى الكبار ماذا يفعلون وللأثرياء كيف يتصرّفون فيفعلون نفس ذلك الفعل ويقلّدون ذلك التصرّف. فهذا العامل النفسي يقتضي تأثير الطبقة الراقية في الطبقات الاُخرى، إلاّ أنّه لا يؤدّي إلى الإجبار اطلاقاً، ولهذا فإنه

في يوم القيامة يقول البعض:

﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلاَ * رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[٣٣].

ولكن الله سبحانه لا يعفيهم من المسؤولية عن أعمالهم لأن هؤلاء لم يجبروهم عليها.

فكما أن الثروة تؤدّي إلى غرور الإنسان وطغيانه فإنها قد تؤدّي بالآخرين إلى تقليد أصحاب الثروة والسير وراءهم.

فالقرآن يعترف بتأثير هذه العوامل النفسيّة ويحاول جاهداً أن يقاومها ويوقظ روح الإنسان لكي تتغلّب عليها.

وهذا هو الموضوع المهم في المقام.فالإسلام يعوّل على إرادة الإنسان واختياره ويضفي عليها الأصالة بحيث لا يقبل أيّ عامل في مقابلها بعنوان كونه عذراً.

والشاهد على كون هذه العوامل ليس لها تأثير قطعيّ هو أن بعض المستضعفين الذين يحتلّون الدرجات الدنيا في المجتمع قد آمنوا بالأنبياء فأنقذهم الله من العذاب، بينما سائر المستضعفين والمستكبرين يناهم العذاب الإلهي الأليم. فالضعف والفقر لا يجبر أصحابه على قبول التيار الاجتماعي السائد، فقوم نوح مثلاً يواجهونه بهذا الموقف:

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[٣٤].

﴿وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلاَّ ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾[٣٥].

ويعرف من هذا إن من كان يطلق عليهم اسم الأراذل بمقياس القيم الخاطئة لذلك الزمان قد آمنوا بنبيّ الله فأنقذوا أنفسهم من عذابه.

فالطبقة السفلى من المجتمع لم تنهزم أمام الجو الاجتماعي السائد ولم تُسلب

(٣٣) الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨.

(٣٤) الشُّعَرَاء: ١١١.

(٣٥) هُود: ٢٧.

منها قدرة الصمود والمقاومة، ولو سُلبت منها لما كانت عليها مسؤوليّة فلم يحدث هذا الأمر ولم ترتفع عنهم المسؤولية.

فللإنسان استقلال وإرادة بحيث يستطيع أن يصمد في مقابل جميع هذه العوامل النفسية والاجتماعية.

كان هذا الموضوع متعلقاً بعلم الاجتماع، وهناك بحث يتعلق بلفسفة التاريخ وهو:

هل أن التحولات التاريخيّة كانت تسير دائمًا بشكل تكاملي، وهل المجتمع يتقدم دائمًا أم لا؟

يظهر من التأمل في هذه الآيات أن هذا الشيء ليس ثابتاً أيضاً، فقد تكون لمجتمع نعم ماديّة وافرة ثمّ يخلفه مجتمع يعدّ فقيراً بالنسبة إلى الأوّل:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرضَ وَعَمَرُوها أكثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾(٣٦).

فقد يحقق المجتمع السابق تقدّماً في مجال العلم والصناعة والمدنيّة (حسب القيم السائدة) ثمّ ينقرض ليحلّ محله مجتمع فقير في تلك العلوم والصناعات التي كان يتمتّع بها الأقدمون. فقوم نوح عندما أُغرقوا لم تبق مدنيّتهم وصناعتهم للأجيال اللاحقة وإنما تخلّف منهم أفراد معدودون. فليس من الضروري إذن أن تكون المدنية دائمًا في حالة تكامل ورقيّ.

وأمّا من ناحية القيم المعنوية فالأمر واضح جدّاً، فقد يكون أحد المجتمعات مؤمناً بحسن اختياره ثم يخلفه مجتمع كافر بسوء اختياره. وليس هناك دليل على أن المجتمع اللاحق يجب أن يكون أفضل من سابقه في البُعد الماديّ أو الفكري أو الصناعي، فلا يوجد دليل قطعيّ على أن مسيرة التاريخ تكاملية دائمًا.

نعم يتنبأ الإسلام بأن آخر مجتمع يوجد على وجه الأرض يتميّز بكونه أرقى

(٣٦) الرُّوم: ٩.

المجتمعات من الناحية الماديّة والصناعية والقيم المعنوية. ولكن هذا لا يتمّ على أساس جبر التاريخ، وإنما يتنبأ الإسلام بأن الناس سوف يصلون إلى هذا المستوى من القيم الرفيعة باختيارهم فينعم الله عليهم.

إذن هذه القوانين المطروحة في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ بعنوان كونها قوانين جبريّة لا يقرّها الإسلام ولا يعترف بصحتها.

ن

ختام النبوّة والرسالة

من الأسئلة التي تواجهنا في هذا المضمار هذا السؤال:

هل أن مجموعة الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين مستمرة إلى يوم القيامة أم هناك زمان معيّن تنتهي فيه؟

ان الجواب على هذا السؤال واضح جدّاً من وجهة نظر الإسلام وليس فيه أيّ شك، بمعنى إنه من ضروريات الإسلام كون النبوّة قد اختتمت ببعثة النبي الأكرم (ص) وسوف لن يُبعث نبيّ على الإطلاق. ويعدّ هذا الضروري من الواضحات جدّاً بحيث يعرفه المنتمون إلى سائر الأديان والمذاهب، فهؤلاء يعلمون إنّ الإسلام يدعي هذه الدعوى، شأنه شأن سائر ضروريات الدين، فكل من يعرف عن الإسلام شيئاً فإنه يعلم بوجود الصلاة في الإسلام والإعتقاد بوجود الله ويعلم أيضاً ان الإسلام يعلن كونه خاتمة الأديان.

وبناءً على هذا يغدو الموضوع مستغنياً عن الاستدلال من وجهة النظر هذه. إلّا أنّ دراستنا قرآنية فلا بدّ من النظر إلى الآيات الشريفة: هل يستفاد منها هذا الأمر أم لا؟

وقد أثبتنا فيما سبق عالميّة الدعوة الإسلاميّة، وذكرنا آيات من القرآن تدلّ على

ذلك، وهي تنفعنا هنا لإثبات هذا الموضوع، ومن جملتها:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[١].

ويمكننا أن نستظهر من هذه الآية أن مفهوم العالمين لا يختصّ بزمان معيّن، فما دام هذا العالم الدنيويّ موجوداً فكل أُمّة تظهر فهي جزء من العالمين، ونبي الإسلام (ص) نذير لها فلا حاجة إلى نبي آخر:

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ...﴾[٢].

فاطلاق «من بلغ» يشمل جميع الناس الذين سوف يوجدون في المستقبل كما يشمل الناس الذين كانوا في زمان النبيّ الأكرم (ص)، فهذا إطلاق زماني:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[٣].

فقد ذكر المفسرون إن «كافّة» حال لـ «الناس»، وهي بمعنى عامّة، فالآية تفيد ان النبيّ (ص) مرسل إلى عامّة الناس سواء أكانوا يعيشون في زمانه (ص)أم الذين سيوجدون فيما بعد، فهو لهم بشير ونذير بمعنى أنه نبيهم. وبطبيعة الحال لا يبقى مجال حينئذ لنبوّة أُخرى في المستقبل.

وأوضح من هذه جميعاً تصريح القرآن الكريم بأن نبي الإسلام (ص) خاتم النبيّين:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ ٱللهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾[٤].

وقد وردت هذه الآية لبيان أمر آخر إلّا أنها تبيّن هذا الموضوع أيضاً، فهي تعقب قصّة تبنّي النبي (ص) لزيد، ولكي تُنسخ هذه السنّة أمر الله نبيه بالزواج من زوجة زيد المطلّقة، ثم يؤكّد سبحانه بعد ذلك على أن أيّ واحد من رجالكم الموجودين في هذا الزمان ليس إبناً حقيقيّاً للرسول الكريم (ص) وحتّى زيد المُتبنى ليس ولداً

(١) الفُرقان: ١.

(٢) الأنعام: ١٩.

(٣) سَبأ: ٢٨.

(٤) الأحزاب: ٤٠.

حقيقيّاً له، ومن هنا فإن هذا التبني لا يوجب حرمة الزواج من زوجة زيد بعد طلاقها. فصدر الآية: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم**﴾، أي لم يكن في الواقع والداً حقيقيّاً لأحد من ذكوركم، ﴿**ولكن رسول الله وخاتم النبيّين**﴾، وجميع أصحاب اللغة فهموا من هذه وسجّلوا في كتبهم أن معناها اختتام النبوّة بواسطة النبي الأكرم (ص). ثمّ ما معنى خاتم؟ أهو بكسر التاء أم بفتحها، وإذا كان بفتحها فكيف يدلّ على المطلوب؟

إن القراءة المشهورة هي خاتَم فبفتح التاء، وهو يعني ذلك الشيء الذي تُزيّن به الأصابع، وقد سُمّي بذلك لأن الرسائل كانت تُختتم به أو كان يُطبع الختم على الشمع حتّى لا يتمّ التلاعب بما فيه، فهو خاتَم لأنه يُختتم به ويكون خاتمة للشيء، فخاتَم النبيين هو من تُختتم به النبوّة، وقد فهم منه هذا المعنى جميع أهل اللغة ولم يتردّد فيه أحد.

وأمّا من ناحية الروايات فهناك روايات إلى ما شاء الله تثبت هذا الموضوع[٥].

وقد روي عن النبي (ص) تعبير رائع في هذاالمجال وهو قوله:

(إن مثلي ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلّا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلّا وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)[٦].

إلّا أن هناك شبهات تدور حول هذا الموضوع يطرحها أعداء الإسلام، وبعضها واهٍ هزيل إلى الحدّ الذي يعتبر فيه ذكرها إتلافاً للوقت الثمين. ولكن بعضها الآخر يبدو أن ظاهره محفوظ ولعلّه يكون خدّاعاً، ومن هنا فنحن نتعرّض له:

الشبهة الأولى: إن الخاتم يعني مما يُلبس في الأصابع وهو للزينة فخاتم النبيين

(٥) وقد ذكر منها العالم الجليل الشيخ جعفر السّبحاني روايات كثيرة في كتابه «معالم النبوّة»، وبحث موضوع اختتام النبوّة بالرسول الأكرم (ص) بشكل مفصّل فليرجع إليه من شاء التوسّع.

(٦) صحيح البخاري ٤: ٢٢٦. مسند أحمد ٢: ٣٩٨، ٤١٢. الدّر المنثور ٥: ٢٠٤. التّاج ٣: ٢٢، عن البخاري ومسلم والترمذي.

يعني زينة النبيين ولا يدلّ على اختتام النبوّة به.

الجواب: إن الخاتم بمعنى الزينة ليس استعمالاً شائعاً في اللغة العربية، وعندما يريدون التشبيه في مجال الزينة فإنهم يستعملون التاج مثلاً، ولا يصحّ حمل تعبير على معنى غير شائع، ولم يحتمل هذا المعنى أيّ شخص من أهل اللغة.

الشبهة الثانية: إن الآية تقول «خاتم النبيين» ولم تقل «خاتم الرسل»، والنبي والرسول مختلفان، فحتى إذا لم يُبعث نبي بعد محمَّد (ص) إلاّ أن من الممكن أن يُبعث رسول بعده.

الجواب: لقد بحثنا فيما سبق هذين المفهومين وقلنا: النبي والرسول وإن كانا مفهومين متباينين، إلاّ أن بينهما نسبة العموم والخصوص من حيث المصداق، فأحدهما أعمّ والآخر أخص مورداً. فلا يوجد رسول إلاّ وهو نبيّ ولهذا فإنه إذا قال خاتم النبيين فهو يثبت اختتام الرسالة أيضاً.

الشبهة الثالثة: هناك بعض الآيات التي تشير إلى أن الله سوف يبعث أنبياء متعددين، ومع وجود هذا النص كيف تفهمون من تلك الآية اختتام النبوة برسول الإسلام (ص)؟

ومن جملة تلك الآيات قوله سبحانه:

﴿يَا بَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي...﴾[٧].

فالآية تخاطب بني آدم ولما كانت نازلة في زمان النبي (ص) فهي خطاب للناس في ذلك الزمان أيضاً وتقول لهم ﴿يأتينّكم رسل﴾ ومعنى هذا إنّ هناك رسلاً آخرين سوف يأتون الناس بعد نبي الإسلام (ص).

الجواب: إن هذه شبهة واهية جدّاً وكما يقول المرحوم العلّامة الشيخ محمد جواد البلاغي إن أمثال هذه لا يقول بها إلاّ من لا يعرف اللغة العربيّة:

أوّلا: ليس معنى الفعل المضارع دائماً إنه سوف يتحقق مضمونها في الخارج.

(٧) الأعْرَاف: ٣٥.

والأهم من هذا كله إن الآية تتضمّن خطاباً لبني آدم يعد هبوط آدم وحواء إلى الأرض، ففي الآيات السابقة عليها يذكر سبحانه قصّة خلق آدم وحواء وجعلهما في الجنة ثمّ اخراجهما منها، وبعد ذلك يخاطب بني آدم بأُمور ومنها هذا المورد، فليس معنى هذا أن الخطاب موجّه إلى بني آدم الذين يعيشون في زمان النبي (ص) حتى يستنتج منها تلك النتيجة، فالآية خطاب للإنسان بأنه عندما يأتيكم الأنبياء فعليكم تصديقهم واتّباعهم. أمّا أين سوف يبعثون ومتى وكم هو عددهم وهل لهذه المجموعة خاتمة أم لا؟ كل هذه الأُمور لم تتعرّض لها الآية بسلب أو إيجاب.

وتشبه هذه الآية آيتان أُخريان يتّضح مفهومها بهما: يقول عزّ وجلّ:

﴿قُلْنَا اهبطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاي فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٨).

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاي فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾(٩).

ففي هاتين الآيتين يذكر الهدى، بينما هو في الآية التي هي موضوع البحث يذكر الواسطة في الهداية (الرسول) فالرسل هم حاملو الهدى الإلهي.

الشبهة الرابعة: يقول الجليل سبحانه:

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ...﴾(١٠).

هذه الآية نازلة في زمان النبي (ص) وتدل على أن الله تعالى يبعث من يشاء نبيّاً، إذن بعد نبي الإسلام (ص) أيضاً يبعث الله من يشاء من عباده.

الجواب: إن هذه الآية لا تنظر إلى المستقبل، ومفادها أن الله يوحي لكل من يريد، وليس ملاك الوحي هو ما يتصوّره البعض من امتيازات ماديّة ودنيويّة. أمّا متى يوحي؟ فهذا ما لا تفيده الآية. وتشبه هذه الآية قوله تعالى:

﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(١١).

(٨) البَقَرَة: ٣٨.

(٩) طه: ١٢٣.

(١٠) المؤمن: ١٥.

ولا تعيّن الماضي أو الحال أو المستقبل، والفعل المضارع في مثل هذه الموارد لا يدل على الاستقبال، وإنما هو يريد أن يبيّن أن أرسال النبي تابع لإرادة الله وليس باقتراح الناس، فهو تعالى الذي يعلم من الأصلح للرسالة.

ونحن لا نقول إن جملة ﴿يلقي الروح﴾، تدل على اختتام النبوة، وإنما نقول إنها لا تدل على إرسال نبي في المستقبل حتماً، فلو فرضنا مجيء نبي في المستقبل لكانت الآية شاملة له أيضاً، إلاّ أن الآية ﴿خاتم النبيين﴾ تختتم النبوة به (ص).

وهناك شبهات أوهى من هذه مذكورة مع الجواب عليها في ذلك الكتاب فلا نطيل بذكرها.

ونواجه عندئذ هذا السؤال:

ما هي الحكمة في اختتام النبوّة؟ فالله سبحانه أرسل الأنبياء متعاقبين لهداية البشرية فما الذي حدث حتّى تتوقّف النبوّة في زمان معيّن؟

إن الجواب القاطع لهذاالسؤال هو قوله عز وجلّ:

﴿الله أعلمُ حيثُ يجعل رسالتهُ﴾.

فهو الذي يعلم الزمان الذي تكون فيه ضرورة لبعث نبي فيرسله، والمعايير بيده، وليس في أيدينا مقياس يعيّن لنا في أي زمان لا بدّ من بعث النبي، ومن هو ومن أيّ أُمّة يُنتخب؟

فليس لدينا جواب قاطع لهذاالسؤال ونحن لا نعلم حقيقةً لماذا يجب أن تُختتم النبوّة، إلاّ أن هناك ملاحظات قد تُستفاد من الآيات الكريمة وهي نافعة في هذا المجال، ونقول هذا بعنوان الاحتمال فحسب. من جملة تلك الملاحظات إن الأنبياء كانوايبعثون ليصبحوا الرابط بين الله والإنسان ويهدوا الإنسان إلى هدفه النهائي، وهو نفس البرهان الذي ذُكر على ضرورة النبوّة، إلاّ أنّ هؤلاء الأنبياء الذي أُرسلوا لا تبقى دعوتهم على حالها للذين سوف يأتون في المستقبل فكانت التحريفات تنالها وقد تضيع أساساً من أيدي الناس، كما حدث لكثير من الأنبياء حيث حُرّفت كتبهم أو

انـدرست تماماً. فهذه من الحكم التي كانت توجب إرسال نبيّ جديد لإحياء تلك الدعوة وإعادة الكتاب المحرّف إلى نقائه الأصيل فيبيّن الحقائق على ما هي عليه في الواقع:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[١٢].

وكان إرسال الأنبياء أحياناً بسبب أن الأنبياء السابقين لم يحملوا ما هو كافٍ للأمم اللاحقة، فقد يكون النبي السابق قد بُعث في أُمّة تعيش وضعاً ساذجاً لا توجد فيه علاقات اجتماعية معقّدة فلم تكن بحاجة إلى أحكام اجتماعية مفصّلة. إلّا أنه بعد ذلك تعقّدت العلاقات الاجتماعية تدريجياً وأصبحت بحاجة إلى أحكام خاصّة تنزل من قِبل الله على نبي يبعث إليهم فيكمل الشريعة.

وقد يبقى الوحي الإلهي في أيدي الناس أحياناً إلّا أنه يفتقر إلى التفاصيل فتحتاج الأمة إلى نبي يبيّن لها ذلك.

ولا يوجد في الإسلام أيّ مبّرر من هذه المبّررات التي تمهّد لإرسال نبي جديد. أما بالنسبة لتحريف الكتاب أو ضياعه أساساً فإن الله قد ضمن أن لا يقع مثل هذا بالنسبة للقرآن الكريم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١٣].

فهذه الحكمة لمجيء نبي جديد لا مجال لها في الإسلام.

وأما احتياج الرسالة إلى من يكملها، بمعنى إن الناس تتقدم حياتهم وتتعقّد فيحتاجون إلى أحكام اجتماعية جديدة، فهذا أيضاً لا مورد له في الإسلام لأن الله تعالى يقول:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلَامَ دِيناً﴾[١٤].

(١٢) النّحل: ٦٤.
(١٣) الحِجْر: ٩.
(١٤) المائدة: ٣.

فالشرائع السابقة كانت فيها نقائص بالنسبة للاحقين، فهي كافية لمن كان يعيش في زمانها، إلاّ أن الله يعلم إن كل ما يلزم لأبناء المستقبل فهو مدرج في الشريعة الإسـلامية ولا داعي لحكم جديد ولا قانون آخر، وهذا هو مضمون ما روي عن النبي (ص) أنه يقول:

(وما من شيء يقرّبكم إلى الجنة ويبعدكم عن النار إلّا وقد أمرتكم به، وما ومن شيء يبعدكم عن الجنة ويقرّبكم إلى النار إلّا وقد نهيتكم عنه)، ومثلها ما ورد إن *(حلال محّمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة)*.

إذن لّما كان الدين الإسلامي كاملاً ولا يحتاج إلى قوانين جديدة فلا حاجة إلى نبي جديد أيضاً.

الملاحظة الأخرى: هي أن القرآن يشبه الكتب السماوية السابقة في أنه يذكر كليات وأمـوراً عامّة ويترك تفاصيلها للنبي (ص)، فهو يأمر بالصلاة ويجعل بيان أحكامها الجزئية على عاتق النبي (ص) ويأمر الزكاة ويترك أمر تفاصيلها إليه:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[١٥].

وقـد نهض النبيّ الأكرم (ص) في زمانه بهذه المهمة خير قيام وأمر الناس بتسجيل ما يصدر منه ليستفيد منه اللاحقون، ويستمر اللطف الإلهي على الناس بعد رحلة النبي (ص) إلى ربه وذلك بوجود أفراد معصومين مرتبطين بعالم الغيب يُلهمون الحقائق، فهؤلاء موجودون بين الناس وإن لم يكن لهم مقام النبوّة والرسالة ولا يوحى إليهم لكنهم ليسوا منقطعي الصلة بعالم الغيب بحيث لا يستطيعون إدراك الحقائق. فهؤلاء قد عيّنهم الإسلام وهم باقون إلى يوم القيامة، فحتى إذا بقي شخصان على الأرض كان أحدهما حجّة الله فيها. إذن لا حاجة لإرسال نبيّ جديد في هذا الزمان.

وبالنظر إلى هذه الملاحظات الثلاث نستطيع أن نذكر وجهاً لاختتام النبوّة بحسب مقام الثبوت.

(١٥) النّحل: ٤٤.

والحاصل إن النبوّة قد اختتمت ببعثة نبي الإسلام (ص) وسوف يبقى الإسلام هو الدين الإلهي إلى يوم القيامة بحيث لا يلحقه تحريف ولا يطرأ على شريعته نسخ. ويمكننا الاستدلال على هذا الأمر بآيات أُخرى، ومنها قوله عزَّ وجلّ:

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[١٦].

فهذه الآية تتحدّث عن القرآن الكريم، ولو فرضنا أن نبيّاً جديداً سوف يُبعث بعد الرسول الأكرم (ص) وهو يحمل كتاباً جديداً، فسيصبح ذلك الكتاب ناسخاً للقرآن، بينما هذه الآية تفيد ان القرآن الكريم لن يسنخ بأيّ كتاب آخر.

إلّا أن هذه الآية كسابقاتها لا تفيد كل الموضوع، بمعنى إنه يستفاد منها عدم تسلّل الباطل إلى القرآن في زمان النبي أو بعد زمانه، وتسلّله إليه أما إن يكون بحذف شيء منه أو إضافة أمر إليه بحيث لا يمكن تمييزه أو نسخ حكمه، وعموم قوله: **﴿لا ياتيه الباطل﴾**، ينفي كل هذه الاحتمالات.

إذن يمكننا الاستدلال بهذه الآية على نفي كتاب ناسخ للقرآن الكريم وعلى نفي وقوع التحريف فيه. ولكن هذه الآية لا تنفي إمكانيّة إرسال نبيّ لترويج القرآن الكريم نفسه. وبهذا لا يعدّ الباطل قد طرأ على القرآن. وقد سبق لبعض الأنبياء أنْ كانوامبلّغين لكتب نزلت على أنبياء آخرين، مثل لوط(ع) الذي كان مروّجاً لكتاب إبراهيم(ع)، ومثل يحيى(ع) الذي كان ناشراً لكتاب عيسى(ع)، وهناك أنبياء آخرون قاموا بنفس هذا الدور. فهذه الآية لا تنفي هذا الاحتمال.

فهذه الآيات نافعة لاثبات جزء من المدعى، وأما كل الموضوع وهو إنه سوف لن يبعث نبي بعد رسول الإسلام (ص) فالدال عليه بصراحة هي الآية (٤٠) من سورة الأحزاب، وهناك روايات متواترة عند الفريقين، منها حديث المنزلة الذي يخاطب فيه النبي الكريم (ص) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) بقوله:

(١٦) فُصّلت: ٤١ و ٤٢.

(أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبيّ بعدي. أو ليس بعدي نبيّ) . وهو حديث صحيح باتفاق الأمة الإسلامية [١٧].

وكل منصف فهو يقطع بصدور هذا الحديث من النبي (ص)، ومثله أحاديث كثيرة تدل على هذا الموضوع. ولذكر هذا الموضوع ناحية علمية وإلّا فإنه من الناحية الاعتقادية يعتبر من ضروريات الإسلام التي يعرف حتى الكفّار أن المسلمين يؤمنون بها ولا حاجة للاستدلال على الضروريات.

(١٧) صحيح البخاري ٣: ٥٨. صحيح مسلم ٢: ٣٢٣ و ٣٢٤. سنن ابن ماجة ١: ٢٨. مستدرك الحاكم ٣: ٠٩ مسند ابن حنبل ١: ٣٣١ و ٢: ٣٦٩ ـ ٤٣٧، وقد ذكر صاحب الغدير مصادر هذا الحديث من كتب أهل الـ والشيعة.

سائر مقامات الأنبياء

يذكر القرآن الكريم صفاتٍ أُخرى للأنبياء سلام الله عليهم أجمعين غير مقام النبوّة ومنزلة الرسالة.

ويمكن تقسيم هذه الصفات والمقامات بشكل عام إلى فئتين:

إحداهما تلك الصفات المتعلّقة بأشخاصهم وهي مقامات معنويّة وروحانيّة يفيضها الله عليهم نتيجةً لجهودهم وإخلاصهم، ولا ترتبط هذه بالناس بصورة مباشرة. فمثلًا يصف الله سبحانه بعض أنبيائه بـ «الصدّيق» أو «المخلَص» أو ما شاكل ذلك، كقوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾[1].

فهو يثبت لموسى(ع) صفة أُخرى غير الرسالة والنبوة وهي كونه «مخلَصاً» وهذا هو نفس ما التفت إليه الشيطان في البدء حيث:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2].

فهناك طائفة من عباد الله الصالحين استخلصهم الله لنفسه، فلا يندّس في وجودهم شيء لغير الله. وقد وصف بهذا الوصف كثير من الأنبياء في القرآن الكريم،

(١) مريم: ٥١.

(٢) ص: ٨٢ و ٨٣.

وهو وصف لا يتعلق مباشرة بالناس، لقد استخلص الله هذا الفرد لنفسه، ولا علاقة لهذا الأمر مباشرة بالمجتمع والنشاطات الاجتماعيّة. ويقول عزَّ وجلّ:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴾(٣).

وقد ورد في الروايات إن الصدّيق هو من تطابق قوله مع عمله، فكل شيء يقوله ويؤمن بضرورة تطبيقه فهو ينفّذه، ولا يوجد أيّ تناقض بين قوله وسلوكه. إنه يعتقد بجميع الحقائق ويعمل على ضوئها. فالصدّيق صيغة مبالغة من الصدق. وقد وصفت مريم(ع) بهذا الوصف أيضاً:

﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾(٤).

فهذا وصف يتعلق بذات الشخص وهو من المقامات المعنويّة.

وهناك فئة أُخرى من الصفات وهي تتعلق بالمجتمع وتحقق مسؤولية للمجتمع بازائها، مثل مقام الإمامة:

﴿وَإِذْ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾(٥).

فالإمامة منصب أُعطي لإبراهيم(ع) بعد مقام النبوّة والرسالة والخلّة، إلاّ أنها صفة تتعلّق بالناس ﴿جاعلك للناس إماماً﴾، فالناس مكلّفون بإزاء هذا المنصب الذي أُعطي لإبراهيم(ع) بالقيام بعمل وهو أن يقتدوا بسلوكه وينفّذوا أوامره ويعملوا بكل ما يقتضيه هذا المقام.

أمّا الصفات العائدة إلى أشخاص الأنبياء فهي ليست مورد بحثنا، ولعلّ كثيراً منها أو جميعها لا اختصاص له بالأنبياء:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللهَ والرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾(٦).

(٣) مريم: ٥٦.
(٤) المائدة: ٧٥.
(٥) البَقَرَة: ١٢٤.
(٦) النِّسَاء: ٦٩.

فهو سبحانه يذكر النبيين إلى جانب الصدّيقين والشهداء والصالحين. والظاهر إن المقصود من الشهداء في الآية ليس هو المعنى المشهور عندنا، وإنما المقصود هم أولئك الذين يشهدون أعمال الناس، من النبيين وغيرهم كما إن عنوان الصالحين يشمل الأنبياء أيضاً:

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾(٧).

ولا يوجد دليل على كون هذه الصفات مختصّة بالأنبياء، وقد لاحظنا إطلاق الصدّيقة في القرآن الكريم على مريم (ع) مع أنها لم تكن من الأنبياء.

وهذه الطائفة من الصفات ليست موضوع بحثنا هنا، وإنّما يدور موضوعنا في هذا البحث حول مقامات الأنبياء الأخرى مما يرتبط بالناس.

فمقتضى النبوّة والرسالة هو أن يوصل الأنبياء الدعوة الإلهيّة إلى الناس، كما إن البرهان العقلي الذي أقيم على ضرورة بعثة الأنبياء كان يقتضي هذا الأمر وهو أنْ يوجد أشخاص يستلمون الرسالة من الله ويبلغونها للناس. فالنبوة والرسالة لا تقتضي أكثر من هذا. والناس مكلّفون أيضاً بتلقّي هذه الدعوة الإلهيّة من الأنبياء ثمّ العمل بها. والطاعة للأنبياء في هذا المجال هي في الواقع طاعة لله، لأن الأنبياء لا دور لهم في هذه الدعوة سوى الإبلاغ:

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾(٨).

ويتمتّع الأنبياء (ع) بمقامات أخرى غير هذا المقام (كما يذكر ذلك القرآن الكريم)، أوّلها وهو الذي يلي مقام النبوّة والرسالة هو إنهم مبيّنون للوحي. ولعلّ الأنبياء جميعاً يتّصفون بهذه الصفة. فهناك فرق بين أن يستلم شخص رسالة ثمّ يبلغها لصاحبها بعينها، وأنْ يقوم بتفسيرها وتوضيحها أيضاً. فالنبوة تقتضي أن يستلم الرسالة ويوصلها للناس، فرسول الإسلام (ص) مثلاً يتلقّى الوحي القرآني ثمّ يتلوه على

(٧) الأنبياء: ٨٦.

(٨) النور: ٥٤.

الناس. وإلى هنا يكون قد أتمّ إبلاغ الرسالة. لكن الناس يحتاجون إلى أكثر من هذا، فهم بحاجة ماسّة إلى معلّم ومفسّر يبيّن لهم ما يريده الوحي في كثير من المواطن. فلو فرضنا مثلاً أنه تلا لهم قوله سبحانه:

﴿أَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾[٩].

فإن الناس لا يعرفون كيف يقيمون الصلاة، وليس في النصّ القرآني ما يوضح هذا الأمر، فيحتاجون إلى شخص يعلمهم كيفيّة إقامة الصلاة. أو عندما يقول:

﴿وَءَاتُوا ٱلزَّكَاةَ﴾[١٠].

فإنهم يعرفون أن الزكاة واجبة عليهم، إلّا أنه كم هي نسبة الزكاة، وبأيّ شيء تتعلّق؟ فإن هذه الأمور ليست مبنيّة في أصل الوحي، ولهذا تمسّ الحاجة إلى من يبيّنها لهم.

فالمقام الثاني للأنبياء بعد النبوة والرسالة هو مقام «تبيين الوحي وتفسيره».

ولعل جميع الأنبياء كانوا يتمتعون بهذا المقام. ويستفاد من إطلاق بعض الآيات إن الناس مكلّفون بالطاعة للأنبياء ولا سيّما في مجال تفسيرهم للوحي:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[١١].

فيمكن التمسك بإطلاقها لإثبات وجوب الطاعة للأنبياء في تفسير الوحي وتبيينه.

فإذا أنزل الله رسالة بواسطة الأنبياء فلا بدّ للناس من الطاعة وهي طاعة لله. وأقلّ ما يتصوّر في طاعة الرسول هي أن يكون بيانه في تفسير الوحي معتبراً. فأول مراتب الطاعة للرسول بعد طاعته في أصل الرسالة هي قبول كلامه في تفسير الوحي. وليس هذا أمراً مستبعداً، فعندما يرسل شخص بدعوة من قِبل الله فإن طبيعة الحال تقتضي أن يكون هو مستوعباً لتلك الدعوة. وحمل الأنبياء للرسالة الإلهيّة يختلف عن حاملي الرسائل الذين يحملون أوراقاً مغلّفة قد لا يعلمون ما فيها. إن الأنبياء

(٩) و(١٠) النور: ٥٦.

(١١) النِّساء: ٦٤.

يستوعبون الوحي ويفهمونه ثم يوصلونه إلى الناس. فإذا قالوا أن هذا الكلام يعني هذا الشيء، أي أنه هو المعنى الذي أفهمهم الله إيّاه.

وعلى كل حال فمن الطبيعي جداً أن يكون الرسول قد فهم جيّداً مضمون الوحي الذي تلقّاه من الله سبحانه. ومن الطبيعي أيضاً أن يكون الناس مكلّفين بالاعتماد على فهمهم للوحي.

إلّا أن هذا أيضاً لا يسدّ جميع حاجات الناس. فهناك حاجات تفوق المقدار الذي كان يدل عليه البرهان، والله سبحانه عندما يرسل الأنبياء فانه يسدّ لهم حاجاتهم ضمناً ومن باب التفضّل. ومن جملتها حاجتهم في مجال فهم معنى الوحي وتفاصيله.

وهناك مقام آخر وهو: إن الناس أحياناً يحتاجون في مورد تطبيق القوانين الكلّية الإلهيّة إلى من يبدي وجهة نظره بل وأن يصدر حكمًا قاطعاً كما في موارد الشجار. فهناك اختلافات كثيرة تقع بين الناس في المجالات الحقوقيّة: كالملكيّة والزوجيّة وغيرهما، وحتى إذا عرفوا قوانينها العامّة فإن تلك المعرفة لا تمكّنهم من تطبيقها بصورة صحيحة على مواردها الخاصّة، فما هو الحل؟ إنهم يحتاجون إلى قاضٍ ولا بدّ أن يكون عالماً بتلك الأحكام الكليّة ثم يطبّقها على مواردها الخاصّة بقرائن وأدّلة وامارات يشخّص بها مصداق ذلك الحكم العام ثمّ يفرض تشخيصه للمصداق على الآخرين، ويكلِّف الآخرين بتنفيذ رأيه حتى تنتهي الخصومة.

إنه أمر كان موجوداً في جميع المجتمعات البشرية على طول التاريخ وسوف يبقى في المجتمعات اللاحقة أيضاً.

لا شكّ إن الله قد منح بعض أنبيائه هذا المقام بعنوان أنه قدر متيقن (وذلك لأنه لا يوجد دليل يقينّي على منحه لجميع الأنبياء سوى إطلاق تلك الآية ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[١٢] ، فليس هناك دليل صريح على تمتّع الجميع به وإنما

(١٢) النِّسَاء: ٨٠.

الدليل الصريح قائم على منحه للبعض) فمثلاً بالنسبة لداوود (ع) يقول تعالى:
﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[١٣].

ولعلّ يمكننا أن نستفيد من هذه كون مقام القضاء ليس ملازماً لمقام النبوّة، فقد كان داوود نبيّاً حينما خوطب ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ...﴾، فيُستأنس من ذلك عدم الملازمة بينهما، فالقضاء مقام آخر غير النبوة يعطيه الله للنبي.

وعلى أيّ حال فالقدر المتيقن هو أنّ بعض الأنبياء يتمتّع بهذا المنصب.

وهناك مقام آخر يحتاج إليه الناس في حياتهم الاجتماعية، وقد منحه الله لبعض الأنبياء (وهو القدر المتيقن) وهو منصب الحكومة.

ومن الواضح ان القضاء قد يعدّ من شؤون الحكومة، إلّا أنه بالذات ليس هو عين منصب القضاء، فالقضاء يكون في الموارد التي يتنازع فيها شخصان أو أكثر في المسائل الحقوقيّة. إلّا أنه أحياناً يحتاج المجتمع إلى قانون معيّن عام أو خاص يصدر من مقام بصورة حاسمة. كما لو فرضنا ان عدوّاً هاجم الأُمّة فلا بدّ من الوقوف في وجهة وصدّه والدفاع عن الكيان الاجتماعي وحفظه، ولكن بأيّة صورة؟ ومن الذي لا بدّ أن يساهم في هذا الأمر؟ ومن الذي يؤمّن له موارده الماليّة؟ ومتى يتمّ ذلك؟ ومن أين يكون البدء؟

يوجد اختلافات هائلة في هذه الأُمور، وإذا لم يكن هناك رأي حاسم يُتّبع في هذه المجالات فغالباً ما تنتهي الأوضاع إلى نتائج غير مطلوبة، فإن تبعثر الآراء يؤدّي إلى نقضٍ للغرض. فلو فرضنا جيشاً يعمل فيه كل عضو منه برأيه فإنّ مثل هذا الجيش يعجز عن تحقيق أيّ نصر، فلا بدّ إذن من وجود منصب يتمتّع صاحبه بصلاحيات أكثر من الآخرين فهو الذي يصدر الأوامر والآخرون ينفذون حتى نستطيع الظفر بنتيجة مطلوبة.

هذا هو منصب الحكومة، وتمسّ الحاجة إليها في موارد عديدة منها مسائل

(١٣) ص: ٢٦.

الحرب في الجهاد والدفاع، وليس الأمر منحصراً فيها. وحتّى في ظروف السلم والحالة العادية أيضاً يحتاج المجتمع دائماً إلى حكومة تسيّر أُموره.

ولا بدّ من طرح هذا البحث في موضوع الفلسفة السياسية، ولعلّنا نتحدّث عنه بالتفصيل ـ بعون الله وتوفيقه ـ في القسم الأخير من هذه المباحث القرآنية.

وعلى الإجمال فالمجتمع يحتاج إلى هذا المنصب.

فهل من الضروري تعيين من يستلم هذا المنصب من قِبل الله، وهل يلزم أن يتمتّع به كل نبيّ؟

ليس في أيدينا دليل عقلي ولا دليل نقلي كافٍ لإثبات هذا الموضوع. وكل ما لدينا هو أن بعض الأنبياء كان يتمتّع بمقام الحكومة والسلطة وكان لا بدّ من تنفيذ آرائهم في المجالات الاجتماعية التي تحتاج إلى إصدار أمر حاسم من قبل حاكم مطاع.

ولعله يستفاد من بعض النصوص أن بعض الأنبياء لم يكن له مثل هذا المنصب. ومن جملتها ما ورد في قصة طالوت عندما جاء بنو إسرائيل إلى نبيهم وطلبوا منه ان يعيّن لهم ملكاً:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِن بَنِي إِسرَاءِيلَ مِن بعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ...﴾[١٤].

فظاهر هذه القضية إن ذلك النبيّ لم يكن له هذا المنصب، وإلّا لأجابهم: انا الملك عليكم فالله قد عيّنني، لكنّه يقول لهم:

﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَاأَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ...﴾[١٥].

وعندئذ يطلب من الله فيعيّن الله طالوت ملكاً عليهم:

﴿وَقَالَ لَهُم نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً...﴾[١٦].

(١٤) و(١٥) البقرة: ٢٤٦.
(١٦) البَقَرَة: ٢٤٧.

وحسب الظاهر لا يوجد دليل على أن طالوت كان نبيّاً وإنما هو شخص قد اختاره الله للملك على بعض بني إسرائيل.

إذن لا يوجد دليل قطعيّ على التلازم بين النبوّة والحكومة، بل لعلّه يمكن الاستيناس بهذا النص لنفي الملازمة بينهما، فقد تكون النبوّة لشخص والملك لشخص آخر، والله سبحانه هو الذي عيّنهما.

إلّا أن هناك آيات وروايات تمنح منصب الحكومة لبعض الأنبياء كقدر متيقن في هذا المضمار.

إذن للأنبياء مقامات أُخرى غير مقام الرسالة والنبوّة، بعضها كان يتمتع به جميع الأنبياء ـ على الأظهر ـ وهو مقام «التبيين والتعليم»، وبعبارة أُخرى «حجّيّة آرائهم في تفسير الوحي الإلهي».

المقام الثاني هو منصب القضاء، أي تطبيق الأحكام الحقوقيّة الإلهيّة على مواردها الخاصّة، ومن الواضح إنني لا أريد تفسير القضاء هنا: هل يعتبر فيه الإنشاء أم لا؟ إن ذلك لا بدّ من بحثه في موطنه. وإنما مقصودنا هنا هو ذلك المنصب الذي يرفع الإختلافات بين الناس المتنازعين بالاعتماد على قانون منزل من قِبل الله ومبيّن من قِبل النبي، ثمّ نحتاج بعد ذلك إلى حكم يصدر من شخص في مورد خاص أي يحكم في المصداق.

والمقام الثالث هو منصب الحكومة والسلطة على الناس.

والأهم من هذا أن نعرف تفاصيل الوضع بالنسبة لنبي الإسلام (ص).

ويستفاد من آيات كثيرة أن الرسول الأكرم (ص) كان يتمتع بجميع هذه المناصب: فقد كان رأيه حجّة في تفسير الوحي الإلهي، وقضاؤه واجب الإتّباع، وحكومته على الناس نافذة:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[١٧].

فالألف واللام في «الرسول» هي ألف ولام العهد، أي الرسول المعهود وهو نبي الإسلام (ص)، وحتى إذا احتمل أحد أنها ألف ولام الجنس فانه يكون شاملاً لنبي الإسلام أيضاً. ويشبهها قوله سبحانه:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[١٨].

فمنصب التبيين هذا غير منصب إبلاغ الوحي للناس. ويُفهم هذا أيضاً من الآيات القائلة:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾[١٩].

فتعليم الكتاب غير تلاوته، ولا شكّ أن تفسير النبي (ص) للوحي الإلهي وتفصيله للأحكام حجّة لا بدّ أن يأخذ بها الناس.

وفي آية أُخرى يقول عزَّ وجلّ:

﴿وأنزلْنا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ الله وَلَا تَتَّبِعَ أَهوَاءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الحَقِّ﴾[٢٠].

فكتابك يصدّق الكتب السماوية الأُخرى النازلة على أنبياء سبقوك، إلاّ أن كتابك مهيمن عليها فهو ناسخ لبعض أحكامها. ثمّ يأمره الله بالحكم بين الناس بالحق، والقدر المتيقّن من هذا الحكم هو القضاء، فهو إذن من المناصب الممنوحة للرسول الكريم (ص). ثم يقول تعالى: ﴿وَلا تتّبع أهواءهم﴾، فلا يجوز لك أن تتبع أهواء الناس في حكمك بل لا بدّ أن يكون على أساس الأوامر الإلهيّة. ومن الواضح أن هذا الكلام مناسب في المجال الذي تزلّ فيه الأقدام حيث يكون الإنسان في معرض تأثير هوى النفس أو يحاول مراعاة آراء الآخرين. ولهذا فإن الله يؤكّد عليه

(١٨) النّحل: ٤٤.
(١٩) الجُمُعة: ٢.

حتى يراقب نفسه ولا يقع تحت تأثير أهوائه. ومن الواضح أن النبي الكريم (ص) معصوم كسائر الأنبياء (ع)، إلّا أن الخطاب القرآني ناظر إلى أن مثل هذه الأمور هي موارد تزّل فيها الأقدام ولا بدّ أن يلتفت الإنسان جيداً حتى لا يقع في الفخ، فبعض الآيات مثلاً تحذّر النبي (ص) من مغبّة الشرك:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[٢١].

وليس معنى هذا إن مثل هذا الاحتمال وارد بالنسبة للنبيّ الأكرم (ص) وإنما التربية الإلهية تلفت الإنسان في المزالق الخطيرة حتّى يوليها عناية أكبر فينقذ نفسه من نتائجها المهلكة.

وكذا قوله سبحانه:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُن لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾[٢٢].

وتدل هذه الآية بصراحة على أنّ له (ص) حقّ الحكم في القضاء ورفع الخصومة بين المتنازعين، ولا سيّما إذا التفتنا إلى ذيل الآية الناهي عن الانحياز إلى جانب الخونة.

والأوضح منها جميعاً قوله عزّ وجلّ:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[٢٣].

ولا مورد لهذه الآية إلّا إذا كان شخص قد نُصّب من قبل الله قاضياً ثمّ كُلّف الناس بالتسليم لقضائه. أيمكن أن يوجد نصّ أصرح من هذا لإثبات منصب القضاء للرسول الأكرم (ص)؟

(٢١) الزُمرْ: ٦٥.

(٢٢) النّساء: ١٠٥.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللهُ وَرَسُولُهُ أمراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أمرِهِم وَمن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً﴾[٢٤].

وحتى إذا فرضنا أنّ «قضى» ليس منحصراً بالقضاء في المنازعات فإنها على أقل تقدير شاملة لها.

وتدل بعض الآيات على أكثر من القضاء في المشاجرات:

﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا﴾[٢٥].

وهذه الآية الكريمة واردة في الفيء حيث تفيد أنه بيد رسول الله (ص) فإذا أعطى شيئاً لأحد فلا بدّ له من قبوله وأن لم يعط شخصاً شيئاً فلا بدّ له من الرضى بما قرّر. وفهم البعض من قوله ﴿ما آتاكم﴾ إن الأمر غير منحصر في الفعل الخارجي والعينيّ وإنما هو شامل للأمور الاعتبارية أيضاً فإذا جاء الرسول بأمر تشريعي بمعنى أنه أصدر حكمًا بالإيجاب أو بالتحريم فلا بدّ من قبول حكمه وفعل ما أوجبه والإبتعاد عمّا حرّمه.

إلّا أننا لا نستبعد كون المقصود هو الفعل الخارجي وليس العموم الشامل للأشياء الاعتبارية، وذلك بفضل القرائن التي تحفّ الآية، فـ ﴿ما آتاكم﴾ أي ما اعطاكم من فيء فخذوه، ﴿وما نهاكم عنه﴾ أمّا عملياً بأن يكون قد حرمكم منه وأما تشريعياً بحيث حرّمه عليكم فلا تمدوا أيديكم إليه.

وعلى أيّ حال فالآية تثبت هذا المنصب للرسول الأكرم (ص) وتجعل له الحقّ في التصرّف بالفيء، فهو من الموارد العائدة إلى الحكومة الشرعيّة. وأمّا هذه الآية:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَى بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أنفُسِهِمْ﴾[٢٦].

فهي تدل بوضوح على ثبوت هذا المقام للنبي (ص)، فقراره مقدّم على قرار أيّ إنسان، وهذا هو ما نسمّيه بولاية الأمر.

(٢٤) الأحزاب: ٣٦.

(٢٥) الحشر: ٧.

(٢٦) الأحزاب: ٦.

ولعلّ أوضح آية تدل عى ضرورة طاعة النبي في الأمور العائدة للحكومة قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢٧].

وقلنا إن دلالتها أوضح بسبب تكرّر قوله «أطِيعوا» مرتين: مرّة في مورد الله ومرة أُخرى في مورد الرسول وأُولي الأمر. ولّما كان أولوا الأمر مذكورين إلى جانب الرسول (ص) ومشتركين في وجوب طاعة واحدة فإنه يظهر من هذا كون الطاعة تتعلق بمايُرجع فيه عادة إلى أُولي الأمر. وفي ذيل الآية ما يشهد بهذا الموضوع أيضاً ويؤكّد ان هذه الطاعة ليست متعلّقة بقبول الوحي ولا بتنفيذ أوامر النبي في مجال تفسير الوحي، وإنما هي تفيد ما هو أكثر من هذا-وهو تلك الأمور التي لا بدّ أن يتّخذ فيها القرار أولوا الأمر ثم تُفرض على الناس الطاعة لها.

وننتقل عندئذ إلى موضوع آخر وهو:

هل هذه المناصب والمقامات ـ عدا النبوّة والرسالة ـ منحصرة به (ص) أم هي شاملة لغيره أيضاً؟

يعتقد الشيعة بعصمة إثني عشر إماماً غير النبي (ص) ويؤمنون بأن هؤلاء يتمتعون بجميع مناصب النبي (ص) عدا النبوّة والرسالة. ويعدّ هذا الأمر من ضروريات المذهب الشيعي.

ونريد أن نستفيد من هذه الآية الكريمة ان المقامات الثابتة للنبي ـ عدا النبوّة والرسالة ـ ثابتة لأُولي الأمر أيضاً: فالآية تدل بالمطابقة على المنصب الثالث (الحكومة)، ونفس التقريب الذي ذكرناه في موضوع الرسول نذكره في مورد أولي الأمر وهو أن الطاعة لأولي الأمر تكون في الشؤون العائدة إليهم وهي شؤون الحكومة.

ويستفاد من هذه الآية لإثبات المقامات الأُخرى لهم بهذا البيان:

إن مقام القضاء في الإسلام من فروع الحكومة وشؤونها، فشخص النبي (ص) لّما كان له منصب الحكومة على الناس فهو يستطيع أن يقضي بينهم أو يعيّن لهم قاضياً، فتعيين القاضي في الإسلام بيد الحكومة الإسلامية ولا سيّما تلك الحكومة المعصومة. إذن عندما يتمّ إثبات ولاية الأمر لأشخاص غير رسول الله (ص) فإن فروعها تثبت لهم أيضاً ومن جملتها القضاء أو تعيين من يقضي بين الناس. ويثبت ضمن ذلك حجّية رأيهم، ولأن من يريد القضاء لا بدّ أن يكون مستوعباً لمضمون الوحي بشكل جيّد ومدركاً لقوانين الإسلام في القضاء بصورة دقيقة، وهي جميعاً لم تبيّن في الكتاب العزيز، فلا بدّ أن يكون فهمه للآيات حجّة، أو إذا كانت ثابتة في سنّة رسول الله (ص) لا بدّ أن يكون فهمه للسنّة معتبراً.

إذن يستفاد من هذه الآية أن أُولي الأمر ـ أيّاً كانوا ـ يتمتعون بمنصب الحكومة ومقام القضاء، ويعتبر رأيهم حجّة في تفسير الوحي.

وتدل على هذا الأمر آيات أُخرى وروايات كثيرة لا يسعنا في هذا المجال المحدود تناولها، فهو موضوع مستقل يمكن التوفّر عليه ودراسته من وجهة نظر القرآن أو من ناحية الأحاديث النبويّة المسلّمة بين الفريقين أو الروايات المختصة بالشيعة.

وأولوا الأمر حسب التفسير المنقول عند الشيعة والسنة قد عيّنهم رسول الله (ص) وهم أئمة الشيعة الاثنا عشر سلام الله عليهم أجمعين. فحتى أهل السنة[٢٨] أنفسهم ينقلون ان هذه الآية عندما نزلت سأل رسول الله بعضُ أصحابه ومن جملتهم جابر بن عبد الله الأنصاري بأننا عرفنا طاعة الله والرسول ماذا تعني، أمّا مَنْ هُمْ أُولوا الأمر؟ وفي الجواب يعيّن النبي (ص) أسماء إثني عشر من الأئمة، ويؤكّد على ان هؤلاء هم المقصودون بأُولي الأمر.

ومن الواضح أن النبي الأكرم (ص) أو أولي الأمر إذا عيّنوا شخصاً أو عنواناً فإنه يجب طاعته في ظل طاعة الله، كما إذا عيّن الرسول (ص) شخصاً بعنوان كونه

(٢٨) راجع ينابيع المودّة: ٤٩٤.

أميراً للجيش فطاعة هذا الأمير واجبة على الناس، ولهذا قال (ص): *(لعن الله من تخلّف عن جيش اسامة)*، لماذا؟لأن طاعته امتداد لطاعة رسول الله (ص)، وكما أن طاعة رسول الله (ص) واجبة فطاعة من نصّبه الرسول واجبة أيضاً. وكذا في مورد أُولي الأمر فكما أن طاعتهم واجبة فإن طاعة من ينصّبونه واجبة أيضاً. ومن هنا تكتسب ولاية الفقيه قيمتها الشرعية، وذلك لأننا نعلم أن ائمتنا قد عيّنوا الفقهاء بشروط خاصّة بعنوان النيابة العامّة عنهم (ع) وأكدوا على وجوب طاعتهم، وحتى إنهم قالو: *(الرّاد عليهم كالرّاد علينا وهو على حدّ الشرك بالله)* فطاعتهم إذن واجبة علينا. لكن لا لأن عنوان أُولي الأمر ينطبق عليهم، فهذا العنوان مبهم بالنسبة إلينا ولا نعرف مصاديقه وقد فسّره الرسول الكريم (ص) بالأئمة الاثني عشر، وتفسيره (ص) للوحي حجّة.

وقد أكد الأئمة (ع) على هذه النقطة، ففي زمان الصادقين عليهما السلام كان بعض الأشخاص التابعين لبني أميّة أو بني العباس يتمسّكون بهذه الآية لإضفاء الشرعية على حكومة أُولئك، كما نلاحظ هذا في عصرنا الراهن حيث يتمسّك بعض الخونة المضادّون للإسلام بهذه الآية لتبرير الحكومات اللاإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي والمُؤَيَّدة من قبل بعض الذين عليهم مسحة رجال الدين، ويقولون ان الطاعة لهؤلاء الطواغيت واجبة بحكم الآية لأنهم من مصاديق أُولي الأمر. وفي تلك الأزمنة الغابرة كان الأمر أيضاً بهذا المنوال، يتمسّك الاتباع للظلمة بالآية لإضفاء الشرعية على حكومة الطواغيت من بني أميّة وبني العباس. وقد دلّنا الأئمة (ع) على طريق لمناقشة هؤلاء وهي أنكم تبدأون بسؤالهم: ماذا يقول القرآن عن الصلاة؟ يقول ﴿أقيموالصلاة﴾، ومن أين تعلّمتم كيفيّة الصلاة؟ لا يوجد سبيل لمعرفة ذلك إلاّ السؤال من النبي (ص)، وكذا بالنسبة للزّكاة والحجّ وغيرهما، فتفاصيلها تُعرف من المرسل بها. ونظير هذه طاعة أولي الأمر، فالمتعين هو السؤال من النبي لمعرفة من هم هؤلاء، وقد سألوه(ص) وعيّن لهم الائمة الإثني عشر، وتفسيره (ص) للوحي حجّة، إذن

لا حقّ لأحد في مخالفتهم.

إذن هذه الآية الكريمة لا تدل مباشرة على وجوب طاعة الفقيه بالشروط المذكورة في محلّها، وإنما وجوب طاعة الفقيه ناشئة من كونه منصوباً من قِبل الإمام المعصوم.

ولو فتحنا هذا الباب الذي فتحه قبلنا أهل السنّة لاستُغلّت هذه الآية الكريمة استغلالاً سيّئاً في كثير من الموارد، فيقال مثلاً من الذي قال بأن ولي الأمر لا بدّ أن يكون فقيهاً وإنما يكفي فيه أن يكون عارفاً بأوامر الإسلام ولو بالتقليد. ولهذا فنحن نظن أن إصرار البعض على استنتاج ولاية الفقيه من هذه الآية الشريفة ليس طريقة صحيحة. وإنما ولاية الفقيه ناشئة من تنصيب الإمام المعصوم (ع) فالرّاد عليهم كالرّاد علينا والرّاد علينا كالرّاد على الله وهو على حدّ الشرك.

وبهذا نختم حديثنا عن الهداة والأنبياء ونسأل الله سبحانه أن يوفّر لنا الفرصة لإكمال سائر بحوثنا بإخلاص وصدق وسير على منهج أهل البيت (ع) في فهم معارف القرآن بشكل جيد وصحيح ثم العمل على ضوئها بالنسبة لأنفسنا وللآخرين.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات